

أبحاث ودراسات  
في

أ.د حنيفة هلايلي

# التاريخ الأندلسي الموريسكي

د. أميرة الهدى  
عين مليلة - الجزائر

أ.د. حنيفي هرايلي

دكتوراه في التاريخ الحديث المعاصر

جامعة سيدي بلعباس

# أبحاث ودراسات فج

التاريخ الأندلسي الموريسكي

دار الهدى

عين مليلة الجزائر

# دار الهدى

للطباعة والنشر والتوزيع

المنطقة الصناعية صرب 193 عين مليلة - الجزائر

الهاتف: 032.44.92.00 // 032.44.95.47 الفاكس: 032.44.94.18

web: www.elhouda.com e-mail: darelhouda@yahoo.fr

## الفروع

### عين مليلة

طريق باتنة

الهاتف: 030.34.46.85 الفاكس: 030.34.46.84

### قسنطينة

حي كوحيل لخضر جنان الزيتون

الهاتف: 031.92.22.08 الفاكس: 031.92.27.08

### الجزائر

01 شارع أوراس بشير باب الواد

الهاتف: 021.96.62.20 الفاكس: 021.96.61.11

02 شارع أحمد محمد الحراش

تلفاكس: 021.52.13.07

### وهران

05 شارع زيفود يوسف عمارة الحرية

الهاتف: 041.40.46.47/041.40.46.89

الفاكس: 041.41.46.54

## حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

عنوان الكتاب: أبحاث في التاريخ الأندلسي الموريسكي

اسم المؤلف: حنفي هلايلي

الجسم: 16 X 24

عدد الصفحات: 192

الرقم التسلسلي: 2010 - 31

رقم الإيداع القانوني: 2010 - 1676

ردمك: 1 - 251 - 26 - 9947 - 978

سنة الطبع: 2010

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر

الإهداء

إلى

الصديقة في إخلاصها و الرفيقة في وقتها  
و الشريكة في أمانتها و الزوجة في إعزازها  
إلى زوجتي..

حنيفي هلايلي

## مُقَدِّمَةٌ

لقد تميز القرن السادس عشر بإلحاح العثمانيين على احتواء العالم المتوسطي وتجلى هذا التوجه في مختلف العلاقات التي نسجتها الدولة العثمانية مع مختلف لقوى التي كان لها حضور في هذا العالم (المدن الدول، كالبندقية، ممالك مصر، لمدان شمال إفريقيا، الإمبراطورية الإسبانية والبرتغال وحتى إيران).

والمواقع أن موضوع الموريسكيين الأندلسيين والعالم المتوسطي قد تم تناوله أشكال مختلفة وفي مناسبات متعددة. وهي أبحاث تفوق الغرب بدراساتها بحكم لوثائق الموجودة بحوزة باحثيه ومؤسساته الأرشيفية.

إن الحضور الموريسكي في عالم المتوسط وتاريخ الجزائر إجمالاً خلال العصر لحديث، واستقرار الحكم العثماني بالجزائر، مع عثمانة فضاء المغرب الأوسط، وتزايد عمليات الجهاد البحري، أدى إلى تغيير الخارطة الجغرافية لمنطقة الحوض الغربي لبحر الأبيض المتوسط، ليصبح الصراع العثماني - الإسباني ذا أبعاد عالمية، وبموجبه صبحت أياالة الجزائر محوراً رئيسياً، وخاصة بعد تدفق تيار الهجرة الأندلسية على سواحل المغرب العربي .

درج المؤرخون على استعمال مصطلح الموريسكيين Moriscos كدلالة تاريخية لنت سلمى الأندلس أو العرب المنتصرين بعد سقوط غرناطة 1492، الذين فرض عليهم التنصير قسري ما بين 1499-1526، وبقي أحفادهم حتى عمليات الطرد النهائي ما بين 1609-1614.

وسعت المملكة الإسبانية منذ ذاك إلى فرض العقيدة المسيحية على مسلمي الأندلس، وهذا ما يفسر تعدد إنشاء محاكم التفتيش في كامل أرجاء المملكة وملاحقة الموريسكيين على الصغيرة والكبيرة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، كان المسلمون في الأندلس يسمون Sarracenos أو moro وهي كلمة اشتق منها لفظ (موريسكي) ومن وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية الإسبانية يسمى الموريسكيون بـ المسيحيون الجدد Nuevo cristianos.

أقدم إلى القارئ هذا السفر الجامع تحت عنوان: أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، ذلك أن فترة الحضارة الأندلسية قد ملأت نفوس الناس إعجابا واعتزازا، باعتبارها إحدى الحلقات الأساسية الفاعلة في فلسفة الحضارة العربية -الإسلامية وعطاءاتها المختلفة، وتطعيم مضمون المعرفة الإنسانية الشاملة حيث منحتنا الأندلس عن طريق أمرائها وعلمائها وفلاسفتها وكتابها وفقهائها وشعرائها وعمرائها أفضل القيم وأخلدها، فلا غرو أن عزف الناس باحثون ومؤرخون عن دراسة مأساة شعبها الذي حارب في لغته ودينه وهويته وحضارته.

إن هذه الدراسات والبحوث مع اختلاف المواضيع التي تتناولها والقضايا التي تطرحها، تتوزع على ثلاث محطات أساسية:

أولها يهتم بالهجرات الأندلسية إلى الجزائر خلال مراحل زمنية مرتبطة بأحداث تاريخية لها دلالتها السياسية والحضارية.

أما المحطة الثانية فتعالج موضوع العقيدة والدين، فمن خلال هذا الفصل نعلم الشيء الكثير عن الاحتضار السياسي للموريسكيين، لكننا لازلنا نحتاج إلى تأطير احتضارهم النفسي والثقافي. لقد استعمل الموريسكيون اللغة الإسبانية المعروفة بالأدب الأندلسي الموريسكي ونسخوها بالأحرف العربية، وقد سجلوا لنا في هذه

المخطوطات جوانب بالغة الأهمية في صراعهم الحضاري وارتجاجاتهم النفسية، ودفاعهم عن هويتهم الثقافية وتمسكهم بمبادئ دينهم.

أما القسم الثالث فتناول بالدرس الحضور الأندلسي في الجزائر خلال العهد العثماني على ضوء وثائق المحاكم الشرعية المحفوظة بالأرشيف الجزائري، وهذا من خلال الإسهام الحضاري للعناصر الأندلسية. بينما القسم الرابع من الكتاب يطرح أهمية النصوص الأخمياوية الوريسكية في فهم طبيعة السلوك الديني والاجتماعي للأندلسيين خلال فترة المعاناة اليومية والاحتضار النفسي والثقافي لهذه الأقلية المسلمة في اسبانيا الحديثة. ويركز في مباحث أخرى على قيمة التراث الديني عند الوريسكيين وتخليد ذاكرتهم المأساوية في كتابات أحمد المقرئ.

إن هذه الدراسات الأكاديمية مع تنوع مواضيعها وتداخل المعلومات الواردة فيها، هي في أساسها بحوث علمية قدمت في مؤتمرات دولية ووطنية أو نشرت في مجلات علمية متخصصة.

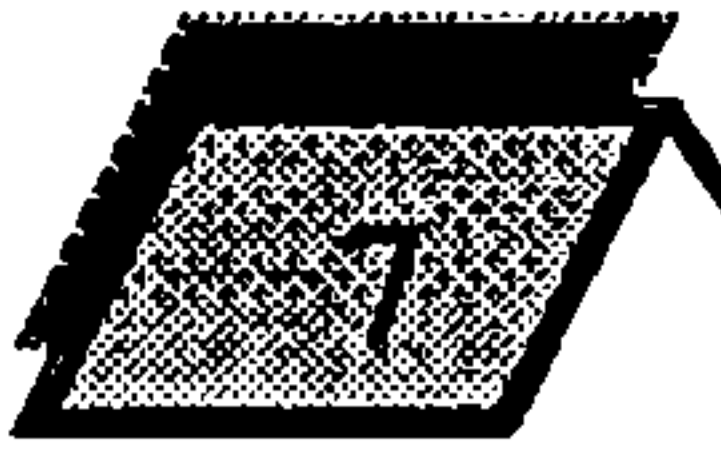
إن الغاية من الدراسات التي يتضمنها هذا الكتاب هو المساهمة في ملأ الذاكرة الجزائرية وإبراز جوانب النشاط الإنساني والإسهام الحضاري للأمة الجزائرية.

**وفقنا الله لما فيه الخير والنفع للجميع.**

أ.د- حنيفة هلايلي

سيدي بلعباس في 1 محرم 1431هـ

الموافق لـ 18 ديسمبر 2009م



## القسم الأول

### الهجرات الأندلسية إلى الجزائر

عرف المغرب الأوسط نزوح الأندلسيين على ثلاث مراحل<sup>(1)</sup> تميزت كل مرحلة بأحداثها التاريخية، كما ارتبطت معظم هذه الهجرات بظروف سياسية واقتصادية واجتماعية، وحددت طبيعة الهجرة التي كانت لها آثار على منطقة المغرب الأوسط.

#### 1 - الهجرة إلى المغرب الأوسط قبل سقوط غرناطة 1492م:

إن العلاقة بين العدوتين<sup>(2)</sup> في العصر الإسلامي تبتدئ مع الفتح الإسلامي الأندلسي، وتستمر إلى غاية سقوط غرناطة (1492م)، والموقع الجغرافي للدولة الرستمية في المغرب الأوسط وظروفها السياسية والمذهبية، أدى إلى تقارب ودي، عسكري وسياسي واقتصادي بين بني رستم في تاهرت وبني أمية في الأندلس.<sup>(3)</sup>

(1) حول موضوع مراحل التواجد الأندلسي بالمغرب الأوسط، راجع الدراسات التالية: ناصر الدين سعيدوني: الأندلسيون (الموريسكيون) مقاطعة الجزائر (دار السلطان) أثناء القرن السادس عشر والسابع عشر، حوليات جامعة الجزائر، العدد 7، الجزائر 1993، ص: 107-129. ولنفس المؤلف: "صورة من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر"، المجلة العربية، العدد 27، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، سبتمبر 1994، ص: 222-236. وهناك رسالة ماجستير غير منشورة باللغة التركية من جامعة أنقرة. يتناول صاحبها موقف الدولة العثمانية من استقرار الجالية الأندلسية بالجزائر.

انظر:

Chakib Benafri: ENDULUSTE SON MUSULUMAN Kalintisi MORISKO LARIN CEZYIR: E Cuçu un Osmanli YARDI M (1492-1614), Ankara 1989, pp.: 84-124.

(2) أطلق المؤرخون على المغرب والأندلس اسم (العدوة) لسهولة الاتصال بينهما، فالساحل المغربي يكاد يتصل

بشكل مباشر بالساحل الأندلسي عند مضيق جبل طارق

والعلاقات السياسية بين الإمارات الرسولية والأمية أثار من فرن ونصيف (144-296 هـ/761-909 م).



وقد استفادت حكومة قرطبة بكل ما تحتاجه من المقاتلين من فرسان زناتة بالمغرب الأوسط، حيث لم تتردد حكومة تاهرت في إمداد الأندلس بهؤلاء المحاربين بصورة مستمرة.

واستفاد الرستميون من جراء هذه الخدمات بالخبراء الأندلسيين حتى أصبحوا أعضاء بارزين في مجلس الشورى الإباضي التاهرتي، واشتهر من بين هؤلاء الوافدين الأندلسيين عمران بن مروان الأندلسي ومسعود الأندلسي، اللذين كانا من بين السبعة أشخاص الذين رشحهم الإمام عبد الرحمن بن رستم لإمامة الإباضية في تاهرت قبل وفاته. (1)

وقد ساهم الرستميون في مد أمويي الأندلس بما يحتاجونه في إطار العلاقات الاقتصادية الثنائية، وشكلت التجارة عصب الحياة الاقتصادية بين تاهرت وقرطبة، وتعدت العلاقات الأموية-الرستمية إطار التعاون السياسي إلى الميدان التجاري، فكانت السفن التجارية تتردد بين موانئ المغرب الأوسط وموانئ الأندلس، مثل ميناء فروج<sup>(2)</sup> ومرسى الجزيرة الخضراء وشاطبة، محملة بالتجار وبالعلماء والمسافرين.

ويبدو أن مشاركة الأندلسيين خلال هذه المرحلة كانت واسعة، حيث قام البحارة الأندلسيين بإنشاء المدن والثغور على طول ساحل المغرب الأوسط، وشكلوا جماعات هامة من سكانه، وكان بين هؤلاء من يسكن مرسى الحجاج ومدينة تنس، حيث ذكر البكري أن البحريين من أهل الأندلس قد ساهموا في تشييد وبناء تنس سنة (262هـ/875م)، وكان من بين مؤسسيها الكركرني وأبو عائشة، وهم من

(1) أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، (تحقيق إبراهيم طلاي)، قسنطينة 1974، ج1، ص46

(2) كان مرسى فروج الجزائري الميناء الوحيد والرئيسي الذي ينفذ منه بنو رستم، ويقع في غرب الجزائر ما بين مدينتي مستغانم وآرزويو، ويسمى حالنا مرسى الدجاج.

أهل البيرة وأهل تدمير<sup>(1)</sup> الأندلسية، وإن إقامة هؤلاء في تنس<sup>(2)</sup> لدليل على أنهم لعبوا دوراً رئيسياً في عمليات التبادل التجاري بين المغرب الأوسط والأندلس.

وكانت مساهمة الأندلسيين واسعة في مدينة تاهرت، حتى أطلق اسم الأندلس على أحد أبواب المدينة، وفي هذا الصدد يذكر ابن حوقل أن مدينة وهران فرضت الأندلس عليها ترد السلع ومنها يحملون الغلال.<sup>(3)</sup>

وبإيعاز من قرطبة جدد تعمير مدينة وهران سنة 290هـ/903م من طرف أندلسيين هما: محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون، وجماعة من بحارة الأندلس الذين كانوا يترددون على مرسى وهران، وذلك بمساعدة العشائر المحلية القريبة منها، كنفزة ومسغن من ازداجة.<sup>(4)</sup>

وهناك ثلاثة عوامل دفعت الجالية الأندلسية لتجديد وتعمير مدينة وهران:

– **عامل طبيعي:** توفر المدينة على مرفأً طبيعي هام يجعل السفن بمنأى عن العواصف ويساعد على رسوها، زيادة على توفر المدينة على سهول واسعة خصبة مع وفرة المياه العذبة بها، وذلك ما أكده الإدريسي قائلاً: (وشرب أهلها من واد يجري إليها من البر، وعليه بساتين وجنات، وبها فواكه ممكنة، وأهلها في خصب، والعسل بها موجود).<sup>(5)</sup>

(1) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشره دي سلان، باريس 1965، ص 61.

وقارن عند: ابن حقل، صورة الأرض، بيروت: مكتبة الحياة، بدون تاريخ، 78.

(2) يذكر صاحب الاستبصار أن مدينة تنس كانت كثيرة الزرع، ومنها يجعل الطعام إلى الأندلس، انظر: مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق وتعليق: د. عبد الحميد زغلول، الدار البيضاء، 1985، ص 133.

(3) ابن حوقل، المصدر السابق، ص 79.

(4) قبيلة مسغن أو مسكين: بطن من قبيلة ازداجة التي كانت تسكن منطقة وهران، انظر: البكري، المصدر السابق، ص 70.

(5) الإدريسي، نزهة المشتاق، الجزء الخاص بالقارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، (تحقيق وتقديم: إسماعيل العربي)، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص 153.

- **عامل تجاري:** كانت الجالية الأندلسية ترمي بهذا العمل إلى ضمان منفذ تجاري للبضائع الأندلسية داخل المغرب الأوسط وبلاد السودان، وكذلك تصدير بضائع المنطقة إلى الأندلس، ويقول الإدريسي في هذا الصدد: وبها (وهران) أسواق مقدرة وبضائع كثيرة وتجارة نافقة، وهي تقابل مدينة المرية من ساحل بر الأندلس وسعة البحر بينهما مجريان... ومراكب الأندلس، إليها مختلفة. (1)

- **عامل سياسي:** كانت الخلافة الأموية بالأندلس ترمي من وراء ذلك إلى جعل وهران قاعدة أندلسية ضد الفاطميين وضد الثائرين عليها من أدارسة المغرب، وذلك عن طريق بث دعايتها من قبائل مغراوة القاطنة بالمنطقة.

ولنا أن نتساءل: كيف كان سلوك الأندلسيين بالمنطقة؟

نورد في البداية نصا للحسن الوزان وهو يحمل بعض الأجوبة على هذا التساؤل، إذ يقول: (وكان الوهرانيون دائما أعداء لملك تلمسان، لم يقبلوا قط وال من ولاته، ما عدا أمينا للمال وقابضا يستلم مداخيل الميناء، وكانوا ينتخبون رئيس مجلس ينظر في القضايا المهنية والجنائية، كما كان التجار فيما مضى يجهزون على الدوام سفنا شرعية وأخرى مسلحة يمارسون بها القرصنة، ويجتاحون سواحل قطونية وجزر يابسة ومنورقة وميورقة، حتى أصبحت المدينة تزخر بالأسرى المسيحيين (2).

نلاحظ أولا أن المؤلف لم ينص صراحة على أنهم أندلسيون، ولكن القرائن تدل بالفعل على أنهم أندلسيون، ذلك أن أفراد الجالية الأندلسية ظلت تتقاطر باستمرار على المنطقة كما تؤكد ذلك المصادر التاريخية المعاصرة، ثم إن هذا التصرف من قبل

(1) نفسه.

(2) الحسن بن محمد، الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي و محمد الأخضر، (ال)، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983، ج 2، ص 30.

الوهرايين هو في الحقيقة موقف جديد، وهو يشبه إلى حد قريب تصرف أندلسيي العرب، عندما استقروا بالرباط والقصبة<sup>(1)</sup>، مما يجعلنا نميل إلى التأكد بأنهم أندلسيون، أو على الأقل كانوا مسيرين من طرف أندلسيين، فهم في الحقيقة كونوا شبه جمهورية صغيرة مستقلة بالمنطقة تمارس جزءا كبيرا من سيادتها.

وهذا يعني بكل وضوح أن الجالية الأندلسية خلال هذه الفترة كانت تشعر بالهوية المتميزة، وبالتالي فإن تصرفها كان ينبثق من واقعها بكل مكوناته السياسية والخلقية.

أما ساعدت سياسة السلاطين في بلاد المغرب على ازدياد النفوذ الأندلسي المملوكي، فأصبح تولي الحجابة (الوزارة) وإسناد الوظائف الإدارية والقيام بالمهام الدينية والتعليمية من نصيب الأندلسيين، فكان الوافدون من الأندلس يجدون مجالا واسعا لاستثمار مواهبهم في قطاعي التجارة والصناعة.

ولم تكن مدينة وهران الوحيدة التي جدد تعميرها من طرف الأندلسيين فقد ساءوا المسيلة في أوائل القرن الرابع الهجري، وأرزيو التي اشتهرت بتجارها الأندلسيين الذين كانوا يصدرون ملح سباخها إلى الأندلس.<sup>(2)</sup>

ارتبطت الهجرة الأندلسية خلال هذه المرحلة مع بداية تراجع المد الإسلامي الأندلس وسقوط الحواضر الكبرى بيد النصارى الأسبان مثل طليطلة 478هـ/1085م، وسرقسطة 512هـ/1118م، ومع انهزام الموحدين في معركة دمين العقاب las navas de Taloza سنة 609هـ/1212م، بدأت الحواضر

(1) ابن الخليل، أعمال الأعلام (تحقيق وتعليق: د أحمد مختار العبادي وأ- محمد إبراهيم الكتاني)، في كتاب تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1964، القسم الثالث، ص 66.

(2) محمد رزوق: "الجالية الأندلسية بالمغرب العربي: تونس والجزائر"، المجلة التاريخية المغربية، العدد

الأندلسية الكبرى تتساقط تدريجيا، كقرطبة 633هـ/1236م، وبلنسية 634هـ/1238م ومرسية وجيان وإشبيلية 646هـ/1248م.

إن المتأمل في الخريطة السياسية لمراحل الاسترداد المسيحي في شبه الجزيرة الإيبيرية يلاحظ دون شك أن انحصار المد الإسلامي بالأندلس أصبح حقيقة ومؤشرا للقضاء النهائي على الحضور العربي الإسلامي بالمنطقة.

وأمام هذه الأحداث المفجعة، نزحت جاليات<sup>(1)</sup> أندلسية إلى بلاد المغرب، ووجدت في المغرب الأوسط مكانا مناسباً، فاستقرت في المراكز الساحلية مثل هين وهران وأرزيو ومستغانم وتنس والجزائر ودلس وعنابة، بينما فضلت أعداد أخرى الاستقرار بيجاية وتلمسان لمكانتهما العمرانية، حيث أصبحت المدينتان عاصمتين للإشعاع العلمي والحضاري بالإضافة إلى نشاطها التجاري في المغرب الأوسط.

وكان الأندلسيون يفضلون الاستقرار في مكان يستطيعون فيه تحقيق طموحاتهم العلمية والسياسية والعسكرية والاقتصادية.

وأثناء هذه الفترة التاريخية الحاسمة، كان المغرب الأوسط ملجأ هاماً ومحطة انتقال للمهاجرين الأندلسيين، بحيث لم تستطع المملكة الزيانية<sup>(2)</sup> توفير المجال الجغرافي لحماية الشرق الجزائري والذي كان تحت النفوذ الحفصي، واكتفت بالجزء الغربي من البلاد كقاعدة لها (تلمسان).

(1) يلاحظ استعمال كلمة جالية أندلسية، حيث لم يكن القدوم الأندلسي إلى شمال إفريقيا فردياً بل كان جماعياً خلال هذه الفترة، وتواصلت الهجرة الأندلسية الجماعية بتجدد النكبات.

(2) تأسست الإمارة الزيانية حوالي سنة 633هـ/1235م، وانتهت بالفتح العثماني لتلمسان سنة 962هـ/1554م، وعرفت باسم دولة بين عبد الواد: إلى أن استولى عليها المرينيون، ودخلوا عاصمتها تلمسان سنة 738هـ/1337م، وبعد فتح البلاد من طرف السلطان أبي حمو موسى الثاني 1359-1389م، سميت الدولة باسم ولده زيان، فعرفت بالدولة الزيانية.

ولنا أن نتساءل عن أسباب اختيار أهل الأندلس مدينتي بجاية الحفصية وتلمسان الزيانية؟ كان لهذا الاختيار عدة اعتبارات، منها أن بجاية تحتل موقعا جغرافيا ممتازا إلى جانب اعتدال مناخها وخصوبة أرضها، وكانت مرفأ للسفن القادمة من المدن الأندلسية كالمرية وقرطاجنة وبلنسية.

وقد اعتبر الأندلسيون مدينة بجاية نقطة عبور نحو تونس وبلاد المشرق بالإضافة إلى كون بجاية مركز إشعاع حضاري وقاعدة للحكم خلال فترة الحماديين والموحدين والحفصيين.

وقد حظيت العناصر الأندلسية بمكانة رفيعة لدى أمير البلاد الحفصي ببجاية، وهذا منذ عهد المستنصر بالله (647-675هـ/1249-1277م)، حيث تقلد الأندلسيون مناصب حساسة في الدولة، كتولي الوزارة والحجابه والوظائف العليا في البلاد إلى جانب القيام بمهام التدريس والتعليم، واشتهر منهم أبو يعلى الأندلسي ومحمد بن أبي بكر الإشبيلي، كما أسند أبو عبد الله الحفصي حجابه ببجاية للأخوين: يحيى بن خلدون (765هـ)، ثم عبد الرحمن بن خلدون (766هـ).<sup>(1)</sup>

وكان أفراد الجالية الأندلسية يطمحون إلى الوصول إلى مناصب قيادية، بحيث دخلوا في اتصالات مع بلاطات المغرب العربي، إما عن طريق الوسائط أو بصفة مباشرة، وتتميز هذه المرحلة بالاضطرابات السياسية، فكان لزاما على أمراء المنطقة الاسترشاد بذوي الرأي والمشورة، ولم يستغن حكام المغرب عن المشورة الأندلسية، كما عرفت به من نقاذ البصيرة في شؤون الحكم والسياسة.

ومما يلاحظ أثناء هذه المرحلة، أن الأندلسيين مارسوا السياسة من موقع قوة، إما كوزراء أو حجابه أو مستشارين، وقد حقق بعضهم نجاحات باهرة وعبروا بذلك عن كفاءاتهم وقدراتهم.

(1) ناصر الدين، سعيدوني، سورف المقال السابق، ص 225.

كما برع الأندلسيون في ميدان التجارة أكثر من غيرهم بالمغرب الأوسط، إذ أن خبرتهم بالبلاد المسيحية كانت تؤهلهم بأن يلعبوا الدور الحاسم فيها، ومما يدل على أن الميدان التجاري هيمن عليه الأندلسيون ما ذكر في بعض المصادر من أن هؤلاء كانوا (منظمين) في إطار جماعات، ففي إشارة للغبريني يوضح فيها: (أن أبا بكر محمد بن محرز (655هـ/1257م)، كان على رأس الجماعة الأندلسية ببجاية)<sup>(1)</sup>، ولا شك أن نجاحها يرجع إلى تنظيماتها، وهي تنظيمات سبق أن تعودوا عليها وهم بالأندلس.

وإلى جانب الدراية الأندلسية بشؤون الحكم والتجارة، فقد عرف علماء الأندلس ببجاية الحفصية بأنهم كانوا موسوعي الثقافة، متنوعي الاختصاصات، حيث اشتهروا بالتأليف في مختلف التصانيف والمعارف، وقد أحصى المؤرخ الجزائري سعيدوني حوالي خمسين عالما أندلسيا استقر ببجاية أو كان مقيما بها زمنا قبل انتقاله إلى تونس أو بلاد المشرق العربي.<sup>(2)</sup>

وقد ارتفعت مكانة الأندلسيين في شتى أمور المجتمع البجائي دينيا ووظيفيا وتعليميا، حتى أصبح علماء الأندلس مثلا للقدرة نظرا لمكانتهم العلمية والأدبية التي امتازوا بها في ظل احترام الحكام لهم آنذاك، مثل ابن محرز البلنسي (ت 685هـ)، وأبي الحسن علي بن محمد الأنصاري الإشبيلي (ت 685هـ)، وأبي بكر ابن سيد الناس (ت 659هـ)<sup>(3)</sup>، وكان ابن محرز على رأس الجماعة الأندلسية ببجاية، يجتمعون بمقره، فكان منهم: (أبو عبد الله بن الأبار وأبو بكر بن سيده الناس

(1) أحمد أبو العباس، الغبريني، عنوان الداربية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، (تحقيق: رابح بونان)، ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1918، ص 287.

(2) ناصر الدين سعيدوني، صورة، المقال السالف الذكر، ص 227-230.

(3) حول هجرة علماء الأندلس إلى الجزائر خلال العهد الحفصي، انظر: محمد العطار، الروابط بين الجزائر والخارج، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1983، ص 177-212.

وأبو عبد الله الجنان<sup>(1)</sup>، كما دخل أبو عبد الله محمد بن علي الشهير بمحيي الدين بن عربي (ت 642هـ)، واستقر هذا المتصوف الأندلسي ببجاية منذ عام 597هـ، وله تأليف كثيرة كلها في علم التصوف<sup>(2)</sup>، ومن الأندلسيين من استوطن جزائر بني مزغنة (كأبي الحسن علي محمد بن شعيب الأشولي)، وكان نحويا لغويا أدبيا حافظا و(أحمد بن عبد الله بن خميس بن مروان) البلسي الفقيه الأديب الذي توفي بالجزائر سنة 547. (3)

أما تلمسان، فقد أصبحت أيضا مقصدا للمهاجرين الأندلسيين إثر انقسام دولة الموحدين وانكماش دولة بين الأحمر بغرناطة، وقد اتبع الملوك الزيانيون سياسة حسن الجوار إزاء حكام الأندلس ليتصدوا للأطماع الحفصية والغارات المرينية، وهذا ما شجع السلطان النصري أبي عبد الله محمد الخامس ملك غرناطة على إرسال وفد إلى تلمسان سنة 763هـ/1316م يطلب فيه العون والمدد من السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني (760هـ/1359م)، وكان على رأس هذا الوفد الكاتب إبراهيم بن الحاج، الذي نجح في مهمته وحصل من السلطان الزياني على خمسين ألف قده من الزرع، وثلاثة آلاف قطعة من الذهب لكراء السفن وشحنها إلى الأندلس<sup>(4)</sup>، كما استدعى الأمير الزياني أبي حمو يحيى بن خلدون، بسبب المشاكل السياسية التي واجتها الإمارة من جراء الفتن التي أحدثتها المنطقة الشرقية من البلاد، كثورة ابن عم الأمير أبي زيان بن السلطان أبي سعيد الثاني، فكان القضاء

(1) نفسه، ص 184-186.

(2) نفسه، ص 181-182.

(3) نفسه، ص 206-207.

(4) ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، (العهد العثماني)، الجزائر: المؤسسة الوطنية



على منافسه هذا يتطلب الحصول على مساعدة عرب رياح، وخاصة قبيلة الدواودة من عرب رياح.

وفعلا فقد أرسل الأمير الزياني خادمه يحيى بن خلدون للتفاوض، ونجح هذا الأخير في مهمته، فكان لذلك أحسن وقع في نفس السلطان الزياني الذي عينه كاتباً له وقربه إليه وجعله من مستشاريه، وعندئذ طاب المقام ليحيى بتلمسان واستقر بها.<sup>(1)</sup>

وبنزوح الأندلسيين إلى تلمسان، أضحت معهدا للتدريس، حيث توافدت إليها شخصيات أدبية وعلمية، منها محمد بن أبي يوسف الثغري والشاعر محمد بن علي ابن قاسم المرسى والبركات محمد بن الحاج البلفيقي<sup>(2)</sup> كما حل بتلمسان المحدث أبو عبد الله محمد بن جابر الواد آشي<sup>(3)</sup> الذي برع في النسخ.

ومن بين الأسر الأندلسية التي اشتهرت بحسن التدبير في الشؤون المالية في الدولة الزيانية، عائلة بني الملاح القرطبيين الذين استقروا بتلمسان، وقد اتخذهم بنو زيان أمناء على بيت المال، وفوضوا إليهم ضرب السكة من دنانير ودراهم، كما واستقرت أسرة أندلسية أخرى بتلمسان، وهي آل الآبلي<sup>(4)</sup>، والتي استخدمها السلطان الزياني يغمراسن في جيشه إلى جانب شخصيات علمية ودينية مثل الشيخ شعيب بن الحسن الإشبيلي المعروف بأبي مدين<sup>(5)</sup> دفن تلمسان سنة

(1) يحيى، بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، (تحقيق: د. عبد الحميد حاجيات)، الجزائر 1980، ج 1، ص 31-35.

(2) نسبة إلى بلفيق، حصن من عمل مدينة المرية.

(3) نسبة إلى وادي آشي، مدينة تقع شمال شرق غرناطة.

(4) نسبة إلى آبله، مدينة تقع شمال غرب مدريد.

(5) أبو مدين شعيب: فقيه وشخصية صوفية مشهورة، سكن بجاية، واستقر بتلمسان، الموريسكي، ص 125-126.

راجع يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 125-126.

594هـ/1197م. وتتجلى صورة التأثير الأندلسي نتيجة لاستقبال الإمارة الزيانية للجاليات أندلسية أكثر من المرحلة السابقة بفعل سقوط عدد من الثغور الأندلسية واكتظاظ الساحتين المغربية والتونسية بالأندلسيين، فجدوا في البحث عن أماكن شاغرة لاستثمار مواهبهم السياسية والعلمية والاقتصادية في المغرب الأوسط.

وذهبت راشيل أرييه (R. Arié)، وهي بصدد الحديث عن التأثيرات الأندلسية المتسربة إلى مملكة بن عبد الواد إلى أن بلاط تلمسان فقد في بداية القرن الثالث عشر الميلادي تحت حكم أبي حمو موسى الأول - طابعه البدوي بفضل التأثير الأندلسي، وتطرفت الأستاذة أرييه بعد ذلك إلى التأثير في المجال السياسي، وأوضحت أن أربعة من وزراء الأمير الزياني كانوا من عائلة أندلسية (تقصد عائلة بني الملاح) من قرطبة، وأن أكبر أمير زياني (أبو حمو موسى الثاني) كان ذا ثقافة أندلسية، وأنه كان يختار مساعديه الرئيسيين من بين أفراد حاشيته الأندلسية، وذكرت في هذا المجال يحيى بن خلدون، ومحمد بن يوسف القيمي الأندلسي، اللذين أضافا مع الأحداث الكبرى التي شهدتها عصر الأمير الزياني.<sup>(1)</sup>

وذكرت الأستاذة أرييه أن بلاط تلمسان فقد طابعه البدوي بفضل التأثير الأندلسي، ولكنها لم تذكر مجالات هذا التأثير، فهل يكفي أن يحيط الأمير الزياني بأربعة وزراء أندلسيين لتنسب إلى الجالية الأندلسية بالإمارة الزيانية ما سمته بالعمل التمدني (L'action civilisatrice)؟<sup>(2)</sup>

وبلاحظ أن الباحثة أرييه لم تستطع أن تثبت وجود أقلية أندلسية متماسكة لها تأثيرها السياسي والاقتصادي، ولعل السبب في ذلك يرجع في أن المصادر المعاصرة

(1) Arié, Rachelle L'Espagne musulmane au temps des Nasrides, Paris, P.U.F. 1973, pp 454-458

(2) Ibid, p 458.

نفسها لم تشر إلى وجود مثل هذه الأقلية، ذلك أن أفراد هذه الجالية كانوا يتعاملون مع السلطة.

واستطاع أفراد النخبة الأندلسية امتلاك ثروات لا بأس بها، وفي هذا الصدد ذكرنا الباحث عطا الله دهينة بأن استقرار الأندلسيين بالمغرب الأوسط كتلمسان، قد أثر في الحياة السياسية للمملكة الزيانية بوجه خاص، وأصبحت الجالية الأندلسية تمثل النخبة السياسية والدبلوماسية في المجتمع الزياني المسيطرة على دواليب الحكم والاقتصاد.

ووجب التذكير هنا باستفادة البلاط الزياني من الخبرات الإدارية والعسكرية والديبلوماسية لأفراد الجالية الأندلسية، حيث عمل الأمراء على تشجيع بعض العائلات الأندلسية وتقديم المزيد من الامتيازات لها داخل الإدارة، ليتسنى لها السيطرة على بعض المواقع القيادية بهدف وضع حد للنفوذ المتزايد لشيوخ القبائل المحلية داخل البلاط الزياني، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى الحنكة والكفاءة والخبرة التي اقتص بها أفراد النخبة الأندلسية داخل الإمارة الزيانية.<sup>(1)</sup>

## 2 - الهجرة الأندلسية إلى الجزائر ما بين 1492-1609م:

في المرحلة الثانية من الهجرة الأندلسية التي تبدأ بسقوط غرناطة (1492م)، قصد المهاجرون الأندلسيون مختلف المناطق الساحلية للمغرب الأوسط، واتخذوا من مدينة الجزائر ملجأ لهم، ومن الحكم العثماني نفوذاً مناسباً لآمالهم وطموحاتهم.

وقد ربط الموريسكيون الأندلسيون في هذه المرحلة مصيرهم بالأتراك العثمانيين، وكان لهم دور فعال في تثبيت قواعد الحكم العثماني بالجزائر وتمثلت

(1) A. Dhina - Les états de l'occident musulman au XVI<sup>e</sup> et XV<sup>e</sup> siècle, Alger, O.P.U., 1984, pp 182-183

مساعدتهم للعثمانيين من خلال التصدي للهجمات الإسبانية المتكررة من جهة، والمساهمة في القضاء على تمردات الإمارة المحلية بالجزائر من جهة أخرى.

ومنذ سقوط، غرناطة عمل الأسبان على محاولة تصفية الوجود الإسلامي من المنطقة، وملاحقة المورسكيين خارج شبه الجزيرة الإيبيرية في إطار حركة الاسترداد.

وقد تركت الملكة الإسبانية الكاثوليكية إيزابيلا في وصيتها بعد موتها (1504م): (إنني أرجو الأميرة ابنتي (جين) والأمير زوجها (فليب) وأمرهما بإطاعة وديايا أمنا المقدسة طاعة تامة، وأن يكونا حاميهما والمدافعين عنها حسبما يقتضي واحبهما، وألا يكفا عن متابعة إفريقيا، ومحاربة الكفار في سبيل الإيمان)<sup>(1)</sup>.

وتعود أصول الجهاد البحري الجزائري إلى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، بسبب الأزمة السياسية والاقتصادية التي عصفت بالمغرب الأوسط، والتي كانت من أهم عواملها هجرة مسلمي الأندلس إلى شمال إفريقيا واستقرارهم في المراكز الساحلية إلى جانب مساهمتهم في تموين سفن المجاهدين وكشجيعهم بدافع الحماية من جهة، بدافع الانتقام ممن طردهم من موطنهم من جهة أخرى.<sup>(2)</sup>

وقد وضعت إسبانيا لنفسها موضع قدم في إفريقيا، كان عبارة عن نقطة ارتكاز أساسية منعزلة للدفاع عن سواحلها الخاصة، كما شيدت سلسلة من القلاع على طول الساحل لشمال إفريقيا، واستولت على بعض المراكز الساحلية الجزائرية مثل المرسى الكبير (1505م)، وهران (1509م)، ومستغانم (1511م)، وتلمسان (1512م) وتنس (1509م)، وبنجاية (1510م)، والجزائر (1511م)، وعنابة (1512م).

(1) فارس محمد خير، تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، دمشق: المطبعة الجديدة، 1981-1982م، ص 13.

(2) فارس محمد خير، ص 16.

وكان الجهاد البحري في شمال إفريقيا قد لفت أنظار أوروبا المسيحية، ولا سيما مجاهدي الجزائر، الذين وجهوا نشاطهم ضد السفن الأوروبية، وسببوا الكثير من المتاعب للدول الأوربية المواجهة للبحر الأبيض المتوسط، حيث نقلوا معهم الكثير من الأسرى والغنائم، وتكفلوا بعمليات إنقاذ مسلمي الأندلس من محتهم، مما شغل الكثير من المؤسسات الدينية والسياسية الأوربية عصرئذ.

وعاصرت مشروعات الدولة العثمانية في البحر المتوسط الغربي، ظهور حركة عامة من رجال البحر، تستهدف العمل على حماية الموانئ والسواحل من التحرشات الإسبانية وتأمين وصول المهاجرين الأندلسيين على أكمل وجه، وكان من بين هؤلاء المجاهدين عروج وأخوه خير الدين بربروسا.

وبعد تأسيس الحكم العثماني بالجزائر (1519م)، كأولى قاعدة عثمانية في الصراع الإسباني - العثماني بمنطقة الحوض الغربي للمتوسط بدأ النشاط البحري الذي بذله الإخوان بربروسا وخلفاؤهما، أمثال صالح راييس، وايدين راييس، ودرغوت، ومراد راييس، وحسان فيزنيانو، وقلبيج علي باشا.

إن المغرب العربي والدولة العثمانية كانا يعتبران في نظر الموريسكيين (أرض الميعاد)<sup>(1)</sup> التي بإمكانها تقديم ما يحتاجونه من دعم يومئذ، وعلى الخصوص من سلاح للدفاع عن أنفسهم، وفي هذه الفترة الزمنية بالذات، سجل تزايد اللاجئين نحو المغرب العربي ابتداء من سنة 1570م، كما تمكن الموريسكيون من أن يجدوا لهم موقعا بالجزائر، وقد أصبح وصولهم الجماعي مكثفا عندما بدأ النظام العثماني في الاستقرار.

(1) التميمي، عبد الجليل، "رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان العثماني سليمان القانوني سنة 1541م"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 3، تونس، جويلية 1975م، ص 37-47.

وتمكن خير الدين من جعل إيالة الجزائر<sup>(1)</sup> قوة بحرية في المنطقة المتوسطية هزت إسبانيا وأرعدت أوروبا، واستحقت بأن يطلق عليها (بلد الجهاد) وعلى مؤسساتها العسكرية (أكبر مدارس الإسلام البحرية).<sup>(2)</sup> كانت معرفة خير الدين بالملف الموريسكي جيدة، مما جعله يعتقد وجوب إنشاء دولة قوية وموحدة بالمغرب الأوسط، والتي انطلقا منها يكون باستطاعته استرجاع الأندلس مرة أخرى، والعمل على انقاذ الموريسكيين من سياسة الاحتواء الثقافي والديني التي مارستها محاكم ودواوين التفتيش.<sup>(3)</sup>

ومما تجدر الإشارة إليه، هو أن معظم المؤلفين الغربيين، قد وصفوا عروج وخير الدين ودرغوت وقلج علي بالقراصنة أو المغامرين المتوحشين، وكان مدلول القرصان محتقرا جدا وهو الشخص الذي لا يشتغل إلا بالاستيلاء على الغنائم والانقضاض على السفن وتدمير السواحل وفرض العبودية على الأسرى.

إن الموريسكيين سواء الذين كانوا مستقرين بغرناطة أو بمناطق أندلسية أخرى، كانوا منذ عهد مبكر متشوقين للهجرة نحو شمال إفريقيا، وازداد هذا الشوق بعد قيام الحكومة الإسبانية بمزيد من الضغط ومحاولتها منها إبادة من بقي من

(1) حول تأسيس إيالة الجزائر، راجع:

Graminont (H.D de), Histoire d'Alger sous la domination turque 1515-1830, Paris, 1887, pp. 20-29.

—جوليان، شارل أندري، تاريخ إفريقيا الشمالية، (تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة)، ط2، تونس: دار التونسية للنشر، 1983، ج2، ص 321 - 350.

(2) أجقو، علي، "الدولة الجزائرية الأولى 1514 - 1830" "دراسة مؤسسية"، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة باتنة، العدد 2، ديسمبر 1994، ص 134 - 154.

(3) وولف. جون (ب)، الجزائر وأوروبا (ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله)، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص 39.

الموريسكيين، أما بالنسبة للمقيمين في المناطق الشرقية لإسبانيا، فكانوا يفضلون الشريط الساحلي الجزائري الذي لم يكن يبعد سوى ساعات قليلة عن الإبحار.

ومن جهة أخرى كانت الإيالة الجزائرية في نظر الموريسكيين أكثر الإيالات العثمانية-المغربية المهيأة عسكريا لتقدم الدعم والمساندة، وهذا نظرا لفعالية تحرك أسطولها البحري في المتوسط الغربي، وكذا لخبرة قوادها وبجارتها أمام الأسطول الإسباني الذي يراقب كل تحرك بحري في اتجاه سواحله.

إن القواد العسكريين والسياسيين والدينيين الإسبان كانوا يعلمون جيدا مدى الوزن العسكري لإيالة الجزائر العثمانية في ملف الموريسكيين، فقد سجل عدد كبير من الموفدين والمخبرين الإسبان إلى الجزائر على أنهم (تجار موريسكيون وكاتالونيون وإيطاليون، وأنهم علاوة على البعد الديني كانوا يقومون بوظائفهم التجارية مع المغرب العربي، وهم من خلال رحلاتهم التجارية كانوا الوسطاء والمخبرين عن الموريسكيين).<sup>(1)</sup>

وحول المهاجرين الأندلسيين الذين قصدوا مختلف مناطق إيالة الجزائر بعد سقوط غرناطة (1492م) وأنواع أنشطتهم، يمكننا أن نستقي ذلك من المصادر المعاصرة لهذا الحدث التاريخي الهام، فرغم اختلاف لغة وجنسية كل من الحسن الوزان<sup>(2)</sup> المعروف (بليون الإفريقي - Léon l'africain) في كتابه -وصف إفريقيا-

(1) عبد الجليل التميمي: "الدولة العثمانية قضية الموريسكيين"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 23 - 24، تونس، نوفمبر 1981، ص 8.

(2) ولد الحسن بن محمد الوزان في غرناطة ما بين عامي 1495-1500م، توفي سنة 1537م، ووقع أسيرا في يد القراصنة المسيحيين، وقدموه هدية إلى البابا ليون العاشر، الذي قام بتعميره، وأطلق عليه اسم جان ليون الإفريقي. اشتهر بكتابه: وصف إفريقيا للمزيد راجع: الحسن الوزان، وصف إفريقيا، محمد حجي و محمد الأخضر، ط1، الرباط، 1980، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص 11.

ومرمول كربخال<sup>(1)</sup> (Marmol Carvajal) في كتابه إفريقيًا. فقد تعرض إلى تواجد الأندلسيين بالمنطقة وخاصة في كل من برشك تلمسان وشرشال، والقل.

وكان للمهاجرين في شرشال حوالي 5000 مسكن، والذين يكون نواقم كل من الثغرين (Tagarinos)، والمدجنين (Mudéjares)، والأندلسيين، وكذلك مدينة القل ذات الطابع الموريسكي الأصلي، والتي استقر بها في عهد حسن باشا 1546-1567، حوالي 300 عائلة من أصل مدجن وثغري،<sup>(2)</sup> وفدوا عليها من إقليم مانتالة والأندلس وبلنسية، تذكر بعض الدراسات أن مجموعة هامة من الموريسكيين خرجوا من الأندلس، لجأت إلى سواحل خليج أرزيو قرب منطقة المقطع، وهاجروا سنة 1492م، واستقبلهم أهالي المنطقة بحفاوة.<sup>(3)</sup>

وتشير المصادر الإسبانية إلى الحملة البحرية التي قام بها كل من إيدين رايس وصلاح رايس في سنة 1529م بطلب من خير الدين بربروس، وأسفرت هذه الحملة عن نقل 600 موريسكي بلنسي، وكان هؤلاء ينتظرون النجدة والخلص من سفن الراس العثمانيين عند مصب نهر أوفيليا (Ovila) وتمكنت تلك السفن من العودة للموريسكيين إلى الجزائر رغم الاشتباك البحري الذي وقع مع الأسطول الإسباني قرب جزر الباليار<sup>(4)</sup>، وقد اختار هؤلاء التزول بمدينة الجزائر والاستقرار بسهولة في نواحي البليدة ودلس، وقد شجعت إيالة الجزائر حركة إنقاذ مسلمي الأندلس، وذلك بعبارة من البيلرباي خير الدين .

(1) مرمول كربخال، رحالة ومؤرخ إسباني، كان خبيراً في الشؤون الإفريقية، ووقع أسيراً في المغرب الأقصى سنة 1556م، وكتابه طبع بعد معركة ليبانت (1571م).

(2) مرمول، كاربخال، إفريقيًا، ترجمة: محمد حجي و محمد زينبر و محمد الأخضر، الرباط: الجمعية المغربية للدراسات والتاريخ، 1981، ج2، ص 362.

(3) Roland, Villot, Arzew des origines à nos jours, Oran, Edition Peritti, 3<sup>ème</sup>ed, 1961, p. 64.

(4) محمد عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتسربين، دار القاهرة: مكتبة الخانجي، 1987،



في نطاق هذه الجهود التي كان يقوم بها البحارة الجزائريون من أتراك وسكان السواحل من أجل مساعدة إخوانهم الأندلسيين، ذكر الكاتب التركي شلبي أن خير الدين وجه حوالي 36 سفينة إلى السواحل الإسبانية، وذلك خلال سبع مرات، لنقل ما يناهز حوال 70 ألف مورييسكي.<sup>(1)</sup>

وقد أشار كتاب غزوات عروج وخير الدين إلى بعض الحملات البحرية التي كان يقوم بها الإخوان بربروس لإنقاذ الأندلسيين، نذكر منها أن سفن خير الدين بعد أن تمكنت من الاستيلاء على مدينة مستغانم من يد الزيانيين، توجهت إلى سواحل الأندلس واستطاعت أن تنقل مسلمي الأندلس إلى الجزائر.

ونقتبس من كتاب غزواتها أيضا رواية أخرى تتعلق بالمساعدة في إطار إنقاذ أندلسي جبال البشارات الذين ثاروا ضد الحكومة الإسبانية سنة (1502م)، وقد وردت بهذا النص: ". أنه جهز لهم (خير الدين) ستة وثلاثين جفنا (سفينة) فترل أهل الجبل من الأندلس (أي الثائرون المحاصرون بالساحل)، فرفعوا نساءهم وأبناءهم ما قدروا عليه من أموالهم وأثاثهم، فأتوا بها إلى الأجفان ووسقوها بذلك، وركب عدد كبير منهم ورجعوا إلى الجزائر وخلفوا ألفي مقاتل من العسكر يحرصون جماعة المسلمين الباقية بالأندلس خوفا عليهم من عائلة النصارى، فلما وصلت الأجفان إلى الجزائر، وخلفوا ما حملوه من الأندلس بها، رجعوا إلى ذلك الجبل لحمل بقية المسلمين، فتكرر ذلك منهم سبع مرات، وكان من جملة ما حملوه من أهل الأندلس على ما قيل سبعين ألفا، وبقيت عدة أجفان بالجزائر وأنهم في كل

(1) عبد الجليل التميمي "رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان العثماني سليمان القانوني سنة 1541م"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 3، تونس، جويلية 1975م، ص 39، ونذر غرامون عن إنقاذ 10 آلاف مورييسكي، راجع:

سفرة يسافرونها برسم الغنيمة يأتون إلى سواحل الأندلس برسم نقل جماعة المسلمين<sup>(1)</sup>، وبسبب هذه الأعمال الجلية التي قام بها الأسطول البحري الجزائري، دفعت بقايا المسلمين بغرناطة إلى الاستنجاد بالدولة العثمانية من خلال رسالة بعثها أهل الأندلس إلى السلطان العثماني سليمان القانوني عام 948هـ/1541م، أثنوا فيها على جهود خير الدين، وأشادوا بمآثره وبطولاته بقولهم: «فقد كان بجوارنا المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا واستغثنا به، أغاثنا وكان سببا في خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المردة ونقلهم إلى أرض الإسلام وتحت إيالة طاعة مولانا السلطان ولعمارة مدينة برشك وشرشال ونواحي تلمسان ...»<sup>(2)</sup>.

وكان رد إسبانيا عنيفا عندما أسست ميليشيات مسلحة للرد على هجمات الأسطول الجزائري الذي كان يجوب سواحلها لإنقاذ مسلمي الأندلس، وكانت نتائج الحملات البحرية المتكررة للأسطول الجزائري على سواحل الأندلس أن بادرت إسبانيا بشن حملة كبيرة على مدينة الجزائر في أكتوبر 1541م بقيادة ملكها شارل الخامس.

وأثناء حصار مدينة الجزائر من طرف السفن الإسبانية، ظهرت شخصية حسن باشا الذي حث سكان المدينة على الصمود والمقاربة في وجه المحتل، وأشرف على عمليات تعزيز المواقع الدفاعية وتحسينها<sup>(3)</sup>، ولم يتمكن قائد الأسطول

(1) مجهول كتاب غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق: نور الدين عبد القادر، الجزائر، المطبعة الجزائرية، 1934، ص 48 و82.

(2) عبد الجليل، التعميمي، رسالة من مسلمي، المقال السالف الذكر، ص 45-46.

(3) Haedo,(F. de Diego); Histoire des rois d'Alger, traduit et annotée par de Grammont Alger, 1881 p. 62.

الإسباني أندري دوريا André Doria من اقتحام المدينة، وكانت الخسارة كبيرة في القوات الإسبانية، حيث خلفت المعركة فقدان الأسطول الإسباني (حوالي 150 سفينة) ومقتل 10 آلاف رجل، وتمكن سكان الجزائر من الحصول على كميات هامة من السلاح الذي تركه جند شارل الخامس، وبذلك استحوذت مدينة الجزائر لقب (الجزائر المحروسة)، وبعد مرور الزمن فرضت إيالة الجزائر قوانينها وسيطرتها على المنطقة حتى أصبحت في نهاية القرن السادس عشر أكثر قوة من بين المدن الجديدة في حوض البحر الأبيض المتوسط.<sup>(1)</sup>

ويذهب بعض المؤرخين الغربيين إلى أنه لو لا دخول بلاد المغرب العربي في حظيرة الخلافة العثمانية، لأمكن لإسبانيا تأسيس مملكة على طول الساحل (المغاربي)<sup>(2)</sup>، وللدرد على مثل هذه الادعاءات التاريخية، فإنه يمكن القول أنه لو لم تكن الدولة العثمانية منشغلة بالفتوحات في المشرق وصراعها الدائم مع الصفويين لأمكنها مساعدة إيالة الجزائر وفتح الأندلس من جديد.

عرفت مدينة الجزائر قاعدة الحكم العثماني هجرة مكثفة من طرف الموريسكيين الذين وصل عددهم مع مطلع القرن السابع عشر إلى أكثر من 25 ألف موريسكي<sup>(3)</sup>، وباستقرار الحكم العثماني بالجزائر، تزايد نشاط حركة الجهاد البحري في الحوض المتوسطي، إذ اتخذ الصراع العثماني-الإسباني أبعادا عالمية.

(1) Braudel.(Fernand), La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, paris, Armand colin, 2ed. 1966, T2, p. 288.

(2) L. Guin, « Quelques notes sur les entreprises des espagnols pendant la première occupation d'Oran », in R.A. (N° 28), 1886, p. 313.

(3) ناصر الدين سعيدوني: دراسات العهد العثماني، المصدر السابق، ص. 132.

وهو استمر تدفق تيار الهجرة الأندلسية نحو إيالة الجزائر، وخاصة بعد فشل الثورة الموريسكية (1568-1570م)، مما دفع بحاكم الجزائر آنذاك قليج علي باشا إلى التفكير في إمكانية تقديم المدد والذخيرة لمجاهدي غرناطة، حتى أطلق المؤرخون على قليج علي (بطل الإسلام).<sup>(1)</sup>

أما عبرت إيالة الجزائر عن تعاطفها مع الأندلسيين، فبعثت إليهم بالرجال والذخيرة من الذخيرة الحربية، وقد اعترف حكام الجزائر وعلى رأسهم قليج علي بأن الأندلس لا يمكن استعادتها بدون أسطول عثماني وقوة برية كبيرة، ولكن مع هذا فإن ثورة الموريسكيين في إسبانيا كانت مفيدة لبيلاز باي شمال إفريقيا، لأنها جمدت القوات البحرية الإسبانية بالإضافة إلى تجميدها للجيش الإسباني الذي كان قد بقي في حوض البحر المتوسط، كما أنها أعطت لقليج علي باشا فرصة ذهبية لمحاولة السيطرة على سواحل الشمال الإفريقي كله.<sup>(2)</sup>

ولا يمكن إغفال الدور الهام عند تعرضنا للمرحلة الثانية من الهجرة الأندلسية إلى إيالة الجزائر، دون الحديث عن مبادرة الإخوة بربروسا وخلفائهم -- كما سبق ذكره - حيث عملوا جميعا في استغاثة هؤلاء الموريسكيين والعمل على استقرارهم في مختلف المناطق الجزائرية، وتكشف لنا رسالة السيد أقيلا D. Juan Aguilá إلى حاكم بلنسية في 23 أبريل 1541م، عن خروج أفواج هامة ومتواصلة من موريسكي بلنسية نحو الجزائر، عقب فشل حملة شارل الخامس على مدينة الجزائر (1541م).<sup>(3)</sup>

(1) MAXANGE, Desfontin, Eudj' Ali, Paris, Ed A. Pedon, 1930, p. 120.

(2) جون (ب) وولف: المصدر السابق، ص: 85-34.

(3) C. Benafri, op. cit., p. 100.

وقد قام درغوت راييس بنقل حوالي 1500 موريسكي من منطقة بلنسية في عام 1569م، وكان من نتائج فشل ثورة البشارات بغرناطة (1570م)، نزوح حوالي 30.000 موريسكي بقيادة الحبقي إلى الجزائر، وهذا على إثر اتفاق عقد ما بين الموريسكيين ودون خوان دي أستريا (D. Juan de Austria)، بتاريخ 20 ماي 1570م.<sup>(1)</sup>

فحاكم الجزائر حسن فتريانو (1582-1588م)، وكذا بقية البيلاربايات الأسبقين، قد قاموا بتسهيل إقامة الموريسكيين، إذ أن حسن هذا، قد جلب ألفي موريسكي من منطقة أليكانت (Alicante).<sup>(2)</sup>

إن إسبانيا التي تقدر حق التقدير الوزن العسكري للعثمانيين، وعلى الأخص تلك التحركات البحرية للأميرال قليج علي في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، ومدى فعالية ذلك تجاه الموريسكيين<sup>(3)</sup>، وتمكن مراد راييس من شن غارة بحرية على سواحل لورقة (Lorca) غرب قرطاجنة بغرض نقل الموريسكيين<sup>(4)</sup>، وفي سنة 1585 وصلت أعداد من أهالي منطقة كاطالونيا إلى الجزائر.

وكانت الجزائر والمدن المجاورة كالبليدة والقلعة وشرشال، قد امتلأت بهؤلاء الوافدين الجدد، وعليه فإن سكان مدينة الجزائر أصبحوا بالفعل يتشكلون من أغلبية أندلسية.

وبالرغم من مشروع الهدنة الذي أقرته إسبانيا مع الدولة العثمانية سنة 1581م، فقد ازدادت شقاوة هؤلاء الموريسكيين الذين انتزع منهم كل شيء: حق التملك

(1) ناصر الدين، سعيدوني، دراسات العهد العثماني، المصدر السابق، ص 131.

(2) Haedo, Histoire, op. cit., pp. 193-194.

(3) محمد سي، يوسف، قليج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية، رسالة ماجستير، منشورة، جامعة الجزائر، 1988، ص 179.

(4) محمد عبد الله، عنان، نهاية الأندلس، ص 188.

ودينهم الإسلامي، وفي هذا النطاق، استغاث هؤلاء من جديد بالجزائر والدولة العثمانية طالبين منهما، مدهم بالأسلحة للدفاع عن أنفسهم ضد سياسة الدمج والاحتواء الديني والحضاري.

وعندما صعب عليهم الأمر عبروا التراب الفرنسي واستخدموا ميناء مرسيليا كنقطة للانتقال والإبحار إلى مدينة الجزائر، وكان هذا قبل عمليات النفي الجماعي.

وفي سنة 1584م، وجه السلطان العثماني مراد الثالث (1574-1594م) فرمانا إلى حاكم الجزائر حسان (1582-1588م)، حيث يعرض علينا فرمان بعض سفن الإزالة أثناء قيامها بحملة ضد السواحل الإسبانية، ثم الاستيلاء عليها من قبل سفن الدوق مرسيليا المعروف باسم دوق هنري دي قيز (Duc Henri de Guise) الذي كان يحكم المنطقة على عهد الملك الفرنسي هنري الثالث (1551-1589م).<sup>(1)</sup>

وقد أرسل الدوق معظم المسلمين الذين وقعوا في الأسر إلى مرسيليا على أساس أنهم حرب، وهناك بالسجن وحسب الذي أورد الخبر وجدوا اثنين من المسلمين وأربعة من المدجنين الذين خرجوا من إسبانيا على أساس العبور إلى مدينة الجزائر، فأرسلوا إلى مرسيليا، إلا أنه تم القبض عليهم، وعملوا معاملة أسرى حرب، وعاشوا بالتائب في السجن والسعي لبيعهم لأحد أعداء المسلمين، وهذا هو النص كما ورد في الوثيقة: (رسالة تعبر بأنه تم القبض على خمسة مسلمين من طرف الحاكم العام الدليل (يقصد به ملك إسبانيا)، وبعد خروجهم، ونظرا لمعرفتهم بأحوال الحاكم العام الدليل، نزلوا بولاية مرسيليا التابعة لملك فرنسا (هنري الثالث)، في الوقت الذي قامت من الساحل الغربي أو (دار الإسلام)، سفينة تحمل اسم (المسلمين الدليل)، والتي أثناء قصدها للغزو والجهاد في بلاد إسبانيا، التقت بالسفن التابعة

(1) انظر: د. محمد بن حفيظ، "موقف الدولة العثمانية من الجالية الأندلسية بالجزائر ما بين سنتي 1571 و1573" في أعمال المؤتمر العالمي الخامس للدراسات الموريسكية الأندلسية، ديسمبر 1991، زغوان سيمودي، 1993، ج 2، ص 35.

لدوق فرنسا الملعون، إن كفار هذه المنطقة أو قلعة (سان لوفيني) قاموا بالاستيلاء على تلك السفن وتعذيب رياسها، كما وضع معظم المسلمين في الأسر، وتم إرسالهم على أساس أنهم أسرى حرب إلى ولاية مرسيلىا وأثناء وجودنا بالسجن، وجدنا اثنان من المسلمين وأربعة من المدجنين، الذين خرجوا من أرض الكفار (إسبانيا) على أمل العبور إلى الجزائر، وقدموا إلى مرسيلىا، إلا أنه تم القبض عليهم كذلك وألقى بهم في السجن على أساس بيعهم كأسرى إلى أحد الكفار<sup>(1)</sup>

إن نص الوثيقة يعرض علينا بوضوح مصير الموريسكيين الذين قصدوا مرسيلىا، وتكشف لنا أيضا خلفية الصراع الذي كان قائما بين إيالة الجزائر وفرنسا قبل معاهدة 21 مارس 1619<sup>(2)</sup>، خلال هذه الفترة قامت السفن التابعة لحسن باشا ومراد راييس بحملات عديدة ضد السواحل الجنوبية لفرنسا، في الوقت الذي قامت فيه السفن الإسبانية والجنوبية تحت العلم الفرنسي بالاستيلاء على السفن الإسلامية في عرض البحر المتوسط، وهذا ما دفع الدولة العثمانية إلى إرسال العديد من الأوامر إلى إيالة الجزائر لملاحقة هذه السفن والقبض عليها.<sup>(3)</sup>

ولعل هذه الوضعية هي التي كانت هدفا البند الأول من معاهدة 21 مارس 1619م بين فرنسا والجزائر، الذي يركز على أن: (الأسرى المسترقين من المسلمين الذين يفرون من أراضي الأعداء ويلجؤون إلى فرنسا، تعطى لهم حرية العبور إلى

(1) نفسه.

(2) نص اتفاق معاهدة 21 مارس 1619م على احترام الطرفين الفرنسي-الجزائري للمعاهدات المبرمة بين الدولة العثمانية وفرنسا، كما التزم الطرفان بوقف كل الأعمال العدوانية ضد بعضهما البعض، ونصت المعاهدة على إقامة سلم دائم بين البلدين.

(3) إن الأوامر السلطانية المهمة (مهمة دفترى)، والموجهة إلى بيلايات الدولة العثمانية في القرن 16م، بينت بوضوح تقوية المقاومة ضد الأسبان، معتقدة على إيالة الجزائر التي كانت تعتبرها عدوا لها أيضا في هذه المقاومة

المراث، وإعطاء الأوامر إلى حكام المدن ومناطق حدود المملكة الفرنسية بعدم إرجاع وبيع هؤلاء المسلمين إلى أعدائهم).<sup>(1)</sup>

واستقر الأندلسيون في المرحلة الثانية من الهجرة في مدن جزائرية كثيرة مثل بجاية ودلس وتنس، ووجد هؤلاء المهاجرون في الجزائر أرضا تشبه أرضهم وأهلا كأهلهم، فاستوطنوا وساهموا في الحياة الاجتماعية بإدخال عنصرين رئيسين: الأول تمثل في الكفاح ضد الإسبان في البر والثغور دفاعا عن النفس ومحاولة لاسترجاع ممتلكاتهم، والثاني نشر أنماط الحضارة الأندلسية في الجزائر.<sup>(2)</sup>

ويرجع الفضل في هذه الهجرات إلى توسيع النسيج الحضري لمدينة الجزائر، وإقامة الحكم العثماني، حيث أصبح لها مركزان رئيسان يسكنهما الأندلسيون في الشرقا وشرشال غربا.<sup>(3)</sup>

ولم يتمركز الموريسكيون في مدينة الجزائر فحسب، فقد تمكن رضوان باشا (1607-1610م) من إرسال مجموعة من لاجئي الأندلس داخل البلاد للالتحاق بالمعومات السابقة، والتي كانت تعيش بالبليدة والمدية ومليانة وبجاية وقسنطينة<sup>(4)</sup>، واهتمت الجالية الأندلسية بتأسيس مراكز ساحلية وتعزيز خطوطها الدفاعية، في شرشال، كما ساهم موريسكيو غرناطة ومرسية في بناء وتعمير المرسى الكبير، وجعلوا منه قاعدة بحرية<sup>(5)</sup>، واستوطنت عائلات موريسكية أخرى المدن

(1) جمال، قنان: معاهدات الجزائر مع فرنسا (1619-1830م)، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1987م، ص 266.

(2) أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998 ج1، ص 142.

(3) أبو القاسم، سعد الله: الأندلسيون، المقال السابق، ص 110.

(4) M. Gaïd, L'Algérie sous les turques, Alger, ed Mimouni, 2<sup>ème</sup> ed, S.D, p 120

(5) Alexander (P), Djaglov, « Mers El kebir », in, R A, (N°84), 1940, pp 157-185



المجاورة لمدينة الجزائر، مثل البلدة والمدية، وانتشروا في ربوع أحياء مدينة الجزائر، وخاصة باب الواد وبولوغين والحامة والقبة وبوزريعة وتاقران وتليملي.

ومن الحقائق الثابتة أن هذه المناطق عرفت خلال هذه الفترة بحدائقها الخضراء ومنازلها البيضاء<sup>(1)</sup>.

بالإضافة إلى مساهمة الأندلسيين في توسيع عمران مدينتي هنين ومستغانم<sup>(2)</sup>.

ونظرا للضغط السكاني المتزايد على مدينة الجزائر العثمانية، فكر حكامها في تخصيص أماكن أخرى لإقامة المهاجرين الأندلسيين.

وكان لخير الدين السابقة في ذلك، إذ يرجع له الفضل في تأسيس مدينة البلدة عاصمة المتيجة، حيث اقتطع أجزاء من سهولها لأفراد الجالية الأندلسية بغرض الاستيطان، وشيد بها مسجدا جامعاً سنة 1535م، وحماما وفرنا، وسارع الناس في بناء المنازل على الطراز الأندلسي<sup>(3)</sup>، فأضحت البلدة مدينة الأزهار والثمار وعرفت باسم (الوريدة)<sup>(4)</sup>.

ويرجع الفضل إلى عروج الذي ساعد الأندلسيين في الانتقال إلى منطقة البلدة، وأصبح سيدي أحمد الكبير الوالي الرمز للأندلسيين، حيث تحمل مسؤولية الدفاع عنهم وتمكن من تشييد عدة قرى للاجئين منهم، وهذا ما بين مدينتي الجزائر والبلدة، خلال سنوات 1502م و1523م.

(1) M. Gaïd, op. cit., pp. 103-104.

(2) Moulay, Blehamissi, Histoire de la marine algérienne (1516-1830), Alger, ENAL, 2<sup>ème</sup> ed, 1986, p. 53.

(3) J. Monlaü, les Etats Barbaresques, que sais-je ? Paris, PUF, 1964, p. 72.

(4) الجيلاني، عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، الجزائر: المطبعة العربية، 1955، ج2، ص 314.

وكانت جامعة تمكن خير الدين من حمل المئات من الأندلسيين، والعمل على  
المراسم في مناطق ضفاف الوادي الكبير المعروف بوادي الرمان قرب قبائل شنوة.<sup>(1)</sup>

في سنة 1533م استنجد سكان منطقة تيبازة بسيدي أحمد الكبير، الذي وضع  
الامارات الجبليين<sup>(2)</sup>، بالإضافة إلى نزوح بعض العائلات الأندلسية إلى منطقة  
الورديت (Lorit) التي تبعد عن تلمسان بحوالي 7 كيلومترات، وبعد مضي عقد من  
الزمن دخل هؤلاء مدينة تلمسان واتخذوها مقرا لهم.<sup>(3)</sup>

واللاحظ خلال هذه المرحلة أن المناطق الساحلية الغربية من الجزائر كانت أكثر  
ملافاً في استيعاب هؤلاء المهاجرون من السواحل الشرقية، والذي يمكن أن يفسر  
بالقرب الجغرافي بين إسبانيا من جهة وللعلاقات الأندلسية-الزيانية من جهة أخرى.

ولعله جدير بنا أن نوضح أن استقرار الأندلسيين في المرحلة الثانية من الهجرة  
لم يقتصر على مناطق معينة، بل شمل عدة جهات وخاصة المراكز الساحلية، ويمكننا  
تقسيم هذه التجمعات في ثلاث أقاليم رئيسية:

– الغرب الجزائري: شمل وهران ونواحيها، ومستغانم وآرزيو وجهاتها،  
والمسار وقلعة بني راشد ومزونة.

(1) Kamel, Filali, Sainteté maraboutique et mystique, Contribution à l'étude du mouvement maraboutique en Algérie sous la domination Ottomane XVI –XVII siècle, thèse inédite, Strasbourg, 1994, p. 134.

(2) C. Trumelet, Blida : récits selon la légende, la tradition de l'Histoire, Alger, 1887, p. 577.

(3) M. Ravillard, op. cit., T2,p.148

- الوسط الجزائري: شمل الجزائر (دار السلطان)<sup>(1)</sup>، البليدة، القليعة، مليانة، شرشال، المدية وسهول المتيجة.

- الشرق الجزائري: شمل بجاية، جيجل، عنابة، وقسنطينة.

### 3 - الهجرة الأخيرة (1609-1614م):

وفيما يتعلق بالمرحلة الأخيرة من الهجرة الأندلسية، التي أعقبت قرار الطرد الجماعي للموريسكيين في فترة حكم فليب الثالث، فإن الجهات الساحلية للجزائر قد استقطبت أعدادا كبيرة من المهجرين قسرا، بواسطة السفن الإسبانية.

وبصدور مرسوم نفي مسلمي بلنسية بتاريخ 22 سبتمبر 1609م، تم ترحيل 28 ألف موريسكي نحو ميناء دانية (Denia)، و 15 ألفا آخرين إلى ميناء بلنسية، وقد حملتهم السفن الإسبانية على نفقتها الخاصة إلى مدينة وهران، بينما اعتمد المهاجرون الآخرون على أنفسهم، وعلى استئجار السفن والإبحار صوب السواحل الجزائرية.<sup>(2)</sup>

وعرفت مدينة الجزائر قاعدة الحكم العثماني خلال هذه المرحلة، هجرة مكثفة من الموريسكيين الذين بلغ عددهم في مطلع القرن السابع عشر حوالي 25000 موريسكي<sup>(3)</sup>، وقد توسعت مناطق تركزهم واستقرارهم لتشمل مناطق طول الساحل الجزائري مثل: آرزويو وشرشال وتنس والقليعة وبجاية ودلس وعنابة.

(1) دار السلطان: تمتد من داس شرقا إلى شرشال غربا، ومن ساحل البحر المتوسط شمالا إلى سفوح الأطلس البليدي جنوبا، وتضم إقليمي الساحل ومتيجة وبعض الامتدادات في بلاد القبائل والطياري.

(2) ناصر الدين، سعيدوني، دراسات العهد العثماني، المرجع السابق، ص 133.

(3) ناصر الدين سعيدوني، الأندلسيون، المقال السابق، ص 113.

١٥٩٠م. أثناء تمكنت أفواج أخرى، وخاصة موريسكيو استرامادور (Extremadura) واراغون (Aragon) ولامانشا (la mancha) من الالتحاق بميناء الجزائر وفحصها، عن طريق فرنسا عبر مرسليليا وليفورنة.

والسياسة لسياسية هنري الرابع ضد حكومة فليب الثالث ومساعي السلطان محمد الثالث أحمد الأول لدى حكومة فرنسا، تم تسهيل عملية نقل الموريسكيين إلى دار البرابانت، والتي أرخ لها أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي في كتابه ناصر الدين على القوم الكافرين بقوله: (لما صح عند سلطان إسطنبول خروج أهل الأندلس الذين هم ببلاد الترك، المجنين، كتب كتابه السني إلى سلطان فرنجة بالوصية عليهم، باسم ذلك الكتاب الأندلسيين نفعا عظيما)<sup>(1)</sup>.

١٥٩٠م وصلت أفواج هامة من الموريسكيين الذين خرجوا من موانئ ليفورنة ومارسيليا إلى شواطئ كل من إيالة تونس والجزائر، إلا أن حدث اغتيال الملك الفرنسي هنري الرابع عام 1610م، وموقف إسبانيا من الحكومة الفرنسية، جعل العديد من الموريسكيين يتعرضون إلى المضايقات وسوء المعاملة، ليس فقط من طرف بعض حكام المقاطعات الجنوبية الفرنسية، بل التعدي عليهم ونهبهم من طرف ريبانيي السفن الذين تعهدوا بنقلهم.<sup>(2)</sup>

ولعل الرسالة التي بعثها الموريسكي الغرناطي من مدينة الجزائر التي وصلت عن طريق مرسليليا إلى صديقه بمنطقة ترخيلو (Trujillo) في 25 جويلية 1611م، غنية

(1) الشهاب الحجري، أحمد بن القاسم، ناصر الدين على القوم الكافرين، (تحقيق: محمد رزوق)، الدار البيضاء، 1987، ص 49.

(2) M. Francisque, « les morisques en France », in, Revue d'Histoire Maghrébine, (N° 10), 56), Tunis, Décembre 1989, pp.154-158.

بالتعبير عن الظروف الصعبة التي واجهها الموريسكيون خلال مرحلة العبور<sup>(1)</sup>، ونظرا لكثافة الهجرة الموريسكية في المرحلة الأخيرة من الهجرة، فإنها أدت إلى تعبیر المقرئ في كتابه نفع الطيب: (خروج ألوف من أهل الأندلس نحو فاس، وألوف بتلمسان ووهراڤ)<sup>(2)</sup>

ولجأت السلطات الإسبانية إلى نقل الموريسكيين رأسا إلى السواحل الغربية من إيالة الجزائر، وخاصة وهران والمرسى الكبير وآرزيو ومستغانم، بحيث استغلت إسبانيا فرصة استيلائها على كل من وهران والمرسى الكبير لتسريب الآلاف من الموريسكيين نحو هذه المناطق.

وقد كان من نتائج التركيز المتواصل على وهران والمرسى الكبير في هذه العملية أن ضاقت المدينتان وما جاورهما بالموريسكيين، وتشير تقارير رباين السفن الذين شاركوا في هذه العملية الكبرى والموجودة بالأرشيف الإسباني بسيمانكا (Simancas)، إلى قوائم ومعلومات هامة حول عدد الموريسكيين الذين تم نقلهم وبنسهم (رجال، نساء وأطفال) ومكان نزولهم بالسواحل الجزائرية.

ومن أهم الموانئ الإسبانية التي تم منها ترحيل الموريسكيين نحو شمال إفريقيا (دانية (Denia)، أليكانت، قرطاجنة (Cartagena)، إشبيلية (Sevilla)، فيناروس (Vinaros)، ألفاكي (Los Alfaques)، بلنسية)<sup>(3)</sup>.

(1) Cardailiac (L), «les Turcs suprême espoir des morisques», in études sur les morisques, Madrid, 1973, pp. 84 – 102.

(2) المقرئ، شهاب الدين أحمد، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، (نشر وتحقيق، إحسان عباس)، بيروت: دار صادر 1968، ج4، ص 528.

(3) op. cit., p.111. ∴ C. Benafri

و على ضوء المعلومات المتوفرة لدينا حاولنا رسم خريطة توضيحية تمثل أهم الهجرات الأندلسية إلى شمال إفريقيا، وخاصة في إيالة الجزائر ما بين سنوات (1492-1614م).<sup>(1)</sup>

بعد صدور قرار الطرد الجماعي، استعان الملك الإسباني فليپ الثالث ببعض الدول الأوروبية قصد إنجاز عمليات ترحيل الموريسكيين خارج إسبانيا، ومن بين الدول التي شاركت في العملية، البرتغال وبعض الإمارات الإيطالية ومالطة.

وفي 17 أكتوبر 1609 قاد المركيز سانتكروز (ElMarquis de Santacruz) 17 سفينة هجرت من إسبانيا متجهة نحو وهران وهي تحمل على متنها 3406 موريسكيا.<sup>(2)</sup>

وبعد أن ضاقت المدينة وما جاورها بالموريسكيين أمر حاكم وهران الكونت دي أقيلا (le duc d'Aguillon) بتاريخ 7 أكتوبر 1609م القبطان المركيز دي سانتا كروز بقيادة ستة سفن لتحمل 6000 موريسكي، والعمل على نقلهم رأسا إلى المرسى الكبير، وبتاريخ 22 أكتوبر 1609م طلب الكونت دي أقيلا من رباني السفن لويس فراخدو (Luis Fajardo) وخوان جيرونيمو (Juan Doria Jeronimo) بقيادة 7 سفن، لحمل 3000 موريسكي إلى ميناء آرزيو ومزگران، والتفاوض المسؤولون الإسبان مع قبائل المنطقة قصد مساعدتهم من أجل نقل الموريسكيين نحو تلمسان ومستغانم، وكانت هذه القبائل العربية تشمل (أولاد موسى، وأولاد إبراهيم، وأولاد سيدي عبد الله، وبني عامر).<sup>(3)</sup>

وفي نفس السنة كلف حاكم وهران الكونت أقيلا (Comte d'aguillar) القبطان دون ألفونسو هيرناندو (D. Alfonso Hernando) بنقل حوالي 599

(1) انظر خريطة أهم الهجرات الأندلسية إلى إيالة الجزائر ما بين 1492-1614م، في ملحق الدراسة.

(2) Lapeyre (Henri), Géographie de l'Espagne morisque, paris, 1959, p57.

(3) C. Benafri, op cit., p.116.

موريسكيا إلى تلمسان، وهذا الجدول يوضح لنا هذه العائلات، ويوضح لنا من اختلاف جنس و سن الموريسكيين الذين تم ترحيلهم.

أسماء السفن	عدد الرجال	عدد النساء		الأطفال	المجموع
		ذكور	إناث		
Galeras Capitanes	47	43	22	8	120
Galeras Patronas	80	100	42	23	245
Galeras Molinas	85	88	32	29	234
المجموع	212	231	96	60	599 <sup>(1)</sup>

ووصلت أعداد أخرى من الموريسكيين بواسطة سفن إسبانية أبحرت من موانئ أليكانت وغراو (Grao) متجهة نحو وهران والمرسى الكبير بتاريخ 5 و 6 أكتوبر 1609م، وهي تحمل على متنها حوالي 1791 موريسكي، والجدول التالي يوضح لنا أسماء السفن التي شاركت في هذه العملية، وأعداد المهجرين الموريسكيين حسب الجنس والسن.

العدد	المهجون حسب الجنس	أسماء السفن	
64	رجال	Galeras Capitanes Générales	1
70	نساء		
16	أطفال ذكور		
20	أطفال إناث		

(1) C. Benafri, op. cit., p.115.

10	رضع		
72	رجال	Galeras Capitanes de los G�n�rales	5
90	نساء		
18	أطفال ذكور		
20	أطفال إناث		
06	رضع		
60	رجال	Galeras patronas G�n�rales	6
76	نساء		
22	أطفال ذكور		
20	أطفال إناث		
12	رضع		
73	رجال	Galeras Descabonas	4
107	نساء		
23	أطفال ذكور		
14	أطفال إناث		
38	رضع		
66	رجال	Galeras de Capitanes del duque de Lerma	5
42	نساء		
28	أطفال ذكور		
30	أطفال إناث		
22	رضع		
40	رجال	Galeras patronade Del duque la Magisted	6
50	نساء		
16	أطفال ذكور		
32	أطفال إناث		
32	رضع		
57	رجال		7



87	نساء	Galeras de Iomelinos	
54	أطفال ذكور		
23	أطفال إناث		
16	رضع		
74	رجال	Galeras Decigolas	8
90	نساء		
10	أطفال ذكور		
10	أطفال إناث		
12	رضع		
54	رجال	Galeras Oldas	9
31	نساء		
23	أطفال ذكور		
21	أطفال إناث		
20	رضع		
1791 <sup>(1)</sup>	المجموع		

وأثناء انتقال المهاجرين الأندلسيين من وهران إلى المناطق المجاورة تعرض لهم الأعراب في الطريق ونهبوا أموالهم، حيث تذكر بعض المصادر أن بعض القبائل الوهرانية كانت تقوم بأعمال وحشية ضد المهاجرين الأندلسيين، فتشق البطون آملة أن تجد فيها الجواهرات، وتعمل على تجريدهم من أملاكهم، وقد سار على هذا النهج المؤرخ أبو راس الناصري في كتابه عجائب الأبصار في حديثه عن المهاجرين الأندلسيين بعد سقوط غرناطة، وما ارتكبه قبيلة هبرة بميناء آرزيو من تعذيب وتقتيل، مما دفع بالشيخ محمد أقدار التوجيبي الذي استنهض الشيخ أحمد العبد، وحثه على أن يغزو بعشائر سويد قبيلة هبرة (بين الحمديّة وسيق)، حيث أن

(1) op. cit., pp.57-58. . . . H.Lapeyre op. cit., pp.117-118. وقارن عند C. Benafri.

بقر البطون (يشقون، بطونكم لما يظنون من ابتلاع نحو الجواهر)<sup>(1)</sup>،  
 المقري: (فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله)<sup>(2)</sup>

ولم يشر المقري إلى عملية شق البطون والتقتيل، لأن أية محاولة لتفسير هذه الرواية على أسس تاريخية لا قيمة لها ولا معنى، لأن كلمة بقر البطون لا تمت بصلة بالأهالي، فهذا نوع من التزييف والمبالغة، وذلك لما كان يتمتع به الأهالي من راحة ورفد في الجزائر قبل المرحلة السابقة لسقوط غرناطة.

إن القبائل الجزائرية في هذه الفترة كانت متحضرة وغير مستعدة للهجوم والبغي على إخوانهم في الدين، وفي هذا الصدد فإن أغلبية الرواة الغربيين و(المغاربيين) في تلك الفترة، مجمعون على أن بعض المدن والموانئ (المغاربية)، قد أساءت استقبال الموريسكيين في وهران وتلمسان، حيث قام البدو بسلبهم وقتلهم.

وقد كتب المؤرخ الإنجليزي شارل لي (Lea) حول هذا الموضوع: (لم يكن من عادتهم أن يتطوان متسامحين، وقد أضيفت إلى الموريسكيين مأساة جديدة، وهذا إلى درجة أن جميعهم لم يكونوا فرحين لعلمهم أن هناك موريسكيين مسيحيين ثابتون في دينهم قد رجموا أو قتلوا، وهذا نتيجة لرفضهم دخول المساجد، وفي البلاد المغاربية، وكقاعدة عامة، كانت آلام المهجرين شنيعة جدا، وعندما نزلوا بوهران كانوا لتبني خطة إنشاء دولة موريسكية، ولا شك أن الموريسكيين لم يكونوا يتركون الوضعية العامة، إلى أن عايشوا بأنفسهم كره العرب البدو لهم، وأنهم لا يهابون الآن إلا في الرجوع إلى إسبانيا ليموتوا مسيحيين).<sup>(3)</sup>

(1) ابن سحنون، الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، (تحقيق وتقديم): المهدي البوعبدلي، مطبوعة، منشورات التعليم الأصلي، سلسلة التراث 1973، ص: 27-28.

(2) المقري، المصدر السابق، ج4، ص528.

(3) شارل، لي، العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة، (تعريب: حسن الكرمي)، بيروت: منشورات دار لبنان للطباعة والنشر 1988، ص 212.

ومهما يكن من انتقاد لهذه الروايات، فإن بعض الباحثين المعاصرين تبنا مثل هذه المواقف بهذه الفترة الحرجة، محللين إياها بشكل غير متوازن، وهو الأمر الذي جعلهم يركزون على الطابع غير الإنساني والسلبى لمواقف بعض الطبقات الاجتماعية للأهالي<sup>(1)</sup>، وهي الوضعية الناجمة عن الفوضى الإدارية والسياسية للمغرب، لكونها ظاهرة تاريخية قديمة، ومتمثلة في الصراع القبلي ونهب الأملاك، ولم يستطع النظام العسكري العثماني القضاء عليها.

وإذا كان بدو وهران وتلمسان قد نهبوا أو سرقوا أملاك و ثروات الموريسكيين الذين حلوا بالساحل المغربي دون أن يقع القصاص عليهم، فهذا غير معقول، لأن الأهالي لم يكونوا على علم بمأساة الموريسكيين السياسية والدينية، وعلى الخصوص نتائج طردهم من الأندلس، بل تم نهب هؤلاء الموريسكيين بسبب مظاهر الثراء البادية عليهم، ومن هذا المنطلق يطرح التساؤلان الآتيان:

- هل كانت السلطات تعلم بما ارتكبه البدو في حق الموريسكيين؟

- وهل كان هؤلاء واعون بعملية النهب والسلب التي مارسوها تجاه هؤلاء

الموريسكيين الذين التجؤوا إلى الساحل المغربي لالتماس الأمن والحماية؟

إن أعداد الموريسكيين الوافدين على إيالة الجزائر خلال هذه المرحلة، كان أقل إذا ما قورن بمثيله في كل من المغرب وتونس، ونرجحه في رأينا إلى تعرض هؤلاء المهاجرين البائسين للاعتداء والنهب والسلب من طرف القبائل المحلية من جهة،

(1) Juan, pennela, «le transfert des morisques Espagnoles en Afrique du Nord», in, les morisques et leur temps, paris, 1983, p 86. وأيضا: Dominguez (A), Vincent., (B), Historia de los moriscos, vida y tragedia de una minoria, Madrid, biblioteca de la occidente, 1978, pp 225 - 245.

والملك المسلم الحاكم العثماني بالجزائر على أساس كونها إيالة دار الجهاد ومحور صراع  
الاسلام مع القوي المسيحية في المنطقة من جهة أخرى. (1)

وإذا يلاحظ أن الأندلسيين خلال هذه الفترة كانوا يتعرضون إلى مخاطر كثيرة  
من جراء إيقاعهم إلى الجزائر، ففضلا عن الأضرار التي لحقت بهم من جراء غارات  
الغزاة من الأعراب وانتشار الأوبئة، نجد أنهم يتلقون أشنع أنواع التعسف والظلم  
على أيدي ربابة السفن الإسبانية، وقد ينتهي بهم الأمر إلى الغرق في البحر كما  
كانت لمهاجري سفينتين كانتا متجهتين من قرطاجنة إلى وهران، فغرقتا في وسط  
البحر في شهر ديسمبر 1609م. (2)

ولعل هذه الظروف الصعبة التي عرفها الموريسكيون الأندلسيون وهم  
مهاجرون إلى إيالة الجزائر، هي التي دفعت البعض منهم إلى العودة مرة أخرى إلى  
إسبانيا وإعلان تبعيتهم لملك إسبانيا والتظاهر باعتناقهم المسيحية، مثل الجماعة التي  
قادها القبطان باري (Barret) من وهران إلى إسبانيا على ظهر سفينته، وهذا ما  
أدلى به إلى بعض الكتاب الغربيين بالقول بأن أكثر من ثلثي المهاجرين إلى وهران  
مهدوا العودة إلى الأندلس نظرا للمضايقات التي تعرضوا لها، وهذا فيه كثير من  
الالفة والتحيز. (3)

وصاحب الهجرة الأندلسية إلى الجزائر قدوم جماعات كبيرة من اليهود الذين  
استقروا بالحواضر الكبرى، وأصبحت الجماعة اليهودية ذات الأصل الأندلسي  
تشكل طبقة اجتماعية ذات تأثير واضح على الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وهذا  
ما سنراه في دراستنا حول يهود شبه الجزيرة الإيبيرية.

(1) أبو القاسم، سعد الله، : المصدر السابق، ج 1، ص 141.

(2) H. Lapeyre, op. cit., p 60.

(3) ناصر الدين، سعيدوني، دراسات العهد العثماني، المصدر السابق، ص 136.

## 4 - يهود شبه الجزيرة الإيبيرية في الجزائر.

عندما بدأت الحواضر الإسلامية بالأندلس تتساقط تحت ضربات الإسبان المسيحيين، أضحي العنصر اليهودي عرضة للبطش والقتل، وخاصة في سنة 1391 باشبيلية، حيث مارست الأوساط المسيحية أساليب الاضطهاد التعسفي ضدهم<sup>(1)</sup>، وفي عهد الملكين الكاثوليكين (إيزابيلا وفرديناندو)، صدر مرسوم بتاريخ 31 مارس 1492 يقضي بطرد اليهود من مملكتي قشتالة وأراغون وبعدها من إسبانيا<sup>(2)</sup>، وعملت محاكم التفتيش على مصادرة أملاكهم وملاحقتهم قصد تنصيرهم.

وتمت مطاردة اليهود حتى سواحل شمال إفريقيا، فقاسى هؤلاء اليهود الويلات من جراء هذه الملاحقة، وذلك من خلال ممارسات محاكم التفتيش الرامية إلى مطاردة اليهود والعمل على تشريدهم وتجريدهم من وسائل رزقهم، حتى ذهب أحد الكتاب اليهود إلى تشبيه التعذيب بتدمير هيكل القدس: (لقد شهدت مظالم هؤلاء الغزاة (الإسبان) الذين قاموا بتعذيب النسوة والأطفال والفتيان كما أحرقوا المعابد والكتب)<sup>(3)</sup>

عرف يهود إسبانيا أو (يهود الأندلس) في الأوساط العبرية بـ (الميغورشيم)<sup>(4)</sup> و(بالكبوسيين) نسبة إلى (الكبوسة الحمراء) التي كانوا يضعونها على رؤوسهم، كما لقبوا (بالسفاردين) Sépharades.

(1) André, Chouraqui, les juifs d'Afrique du Nord, Paris, P.U.F, 1952, pp. 74-75..

Maurice, Eisenbeth, le judaïsme nord africain, études démographiques sur les Israélites, Constantine, S.D, pp. 25-37.

(2) حول طرد يهود شبه الجزيرة الإيبيرية راجع : Béatrice, Leroy, l'expulsion des juifs d'Espagne, Paris, ed. Berg international, 1990, p. 174.

(3) B. Cohen et R. Ayoun les juifs d'Algérie deux mille ans d'histoire judaïque, Paris, 1982, p. 378.

(4) هذه الكلمة العبرية مفردتها Mégorach، ومعناها الهارب أو المطارد، أطلقت على اليهود الذين فروا من شبه الجزيرة الإيبيرية إلى شمال إفريقيا، للمزيد من التفاصيل راجع : A. Chouraqui, op. cit., p. 271.

أساء انبعاث اليهود تحت الضغوط والاضطرابات من جراء الاضطهاد الإسباني لهم إلى البحث عن مواقع جديدة، لإعادة هيكلة أمورهم في مناطق أكثر أمناً واستقراراً، مما أدى إلى تجمعهم في المدن الساحلية الجزائرية التي تتوفر فيها الشروط الملائمة لممارسة الوساطة التجارية<sup>(1)</sup>.

ومنذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي، أصبحت مدن المغرب الأوسط الشمالية (الجزائر، شرشال، برشك، تنس، مستغانم، مزغران، وهران، هنين، وادي)، مراكز حضرية تشكل أهم نقاط تركز الجالية اليهودية بالجزائر<sup>(2)</sup>.

وتشير بعض الدراسات إلى مساهمة يهود إسبانيا في دفع الحركة التجارية بالمغرب الأوسط خلال الفترة الزيانية، وهذا من خلال نشاطهم المالية والتجارية<sup>(3)</sup>. وقد رحب حكام الجزائر منذ البداية باللاجئين اليهود باعتبارهم عناصر نشيطة في المجال الاقتصادي، حيث جلب اليهود معهم صناعة ضرب العملة وأعمال الصباغة، وسيطروا على نفوذ التجارة بشقيها الداخلي والخارجي بالمغرب الأوسط، وشاءا قبل التواجد العثماني، وأصبح اليهود بالجزائر يشكلون طبقة بوجوازية مميزة في المدن الساحلية، واحتكروا الصنائع والتجارة<sup>(4)</sup>.

وتجمع الدراسات التاريخية على أن الجالية اليهودية كانت قوية خلال العهد العثماني، وأنها كانت تعيش في أهم مدن أقاليم الجزائر، وبالأخص مدينة الجزائر،

(1) فوزي، سعد الله، المرجع السابق، ص 120.

(2) B. Cohen et R. Ayoun, op. cit. pp. 88-89.

(3) محمد، دادة، اليهود في الجزائر في العهد العثماني منذ مطلع القرن 18 حتى 1830م، رسالة ماجستير غير منشورة، دمشق 1985، ص 22.

(4) نفسه، ص 35.

وقد عملت الدولة العثمانية على استقبالهم بكل حفاوة، وسهلت عملية إدماجهم في حركة اقتصاد الأيالة<sup>(1)</sup>.

بدأ الاهتمام بالجمالية اليهودية الأندلسية منذ عهد خير الدين بيلرباي الجزائر، الذي رخص لهم في الإقامة الدائمة في مدينة الجزائر مقابل دفع ضريبة<sup>(2)</sup>، كما رحب سكان الجزائر باليهود الوافدين من إسبانيا وأكرموا مترهم، ووفروا لهم وسائل الأمن والاستقرار، وهذا حسب تعبير إيزانث: (تمتع اليهود بعطف الحكام المسلمين الذين سمحوا لهم بالاستقرار في بلادهم)<sup>(3)</sup>.

وأغلب المصادر اليهودية تثبت بأن الجمالية اليهودية الأندلسية ظلت تشرف على شؤون اليهود القدماء (التوشايم أو الأهالي)، من ناحية التمثيل المدني والديني، خاصة وأن يهود الأندلس كانوا على صلة وثيقة بالتراث الأدبي العبري في الأندلس، ويلاحظ أنه خلال الحكم العثماني كانت جميع المناصب الحاخامية بيد الوافدين من إسبانيا<sup>(4)</sup>، فنجد في مدينة الجزائر إسحاق برفت<sup>(5)</sup>

(1) F. Braude, op. cit., T2, pp.135-136.

(2) Grammont (H.D de), op. cit., p. 233.

(3) M. Eisenbeth: « les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque turque (1516-1830) », in, R.A (N°97), 1952, p.152.

(4) محمد، دادة، المصدر السابق، ص24.

(5) ولد الحاخام إسحاق برفت في برشلونة حوالي 1360م، وتولى منصب الحاخامية في سرقسطة وبلنسية، هاجر إلى المغرب الأوسط عام 1391م، واستقر بمدينة الجزائر حيث انتخب على رأس الطائفة اليهودية حتى وفاته سنة 1408م.

وسيمون سماش دوران<sup>(1)</sup>، وفي وهران عمران بن مراوس إفراني، وفي قسنطينة دوران بن منير، وميمون بن سعدية النجار، وفي تلمسان إبراهيم بن حكوم وإفرايم الدوران، وفي بجاية ابن يامين عمار.

أما نذر معظم المؤرخين إلى إسحاق برفت وسيمون سماش دوران على أنهما من أصلين حقيقيين لليهودية في المغرب الأوسط، وهذا من خلال دورهما في إحياء التراث الديني اليهودي وفي بعث اليهودية من جديد<sup>(2)</sup>، وتظهر هذه الريادة في حفاظ الجالية اليهودية الأندلسية على مركزها الديني وفي التحكم في توجيه المجتمع اليهودي بالجزائر.<sup>(3)</sup>

وقد اضطر بعض الحاخامين الأندلسيين إلى محاربة بعض العادات المحلية التي لا تتوافق مع العادات الجديدة لليهود الإسبان، مثل موقف الأحوال الشخصية من الزواج والإرث، هذه التعاليم استمدت من النظام الطائفي الأندلسي الذي انقلب ثورة في تقاليد اليهود المحليين.

ويعتمد هذا التنظيم الطائفي على نظام مركزي أحادي القطب، يركز على إدارة واحدة شاملة لجميع يهود الجزائر، يرأسها الحاخام الكبير (رئيس الأمة اليهودية)<sup>(4)</sup>.

وقد كان للجماعات اليهودية الأندلسية بالجزائر هدفان:

- وضع مجلس طائفي يعتمد على نظام الحلخة<sup>(5)</sup> Halakha، ينتخب وفق الأصول اليهودية.

(1) ولد الحاخام سيمون بن سماش عام 1361م، هاجر من إسبانيا سنة 1391م ليستقر بمدينة الجزائر، حيث أصبح فيها حاخاما حتى وفاته عام 1442م.

(2) محمد، دادة، المصدر السابق، ص 27.

(3) نفسه.

(4) فوزي، سعد الله، المصدر السابق، ص 120.



- نشر التعاليم الميغورشيكية الجديدة بين التوشابيم<sup>(1)</sup>.

ومما يلاحظ أن الجماعات اليهودية الأندلسية بقيت تحافظ على مركزها الديني، حيث استطاعت التحكم في توجيه المجتمع اليهودي، الذي ظل يتخبط في مشاكله الدينية والمدنية، وكان اليهود الموجودون بتونس وفرنسا وغيرهما من الدول، يستشيرون يهود الأندلس في المسائل القضائية والطقوسية عن طريق المراسلات<sup>(2)</sup>.

وبتقادم الزمن أصبح يهود إسبانيا بالجزائر في حالة جيدة، فهم يملكون العقارات والعييد، ويزاولون تجارة القوافل، ويتاجرون في الصوف والحرير والنسيج والأصبغة والشمع وريش النعام، والأحجار الكريمة والصياغة والخمور وصيد الأسماك<sup>(3)</sup>.

ومن الواضح أن الجماعات اليهودية القادمة من إسبانيا، تميزت عن اليهود الأهالي ليس من الناحية العددية والمادية فقط، وإنما في الناحية الفكرية والدينية وقد شمل الاختلاف العادات والممارسات الدينية والنطق باللغة العبرية، وعلى هذا الأساس شكلت الجماعات الوافدة من الأندلس مجتمعها الخاص، وعاشت على حدة، فقد عرفوا (بجاملي القبعات)، أما اليهود القدماء فاصطلح على تسميتهم بجاملي العمائم<sup>(4)</sup>.

وعلى الرغم من وجود تعاطف نسبي بين الجماعتين اليهوديتين في بداية الأمر، فإنه لم يحدث اندماج وانصهار بينهما، ذلك أن أفراد الجالية اليهودية الأندلسية كانوا يشعرون بأن اللحمة التي تربط بينهم هي لحمة الجماعات المتنقلة إلى أرض غير أرضها.

---

(1) الحلخة: هي نصوص تشريعية من التلمود (كتاب مقدس عند اليهود، يحتوي على الهوامش والشروح الفقهية)، الممارسات الدينية اليومية عند اليهود.

(2) التوشابيم هم اليهود المحليون

(3) محمد، دادة، المصدر السابق، ص 26.

(0) M. Eisenbeth, les juifs en Algérie , op. cit., pp128-129.

(4) محمد، دادة، المصدر السابق، ص 23.

واحد من أهم العوامل التي عاقت الاختلاط والامتزاج في بداية الأمر، الفوارق الطبقية التي كانت حاجزا يزيد عمقا واتساعا كلما اختلفت الطبقات والثروات والتربية، إذ كان المهاجرون يعدون أنفسهم أرقى حضارة وألطف أخلاقا<sup>(1)</sup>.

ويشير أغلب المصادر اليهودية إلى أن يهود إسبانيا قد جلبوا إلى المغرب الأموال والعلم وكفاءاتهم واستعدادهم الفطري للتجارة والصناعة، وقد جلب هؤلاء اليهود من إسبانيا طاولات القانون المطرزة بالذهب، التي حفظت في بيوتهم الموجود في الجزائر لغاية 1962م، كما حافظوا على المخطوطات التي ورثوها عن أجدادهم في إسبانيا<sup>(2)</sup>.

أما لقيت المجموعات اليهودية المهاجرة أولا إلى المغرب الأوسط استقبالا جيدا، بينما المجموعات الأخيرة، لم تحظ بالقبول وحسن الاستقبال، بسبب تخوف اليهود المحليين من نفوذهم ومصالحهم الاقتصادية، فعملوا على تحريض المسلمين لإبعادهم عن البلاد، كن التدخل المباشر للحاخام إسحاق برفت عمل على إقناع اليهود الأهالي بالترخيص للمهاجرين الأندلسيين بالإقامة<sup>(3)</sup>.

### الإسهام الحضاري الأندلسي في الجزائر خلال العهد العثماني

بعد صدور قرارات الطرد الجماعي سنة 1609م، توجهت مجموعات كبيرة من الأندلسيين نحو الجزائر قادمة من غرناطة والأندلس وأرغوان وبلنسية وكاتالونيا،

(1) نفسه، ص 23-24.

(2) كورين، شوفالييه، الثلاثون سنة لقيام دولة مدينة الجزائر، (ترجمة: جمال حمادنة)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائرية، بدون تاريخ، ص 15-16.

(3) Robert, Ayoun, « les juifs d'Oran Avant la conquête française », in R.H (N 542), 1982, p. 377.

وخلال زيارة الأب دان DAN لمدينة الجزائر عام 1634م، حاول تقدير سكان المدينة ب 100000، وهذا ناتج مما لا شك فيه عن التروح المستمر للأندلسيين<sup>(1)</sup>.

وقد تقاطر الموريسكيون على سواحل الجزائر، مثل عنابة، مستغانم، برشاش، القليعة، جيجل وتلمسان، وخلال الهجرة الأخيرة فإن المناطق الساحلية للجزائر الجزائرية كانت أكثر حظا في استيعاب المهجرين، وخاصة مناطق وهران وآرزيو وسهول متيجة.

والرقم الذي أعطاه الأب دان يدل فيما يبدو على أن مدينة الجزائر خلال القرن السابع عشر أقيمت على سكانها في رقم معقول مستقر، وهو ثلاثمائة ألف إلى مائة وخمسة وعشرون ألفا نسمة من أحرار وأرقاء، وفي هذا الصدد يذكر المؤرخ الأمريكي وولف أن أعداد المهاجرين الأندلسيين نحو مدينة الجزائر خلال هذه المرحلة قد بلغ نحو سبعة آلاف نسمة، حيث يقول: (والثغريون والأندلسيون الذين جاؤوا إلى الجزائر في عائلات لاجئة من الأندلس، وهم في العادة يبلغون سبعة آلاف نسمة<sup>(2)</sup>)

وأما هايدو، فقد ذكر أن حوالي 6000 موريسكي نرح من إسبانيا نحو الجزائر، معظمهم يمتنون صناعة الجلود وصنع الأسلحة، ويتحولون بسرعة إلى جنود متمرسين للدفاع عن المدينة عند تعرضها للغارات الإسبانية<sup>(3)</sup>.

وتشير مصادر أخرى إلى أن الأندلسيين نزلوا مدينة شرشال وأعادوا بناء عدد من دورها وزرعوا الأراضي بها، ثم صنعوا كثيرا من السفن الملاحية، واشتغلوا

(1) DAN (Père), Histoire de la Barbarie et ses corsaires, paris, 1673, p89. .

(2) جون (ب) وولف، المصدر السابق، ص 157.

(3) M. Ravillard, op. cit. T2, p. 145.

في عهد المرين، بعد حصولهم هناك على أعداد كبيرة من أشجار التوت الأبيض والبنفسج، فعاثت الجمالية الأندلسية في رخاء حتى أصبح عدد المنازل المقامة في الجزائر مائتين وألف بيت<sup>(1)</sup>.

إن المساهمة الأندلسية في مختلف المجالات والأنشطة، جعلت منهم نخبة مميزة في ظل السلطانات، حيث استفاد الأتراك العثمانيون من خبراتهم ومهاراتهم في شتى الأمور، وقد أثرت هذه المساهمة في فعاليات التاريخ الجزائري في العهد العثماني، مما يرجع بالدرجة الأولى إلى حيوية الأندلسيين، التي اعتبرها أحد الباحثين بأنها الدور البيكولوجي في المجتمعات (المغاربية)<sup>(2)</sup>، ومما يؤكد ذلك شهادة هايدو عن نشاطهم الجهادي والعسكري ومساهماتهم الفعالة في تدعيم إيالة الجزائر<sup>(3)</sup>.

#### أ - الأندلسيون والنشاط الإداري والعسكري:

ساهم الأندلسيون في تثبيت قواعد الحكم العثماني بالجزائر، فقد مدوا يد العون للإخوان عروج وخير الدين بربروسا في صراعهما مع الأسبان، ووقفوا جانبهما في محاربة بقايا الإدارة الحفصية وناصروهما ضد الزعماء المحليين، مثل سالم الوهيبي شيخ الجزائر وأحمد بن القاضي أمير كوكو، وكثير من الكتاب يؤكدون على أن الأندلسيين قد أغنوا مدينة الجزائر بكفاءاتهم ومهاراتهم<sup>(4)</sup>.

وتنوه معظم المصادر التاريخية بالدور التاريخي الذي لعبه المهاجرون الأندلسيون في المرحلة الأولى من تأسيس إيالة الجزائر (1516-1541م)، حيث ساهموا في

(1) الحسن، الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 34.

(2) R. (G), Landa, les morisques op. cit., p210.

(3) Haedo, Topographie op. cit., p.495.

(4) جون (ب) وولف، المصدر السابق، ص151.

الدفاع عن مدينة الجزائر ضد الغارات الإسبانية المتكررة. وفي هذا السياق يذكر مرمول بأن الأتراك أرسلوا حوالي 300 جندي من الموريسكيين ذو أصول أندلسية ومدجنية وثرغرية إلى مدينة المدية لحمايتها واستتباب الأمن فيها<sup>(1)</sup>.

وتؤكد أرشيفات محاكم التفتيش الإسبانية، على الدور الرائد الذي أدته يومئذ إيالة الجزائر في هذا الصراع ضد إسبانيا الكاثوليكية، ويرجع ذلك أساسا إلى عثمانيي الإدارة الجزائرية من جهة، وإلى حسن اختيار المسؤولين الإداريين العثمانيين وحنكتهم من جهة أخرى، هذا فضلا عن الوحدة السياسية والجغرافية التي تمتعت بها إيالة الجزائر في أوائل القرن السادس عشر الميلادي.

ويضاف إلى ذلك ما قدمه أفراد الجالية الأندلسية من خدمات إدارية لصالح العثمانيين، فقد اشتهر الأندلسيون بتحصيل الضرائب وجمع موارد الخزينة العامة والقيام بتسجيلها وفقا لتعليمات الإدارة العثمانية بالجزائر، وهذا ما سهل تعامل الإدارة مع بقية عناصر مجتمع الإيالة، وبفضل خبرتهم المالية مارسوا أعمال القرصنة والنخاسة ومبادلة الأسرى والمشاركة الفعالة في تمويل مشاريع القرصنة<sup>(2)</sup>.

وشكل الأندلسيون القاطنون بإيالة الجزائر خطرا كبيرا على أمن الشواطئ الإسبانية، وخاصة في الحوض الغربي للبحر المتوسط، إذ كانت هجوماتهم مع الأسطول الجزائري تزرع الرعب في قلوب سكان سواحل إسبانيا، وقد عبر أحد الكتاب الغربيين عن ذلك بقوله: ( إن الميزة المشتركة لدى الموريسكيين هي أنهم يكرهون المسيحيين، وعندما تسمح لهم الفرصة وتتوفر الإمكانيات، يجهزون سفنا، ويلقون القبض على من في السفن الإسبانية، ويتخذونهم أسرى، رغبة في الانتقام)<sup>(3)</sup>.

(1) مرمول، كربخال، المصدر السابق، ج2، ص 214.

(2) Laugier de Tassy, Histoire du Royaume d'Alger, Paris, ed, Loysel, 1992, p.69.

(3) كورين، شوفالييه، المصدر السابق، ص14.

والموريسكيون على تنشيط حركة الجهاد البحري والهجوم المتواصل منها. كما أن الإسبانية بواسطة الأسطول البحري الجزائري، لمعرفتهم الجيدة للغة العربية (الإسبانية) وللأماكن الجغرافية والطرق البحرية، وترجع المساهمة في ميدان الجهاد البحري إلى مجالات تجهيز السفن والمعدات وهذا من إسهامات بقية المسلمين في الأندلس<sup>(1)</sup>.

وإن الجهود المكثفة التي بذلتها إسبانيا لوضع حد نهائي لأي اتصال بين المغربين داخل إسبانيا والمجاهدين، فإن تبادل الرسائل ظل مستمرا، وذلك من خلال عمليات إنقاذ الموريسكيين وإمدادهم بالأسلحة، وهذا ما أكدته دي ميранد Compte de miranda عام 1588م، عندما صرح بأن (الموريسكيين يجتازون البحر في الربيع إلى شمال إفريقيا)<sup>(2)</sup>.

إن منطقة شمال إفريقيا أهلة بموريسكيي غرناطة وبلنسية وأراغون، وتوجد فيها الغابات اللازمة لصناعة السفن الصغيرة التي تتميز بسرعة الحركة والقدرة على الهجوم، وفعلا فقد انتظم (موريسكيو شرشال في جماعات خاصة تقوم بالعمليات السريعة وخاطفة على السواحل الإسبانية، إذ بمجرد ما تصل سفنها إلى الرمال، ينطلقون نحو الداخل لتخليص الأهالي وأسر المسيحيين الذين كانوا في سوق الجزائر)<sup>(3)</sup>.

لقد ساعد الأندلسيون البحرية الجزائرية في الهجوم ببراعة على السواحل المغربية الإسبانية، وتمكنوا من صنع سفن شراعية وفرقاطات من الخشب بشرشال،

(1) Manlai (j),op.cit . p.72.

(2) F. Braudel, « Conflits de refus de civilisation, Espagnoles et Morisques au XVI<sup>e</sup> Siècle », in, Annales, E.S.C, octobre décembre(N°4), 1947, p. 403.

(3) Idem.

وكانوا يفضلون التزول ليلا إلى سواحل إسبانيا، وهذه إحدى الحيل التي استعملوها الأندلسيون في حركتهم الجهادية<sup>(1)</sup>.

وتشير معظم المصادر التاريخية إلى الدور الذي لعبه الأندلسيون الموريسانيون في المرحلة الثانية من تأسيس الحكم العثماني بالجزائر (1614-1830م)، حيث كان هذا التواجد واضحا في الإدارة والجيش خاصة، حيث أن معرفتهم باستعمال السلاح الناري ووحدة هدف هذين العنصرين، جعل منهم فئة نشيطة دائما في الجيش العثماني المؤسس بالإيالة، فخير الدين بربروسا، عندما دخل مدينة المدينة بعد انهزام حاكمها محمد بن عابد عام 1517م<sup>(2)</sup>، ترك بها إلى جانب الحامية التركية فئة من الأندلسيين، وكذلك لدى دخوله مدينة تنس حيث رافقه ألف جندي انكشاري إلى جانب 500 رجل من أهالي غرناطة وبلنسية وأرغوان، وقد جرت معركة حاسمة قرب سهل الشلف، انهزمت فيها قوات حميدة العبد<sup>(3)</sup>.

وتعرض مرمول الذي رافق شارل الخامس للحماس البطولي الذي تميز به حسن آغا خليفة خير الدين، الذي تصدى لحملة شارل الخامس على مدينة الجزائر (1541م) بقوات شكلها 800 جندي من الأتراك والقبائل المحلية وحوالي 5000 أندلسي<sup>(4)</sup>.

(1) Haedo, Topographie ... op. cit., pp.92-93.

(2) H. Federman : « sur l'histoire de l'administration du Beylik de Titeri », in, R A (N°09), 1865, p. 281.

(3) Haedo., Histoire, op. cit., p.26 .

(4) ملاحظة: تعاقب على حكم الجزائر بعد خير الدين ابنه حسن باشا الذي تولى هذا المنصب ثلاث مرات بين 1545-1567، الولاية الأولى (1545-1552)، الولاية الثانية (1557-1561)، الولاية الثالثة (1565-1567) وقد اشتد الصراع في هذه المرحلة بين الأتراك وإسبان، وشارك المغرب في هذا الصراع بعد استلام السعديين للسلطة. ونجح الأتراك إبان هذه المرحلة في القضاء على مملكة بني عبد الواد سنة 1554، وحرروا بجاية من الإسبان سنة 1555. للمزيد: راجع: عمار، بن خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر و المغرب، الجزائر: دار الأمل، 2006، ج1، ص 46-105.

انظر: مرمول كاربخال، المصدر السابق، ج2، ص 210.

إنها التواجد العسكري نستقيه كذلك من رسالة الملك فليب الثاني إلى سفير فرنسا في مدريد بتاريخ 6 جويلية 1566م، والتي جاء فيها أنه يوجد بإيالة الجزائر حوالي 150000 جندي جيد التنظيم والتسليح، من بينهم ستة آلاف (6000) موريسكي<sup>(1)</sup>.

وإلى جانب الخدمات الأندلسية في الميدان العسكري، فقد استعان حاكم مليانة حسن علي من خبرات 500 أندلسي من مجموع 4000 مقاتل من المشاة، وقد شكل الأندلسيون فرقة الرماة للقضاء على ثورة الشيخ بوطريق بإقليم الجزائر<sup>(2)</sup>.

كما شارك الموريسكيون في حملة البيلر باي في حملة حسن قورصو الذي قادها الانكشاريون خليفة لصالح رايس في حملته ضد الحاكم الإسباني بوهران سنة 1576م، ودرغوت رايس ضد المحمية العسكرية الإسبانية بالمهدية، ويضاف هذا إلى مساهمتهم الفعالة في تسليح وتموين السفن وتكوين الفرق البحرية<sup>(3)</sup>.

ولكن الموريسكيون سكان إيالة الجزائر فنون أوروبا، وخاصة في المجال العسكري، وبذلك أصبحت مدينة الجزائر منطقة أسطورية في الدفاع، وتشير بعض الدراسات إلى براعة الموريسكيين في صنع الأسلحة وتحضير البارود وصناعة السفن وخاصة في مدن الجزائر وشرشال وجيجل<sup>(4)</sup>.

كما ساهم الأندلسيون في تقوية الجيش العثماني بإيالة الجزائر بفضل خبراتهم القتالية، حيث تعتبرهم بعض الدراسات المؤسسين الحقيقيين للإيالة الجزائرية.

(1) Garcia Mercedes, Arenale, los Moriscos, Madrid, Biblitéca de Visonarios, 1975, pp. 177 - 178

(2) A. Berbrugger, « El Hadj Pacha », in., R.A (N°08), 1864, p. 296.

(3) J. Monlau, op. cit, p. 73.

(4) Garcia (A), Mercedos, los moriscos ... op. cit p. 178.



وكان لهم نشاط بحري واسع في مدينة الجزائر، كما برعوا في تجارة الأسرى، والغنائم، ولقد اشتهر منهم بحارة (رياس) كثيرون، منهم الرايس بلانكو والرايس أحمد أبو علي من أشونية ومراد الكبير وجواد يانو من نيودال ريال، وكانوا يعملوا في الجهاد البحري ضد الإسبان<sup>(1)</sup>.

وكانت السفن الفرنسية تهاجم السفن الجزائرية في عرض البحر على حين غفلة، وكانت هذه الاعتداءات والمخالفات تسبب الكثير من المشاكل لحكم الجزائر وخاصة في عهد مرحلة الباشوات (1587-1659).

ومما يدل على أهمية النشاط الأندلسي في الأعمال البحرية، أن المعاهدة الفرنسية-الجزائرية لعام 1640م<sup>(2)</sup>، خصت السفن الأندلسية بالذكر عندما حددت في البند العاشر مسؤولية ما يلحق بالمراكب الفرنسية من خسائر جراء التعرض لها من طرف السفن الجزائرية<sup>(3)</sup>.

وتبدو أهمية الموريسكيين بشمال إفريقيا وبالأخص بإيالة الجزائر، من خلال التقارير الواردة من المنطقة إلى إسبانيا، ففي تقرير سري إسباني عن حالة الجزائر، بعث به من بجاية في 29 مارس 1535م، ورد ما يلي: (يوجد الآن في مدينة الجزائر ألفان (2000) من الأتراك وسبعة أو ثمانية آلاف من مهاجري الأندلس في مدن الجزائر ومليانة وبقاع أخرى وضع بها بربروسا (خير الدين) حاميات)<sup>(4)</sup>.

(1) محمد عبد الله، عنان، نهاية الأندلس، ص 388.

(2) هي معاهدة السلم التي أبرمتها فرنسا مع الجزائر بتاريخ 07 جويلية 1640، وتحتوي على 16 بنداً.

(3) جمال، قنان: المصدر السابق ص 271.

(4) أحمد توفيق، المدني، المصدر السابق، ص 278-279.

وكانت التحالف العثماني-الأندلسي في هذه المرحلة حدود الإيالة نفسها، حيث كان حاكم إيالة الجزائر آنذاك، رمضان باشا (1574-1577م)، بمساعدة محمد الثالث، لاسترجاع عرشه بالمغرب عام 1576، كان يصاحبه إلى جانب أفراد العائلة الحاكمة عدد هام من الموريسكيين<sup>(1)</sup>.

إن مثل هذه الإشارات التاريخية تدل ولا شك على قوة التحالف ووحدة المجهود الذي ربط العثمانيين والأندلسيين في المرحلة الأولى من تأسيس إيالة الجزائر، حيث لم يظن العائلات الأندلسية المهاجرة إلى إيالة الجزائر، قد لفتت أنظار الرحالة الغربيين، وخاصة إذا علمنا أن هؤلاء كانوا يخرجون إلى البحر في أساطيل هائلة، ويغيرون على بلاد الأندلس بمهارة ودراية لا تأتي إلا من معرفتهم بالبلاد.

وعليه فلن نستغرب أن تكون السواحل الجزائرية قد عرفت تطورا سريعا في الحياة البحرية نشطة بفضل هؤلاء الموريسكيين ذوي الأصول الأرغواتية والبلنسية الذين، كما نال الثغريون شهرة بدفاعهم المستميت وقوتهم ضد محاولات الإنزال في إيالة الجزائر<sup>(2)</sup>.

### ب - الأندلسيون والحياة الاجتماعية:

لا يستطيع الباحث في تاريخ الجزائر الاجتماعي في العهد العثماني، وفي إطار التقييم الاجتماعي التي كانت سائدة في ذلك المجتمع، أن يغفل الدور الكبير الذي لعبته الحياة الاجتماعية بالجزائر العثمانية، إن اشتغال الأندلسيين الذين استقروا بمدن الإيالة بالعمل التجاري والحرف المهنية والصناعية، وطلب العلم

(1) شبيب، بن حفري، المرجع السابق، ص 33- ويلاحظ أن انضمام الأندلسيين إلى الحملة التركية ساهم في إخماد الهزيمة بالمتوكل (1573-1575) واسترجاع عبد الملك (1575-1578) العرش السعودي. ينظر: إبراهيم الحفريات، المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء: دار الرشاد، 2000، ج2، ص 256-258.

(2) جون (ب) وولف، المصدر السابق، ص 166.

والتدريس، مكنهم من ربط علاقات واسعة وقوية بمختلف شرائح وطوائف المجتمع الجزائري في العهد العثماني.

وبالرغم من التصنيفات التي نعت بها الكتاب الغربيون الأندلسيين المستقرين بمدينة الجزائر من مدجنين وموريسكيين وتغاريين، فإن الأندلسيين المستقرين بمدن إيالة، وبالأخص مدينة الجزائر، كانت غالبيتهم تتكون من الفلاحين وأصحاب الحرف والتجارة، عكس العناصر التي هاجرت إلى المغرب الأوسط قبيل الفترة العثمانية، والتي معظم عناصرها من النخب المثقفة والثرية، ويمكن تصنيف الأندلسيين بالجزائر العثمانية إلى ثلاث فئات متميزة حسب نشاطها الاقتصادي ومكانتها الاجتماعية:

**فئة الفلاحين:** المنتشرين عبر السهول، والتي تمتهن الزراعة وغرس الأشجار المثمرة، وتتمركز في سهول متيجة ومرتفعات الساحل وسفوح الأطلس.

**فئة الحضرة:** المقيمة بالمدن وفحوص دار السلطان والبليدة والقلعة وشرشال، وتمتهن صناعة الأسلحة وتحضير البارود والحداة والبناء والخياطة وصناعة الفخار والتجارة، كما عمل أفراد هذه الفئة في التوظيف الإداري والديني والعسكري.

**فئة البحارين:** وكانت تعيش بالقرب من الموانئ، وعلى متون السفن وبأحياء البحرية، وتمتهن زراعة الخضر والفواكه وتعمل في الملاحة، وتشرف على تزيين الحداق والبساتين<sup>(1)</sup>.

نرح عدد هام من الموريسكيين نحو إيالة الجزائر، خاصة بعد معركة ليبانت عام 1571م وما كان لها من نتائج على دول البحر الأبيض المتوسط، من استيلاء إسبانيا للمرة

(1) ناصر الدين، سعيدوني، الأندلسيون، المقال السابق، ص. 166.

الملك علي تونس عام 1573م بقيادة دون خوان دي استريا (D. Juan de Austria)، ثم انتقل إلى حظيرة الخلافة العثمانية بعد حملة قليج علي وسان باشا سنة 1574م.

في مثل هذه الظروف الدولية الحاسمة التي شهدتها الإيالة وكل منطقة البحر الأبيض المتوسط، أرسل السلطان العثماني سليم الثاني أحكاما إلى بيلر باي الجزائر مر ب أحمد باشا (1572-1574م)<sup>(1)</sup>:

فالفرمان الأول الموجه إلى حاكم وقاضي الإيالة بتاريخ 28 جويلية 1571م<sup>(2)</sup>، يبين كيف أن جماعة العلم والصلاح الذين قدموا من الأندلسيين إلى الجزائر قاموا بإرسال مبعوث عنهم إلى الدولة العثمانية للشكاية من وضعهم الاجتماعي والاقتصادي بالجزائر، بحيث لما طلب هؤلاء العلماء توظيفهم وخاصة في الوظائف الإدارية والتعليمية، رفضت السلطات المحلية تشغيلهم على أساس أنهم جاؤوا من الخارج.

وأمام هذه الوضعية قام الباب العالي بإرسال أمره السلطاني إلى حاكم وقاضي مدينة الجزائر، بإنصاف هذه الفئة من أفراد الجالية الأندلسية على أن يكون التوظيف على أساس الاستحقاق والجدارة، بعيدا عن التحزب ودون مراعاة الموطن الأصلي لهذه الفئة، وهو ما جاء في نص الوثيقة: (قامت جماعة أهل العلم والصلاح الذين قدموا من الأندلس بإرسال مبعوث عنهم على أساس أنه عندما طلب هؤلاء العلماء والصلحاء توظيفهم، فإن الأهالي رفضوا ذلك ومنعوهم على أساس أنهم

(1) عين عرب باشا بيلرباي على الجزائر "1572-1574"، بعد الضربة القاضية التي تلاقها الأسطول العثماني في معركة ليبانت (1571). وهو عربي من مصر، مات مقتولا في سنة 1578 على يد الإنكشارية في جزيرة قبرص التي أصبح عليها واليا في سنة 1577م. حول هذه الشخصية راجع:

Haedo, Histoire... op.cit, pp.154-157.

(2) شكيب، بن حفري، المصدر السابق، ص 48.

جاءوا من الخارج، وعليه فإن الحكم والأمر السلطاني يكون بإعطاء الوفاة والشغل إلى مستحقيه والجديرين به).

ومن خلال نص الوثيقة نستنتج بعض الحقائق الهامة حول الوضعية الاجتماعية للجالية الموريسكية بالجزائر، خاصة فئة العلماء والنخبة المقيمة بمدينة الجزائر، التي وجدت صعوبة في الحصول على بعض الوظائف المتعلقة بالقضاء والإمامة والتعليم وغيرها من الوظائف الإدارية والدينية والتي كانت مجالاً للمنافسة والمزاومة من طرف طبقة الحضر المحلية بمدينة الجزائر.

وبالفعل فقد رفضت السلطات المحلية تشغيل هذه الفئة من الأندلسيين خلال هذه الفترة على أساس أنها جاءت من الخارج، ومن هنا يطرح السؤال: لماذا هذا الموقف السلبي تجاه الأندلسيين؟ وعلى أي أساس اعتبرت السلطات هؤلاء الأندلسيين دخلاء في وسط مجتمع الإيالة المعروف خلال العهد العثماني بتتويج أصول طبقاته الاجتماعية؟<sup>(1)</sup>

يمكننا أن نستشف خلفية هذا الموقف السلبي من خلال فتاوي الونشريسي في كتابه المعيار، وخاصة في الفصل الخاص (بالمهجرة الأندلسية)، حيث ذكر أنه يرفض خطاب وقضاة المدجنين وذلك لكونهم رضوا بأن يكونوا تحت حكم النصارى<sup>(2)</sup>، ومن هنا نقبس عناصر الجواب من كون هؤلاء الموريسكيين قبلوا بالحكم المسيحي والعيش تحت العادات النصرانية، وعلى أساس أنهم تمأنوا عن الهجرة إلى دار الإسلام، مما جعلهم محل شك وتحفظ من قبل السلطات المحلية والأهالي.

(1) أبو القاسم، سعد الله، المصدر السابق، ج 1، ص 146-163.

(2) أحمد، الونشريسي: المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب، إشراف محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي 1981، ج 2، ص 119.

هذا الموقف يعكس من جديد عمق مأساة الأندلسيين، فهم مسلمون وأتراك  
مسيحيون أو مسلمون من الدرجة الثانية في (دار الإسلام).

ويشير الوثيقة إلى أن الجالية الأندلسية أرسلت مبعوثا عنها إلى الباب العالي، فهل  
تمت الإيالة خلال هذه الفترة تنظيم أو وكيل يسهر على حماية حقوقها وتمثيلها أمام  
باب الإيالة والباب العالي؟ هذا ما سنراه في دراستنا لأوقاف أهل الأندلس.

نما يتعرض للأسر نفسه فرمان موجه إلى نفس حاكم الإيالة عرب أحمد باشا  
في 14 نوفمبر 1573م<sup>(1)</sup>، حيث جاء مكملا للوثيقة الأولى، فهو يخبرنا بأن  
الأندلسيين والمدجنين الفقراء قاموا برفع شكوى إلى السلطان العثماني سليم الثاني  
بتردي أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية بالإيالة، ورغم أن معظم هؤلاء  
العرب هم أهل علم وثقافة لا يملكون القدرة على العمل في مجالات أخرى، فإن  
هماء وحكام مختلف مناطق الإيالة رفضوا تشغيلهم في الوظائف الإدارية والعلمية  
والدبلوماسية، وكان الحكام يفضلون أهل البلاد عليهم، وعليه فإن الباب العالي أمر إلى  
باب الإيالة الاهتمام بهذه الجالية التي يسميها بأهل الإسلام وفقراء أهل العلم  
والعمل، والعمل على توظيفهم وعدم التحيز إلى فئة معينة سواء أكانوا من  
الأندلسيين أو من العرب المدجنين، فالوظائف تعطى لمستحقيها لا غير، كما ركز  
باب السلطاني على أن تعطى الأوامر لهذا إلى قضاة وقياد المناطق التابعة لإيالة  
المراتب.

وما يلاحظ من خلال موقف قضاة وحكام الإيالة والسلطات المحلية عموما،  
أنه كانت تفضل تعيين الأندلسيين الذين هاجروا عقب سقوط غرناطة دون غيرهم  
من الأندلسيين.

لقد وجدت الفئة الأندلسية المنافسة الشديدة في الوظائف الإدارية والدينية (كالقضاة والأئمة والوكلاء والنظار)، هذه الوضعية الحرجة دفعت بالأندلسيين إلى التذمر، والتي عبر عنها الونشريسي في باب الهجرة بقوله: (هؤلاء الأندلسيون الذين هاجروا واستقروا بدار الإسلام، ندموا على الهجرة وسخطوا وزعموا أنهم وجدوا المال عليهم ضيقة، بالنسبة إلى التسبب في طلب أنواع المعاش على الجملة رفقا ولا يسرا وصرحوا بدمهم دار الإسلام وبمدح دار الكفر وأهله والندم على الهجرة<sup>(1)</sup>).

وتكررت مراسلات الباب العالي بشأن الأندلسيين، ففي فرمان أرسل إلى بيلر باي إيالة الجزائر عرب أحمد باشا بتاريخ 23 نوفمبر 1573<sup>(2)</sup>، تعرض إلى شكايات الموريسكيين المتجددة، فهم الذين تركوا الأموال والمتاع ووسائل رزقهم بإسبانيا وقدموا إلى دار الجهاد الجزائر والمناطق التابعة لها، التي أصبحوا فيها فقراء لا يملكون شيئا، زيادة على فرض حكام المناطق لضرائب باهضة عليهم مثل باقي الرعية، وكلفوهم بتكاليف جعلتهم يشكون من ضيق المعيشة، بل وكانت تؤخذ منهم أجورهم اليومية، بالإضافة إلى تعدي بحارة الإيالة عليهم، والذين أخذوا منهم أموالهم وأمتعتهم، مما جعل الدولة العثمانية تستقر عن هذا الموقف ضد هؤلاء المسلمين الذين خرجوا من دار الحرب (إسبانيا) إلى ممالك المحروسة.

لقد أمر الباب العالي بأخذ الحيطة والعمل على أن بأن لا تؤخذ الأمتعة ولا الأجور التي حصلوا عليها، وأن لا يعاملوا على أساس عمال مؤقتين، كما أكد على الكشف والتحقيق عن العناصر التي أخذت من أيديهم أجورهم اليومية، إعادة الأموال والأمتعة لأصحابها، وألا يتدخل أحد في شؤونهم، وكذلك على إعفاء هؤلاء الموريسكيين من دفع الضرائب وكل التكاليف لمدة ثلاث سنوات، حتى يتم

(1) المعيار، ج 2، ص 119.

(2) مهمة دفترى رقم 23/ حكم 284/ بتاريخ 27 رجب 981هـ/ الاثنين 23 نوفمبر 1573م.

استفزازهم واستيظانهم بمناطق الإيالة وبعد أن يكونوا قادرين على دفع الضرائب  
 لأن حينئذ أخذها منهم شأن بقية الرعية.

ومن خلال هذا الوثيقة نكشف توافد عناصر جديدة من الموريسكيين على  
 إيالة الجزائر بعد فشل ثورة غرناطة (1568-1570م)، حيث تقدر المصادر التاريخية  
 بأهم بحوالي 30000 موريسكي<sup>(1)</sup>.

ظل الموريسكيون بالجزائر يعتبرون أنفسهم في دار هجرة مؤقتة، يترقبون  
 الفرص للعودة إلى الأندلس، وقد عزز هذا الشعور تشبثهم بأصولهم وميلهم إلى  
 الم الاختلاط مع غيرهم من السكان، وهذا ما جعلهم يحجمون عن التزاوج  
 خارج جماعتهم، فالمرأة الأندلسية نادرا ما تتزوج من غير أندلسي إلا إذا اضطرتها  
 الحاجة والفقير إلى ذلك<sup>(2)</sup>.

وقد اشتهرت العائلات الأندلسية باشتغال أفرادها بالتجارة والصنائع، مثل ابن  
 رامل، ابن هني، برزوان، برحال، بوناتيرو، ابن تشيكو، ابن الكبابطي، ابن  
 الشاهد، ابن عمار وخوجة،... إلخ<sup>(3)</sup>.

ووصف لوجي دي تاسي<sup>(4)</sup> L. de Tassy الجالية الأندلسية بطبقة الأغنياء في  
 تجمع إيالة الجزائر، فهم يسكنون المدن وقيمون في منازل كبرى ويملكون الثروة  
 ويتعاطون التجارة وخاصة تجارة الغذاء<sup>(5)</sup>.

(1) Braudel, op. cit., T2, p. 367.

(2) Emerit, « Description de l'Algérie en 1787 par l'officier russe Kokovtsov », in, R.H.M.  
 (N°04), Tunis, juillet 1975, p.213. و.قارن عند Haedo, Topographie, p.97.

(3) - ناصر الدين، سعيدوني: صورة المقال السابق، ص 238-239.

(4) لوجي دي تاسي: ديبلوماسي فرنسي زار الجزائر ما بين سنوات 1724-1725م.

(5) De Tassy, op. cit., p. 54.



كما ساهم الأندلسيون في مداخيل خزينة الإيالة مثل جماعة الموريسكيين بشرشال التي كانت تتعهد لحاكم الضرائب سنويا بضرية تقدر ب 60 ألف دوكة، وضرية أندلسية مستغانم عام 1570م ب 800 زباني ذهباً و600 قسيمة كبيرة من القمح والشعير و2000 رطل زبده و70 بغلا مهياً للخدمة<sup>(1)</sup>.

ومن النقاط التي تثير الجدل حول الجالية الأندلسية بالجزائر، هي أن معظم المصادر والمذكرات التي تركها القناصل والرحالة الأوربيون الذين زاروا مدينة الجزائر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، عند حديثهم عن أهل الأندلس كانوا يحدسونهم في جماعة الثغرين<sup>(2)</sup> (Tagarinos). فهم الذين يتعاطون بين الأسرى ويمارسون القرصنة، وهم أصحاب أملاك واسعة وأحوال هامة بالإيالة<sup>(3)</sup>.

فالراهب الإسباني فرانسيسكو خمينث F. Ximénez الذي استقر بمدينة الجزائر ما بين 1714-1718، تحدث خلال زيارته لمدينة البليدة عام 1719م، عن الثغري الموريسكي مصطفى بن عمار الذي كان يملك بحوزته 100 رقيق من الأسرى المسيحيين.

وبتاريخ 23 ماي 1714، سجل الراهب وفاة مصطفى بن عمار والذي اعتبره من أغنى رجال إيالة الجزائر آنذاك، كما أشار إلى وفاة أحد أساتذة البناء الموريسكي، والذي حضر جنازته حوالي 500 موريسكي ثغري<sup>(4)</sup>، فلماذا التركيز على فئة الثغرين وحصر الكلام عن الجالية الأندلسية فيهم؟

(1) ناصر الدين، سعيدوني، دراسات العهد العثماني، ص 142.

(2) لقب موريسكيوا مدينة الجزائر في العهد العثماني بالثغريين، والثغر هو الحدود، وربما يكون هؤلاء من سكان منطقة آراغوان، للمزيد من التفاصيل انظر:

Haedo: Topographie op. cit., p. 68 – H. Lapyre: op. cit., p.208.

(3) Brahimi, op. cit., p.39.

(4) Di Quesliti, « Argel, segun et dario inedito de Francisco Ximenez (1718-1720) », in, Revista, Sharq al Andalus, Annales de la universidad de Alicante,( N°3), 1986, pp.179-180.

نستشف عناصر الجواب من نوعية النشاط الذي مارسه الموريسكيون بالإيالة، زيادة على حالتهم الاقتصادية والاجتماعية الميسورة.

ونستنتج أيضا أن فئة الثغرين كانت الأكثر نشاطا والأكثر تحالفا مع السلطة العثمانية بالجزائر، ولعل تسمية إحدى قلاع مدينة الجزائر باسمهم (حصن الثغرين)<sup>(1)</sup>، وبقاء هذا الاسم الذي يحمله حتى يومنا هذا أحد أحياء مدينة الجزائر، للدليل على بعد الأثر الذي مارسته هذه الفئة الأندلسية بالذات.

كما أن الضعف الوزن السياسي والاجتماعي للجالية الأندلسية لا يعود إلى قلة عددهم بالإيالة، فمعظم المصادر تنوه بتلك الأعداد الهامة من الموريسكيين الذين نزحوا إلى أيالة الجزائر في المرحلة الأخيرة التي ضمت عناصر الجيل الثاني من الموريسكيين (1609-1614م)، الذين شكلت في معظم صفوفهم من عناصر متواضعة (فلاحين، صناع وحرفيين)، فالحالة النفسية عقب النفي ووضعيتهم الجديدة (المجهولة) في الموطن الجديد<sup>(2)</sup>، دفعت بهؤلاء الوافدين الجدد وخاصة الذين لم يلجؤوا إلى مدينة الجزائر، إلى الانضواء تحت نفوذ الحكام المحليين، فالبحت عن أماكن الاستقرار وتحصيل مصدر الرزق وتأمين وسائل العيش، هي التي كانت وراء امتصاص الوزن الاجتماعي والسياسي لهؤلاء الوافدين الجدد، ثم تلتها مرحلة ثانية تم فيها الاندماج الاجتماعي والثقافي.

(1) Devaulx (Albert), « Alger, étude archéologique et topographique sur cette ville aux époques, Romaine, Arabe, Turque », in, R.A, (N°20), 1876, pp.340-342.

(2) حول موقف الموريسكيين من مجتمع الإيالة، راجع: Garcia (A), Mercedes, « Los moriscos del campo de calatrava despues de 1610, segun algunos procesos inquisitoriales », in, Vahiers de Tunisie, T XXVI, 1978, N°103, pp. 173-196.

ومن المؤكد أن الجماعات التي وصلت إلى مدينة الجزائر، قاعدة الحكم العثماني، كانت أكثر تحصنا، وهذا لمؤازرة السلطة وللجالية الأندلسية المستقرة بها<sup>(1)</sup>.

وتذكر بعض المصادر بأن الجفاف الذي حل بمدينة الجزائر وما جاورها ما بين 1611 و1612م، دفع بحاكم الإيالة آنذاك، مصطفى باشا (1606-1613م) أمام الأعداد الوافدة من الموريسكيين على المدينة أن أمر هؤلاء النازحين بمغادرة المدينة، وكانت هذه التعليمات وراء خروج الكثير منهم، بينما فضلت أفواج أخرى من الموريسكيين البقاء، وتحملت نتائج القحط والجفاف<sup>(2)</sup>.

وعليه فإن الموقف الموريسكي المؤيد للتواجد العثماني بالجزائر، والمعادية للأهداف التوسعية الإسبانية على السواحل الجزائرية، يعود أساسا إلى إحساس أفراد هذه الجالية بالظلم وتأثرهم بضياغ الأندلس، وقد نقل الراهب الإسباني هايدو إحدى روايات الأسرى المسيحيين التي تنم عن مشاعر الكره والانتقام الأندلسي منهم: (كل الأماكن والمنازل والشوارع والحقول والبساتين بالجزائر، حيث يوجد الأندلسيون هي في الواقع المسكن الطبيعي للشيطان، إذ لا تسمع فيها إلا الضرب والتعذيب والآلام المتكررة لقتل المسيحيين)<sup>(3)</sup>.

وبسبب هذا العداء المستمر والذي بالغ الراهب في وصفه، هو الذي جعله يثير مسألة خطيرة تتمثل في وقوع حوالي 62 راهبا في الأسر بمدينة الجزائر عام 1579م<sup>(4)</sup>.

(1) Mercedes(G.A), Los moriscos ... op. cit ,pp. 263-265.

(2) Gramont, (H.D de), op. cit., pp. 150-151

(3) Haedo, Topographie ...op. cit. p. 53

(4) Braudel. op. cit., T2, p. 206.

ارتدى الموريسكيون الملابس الإسبانية على غرار المسيحيين الذين فرضوا عليهم تلك الملابس مدة اضطهادهم في إسبانيا المسترجعة، ثم تدرجوا في الاندماج وارتدوا لباس الأهالي، وهذا اللباس المحلي بدوره لم يسلم من التأثيرات الأندلسية.

واتصف أفراد الجالية الأندلسية برقة الذوق في المأكل والملبس والمتاع فهذا الأسلوب في المعيشة توارثوه عن أسلافهم بالأندلس، ففي مجال اللباس استطاع الأندلسيون فرض أذواقهم على غالبية سكان مدن الجزائر والبليدة والقلية وشرشال وتلمسان، وهذا في العديد من الألبسة، كالقمحة والطوق والفستان والحزمة والفقطان والصدريّة<sup>(1)</sup> والبنيقة<sup>(2)</sup> والبليغة<sup>(3)</sup> والشبيكة المرصعة بالذهب، ومن أبرز ما يتباهى به الأندلسيون دلالة على أصالتهم وتميزهم الطبخ الرفيع، فقد عرضت المأكولات الأندلسية بالحلويات والأطباق (الطواجين)، ويتطلب إعدادها حذقا كبيرا وإنفاقا كثيرا لا يقدر عليه إلا العائلات الميسورة، ولا يهون إلا في المناسبات والأفراح، وتغلب عليها الفاكهة.

أما في مجال اللغة والتخاطب، فقد تميزت الجالية الأندلسية في البداية بلهجتها الغرناطية التي كانت سائدة في حواضر الأندلس، وتأثرت بها المدن الكبرى كالجزائر وبجاية وشرشال وتلمسان نظرا لرقّة مخارج حروفها وسهولة التلفظ بها<sup>(4)</sup>.

ويلاحظ أيضا انتشار واستعمال مفردات إسبانية مع شيوع تعابير لغة الفرنكا (Lingua franca)<sup>(5)</sup>، والتي عرفت منذ التوافد الأخير للموريسكيين، ويغلب على هذه اللغة الطابع الإسباني، خاصة في مجال العلاقات الخارجية والأعمال التجارية.

(1) الصدرية أو البدعية، نقلها الأندلسيون إلى شمال إفريقيا، وقد استعملت لفظة الصدرية في الجزائر بدل البدعية.  
(2) دخل هذا اللباس إلى الجزائر بعد سقوط غرناطة، ويستعمل للحفاظ على زينة الشعر والوقاية من البرد عند الخروج من الحمام، انظر: Hadeo, Topographie op. cit., p. 109.  
(3) البليغة عبارة عن نعل، وكانت مستعملة في الأندلس.  
(4) ناصر الدين، سعيدوني، دراسات العهد العثماني، ص 145.  
(5) هذه اللغة كانت عبارة عن صبير (لغة التعارف بالإسبانية)، وهي خليط من المفردات العربية والإسبانية والتركية والإيطالية، وكانت مستعملة في مدينة الجزائر في العهد العثماني حتى سنة 1830م، ويعتقد الفرنسيون

وظلت بعض العائلات الأندلسية تحافظ على تداول اللغة الإسبانية بالجزائر العثمانية، كما اعتبر هايدو لغة الفرانكا اللغة الثالثة في مدينة الجزائر، ويعتقد أنها أدخلت إلى الجزائر من طرف الجنود البرتغاليين بعد معركة وادي المخازن<sup>(1)</sup> (4 أوت 1578م).

وكان مهاجرو الأندلس يعيشون وضعا خاصا في الجزائر قبل اندماجهم في المجتمع الجديد نهائيا، فقد كانوا في البداية لاجئين يبحثون عن أماكن للاستقرار ووسائل للعيش والأمن، وبتقادم الزمن استقروا في المدن الساحلية، ومارسوا التجارة والتعليم والزراعة والصناعات المختلفة، ولكن هذه الأعمال لم تمنع من شعورهم بالحاجة إلى التضامن كقوة خاصة، لذلك أسسوا بتشجيع من السلطة التي كانت تتعاطف معهم مؤسسة خيرية كانوا يهدفون من ورائها إلى التضامن فيما بينهم من جهة وإلى خدمة فقرائهم من جهة أخرى.

إن حساسية البعد الثقافي الاجتماعي والاقتصادي بين أهل الأندلس والطبقات الاجتماعية المكونة لمجتمع الإيالة، كانت من العوامل التي دفعت بأغنياء الجالية الأندلسية إلى تأسيس جمعية أشرفت بدورها على إقامة مسجد وزاوية ومدرسة، وذلك في شهر محرم عام (1033هـ - 1624م)، وكانت هذه الجمعية الأندلسية مكونة من الأشخاص التالية أسماؤهم: محمد الآبلي وإبراهيم بن محمد بوساحل والمعلم موسى ومحمد شلالة ومحمد بن العنجدون ومحمد السميح وعلي بن عمر ويحيى الخياط<sup>(2)</sup>.

= أنها كانت لغة الموريسكيين، راجع:

M. Emerit, « le voyage de la condamine à Alger, 1731 », in, R.A (N°98), 1954, p: 375

وقارن عند: وليم، سبنسر: الجزائر في عهد رياسة البحر (تعريب وتعليق: د. عبد القادر زبادية)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1980، ص.85.

(1) Haedo, Topographie op. cit., p.94.

(2) ناصر الدين، سعيدوني، دراسات... المصدر السابق، ج2، ص 46.

وحيث أغنياء الأندلس على ذلك أوقافا داخل مدينة الجزائر وخارجها، لتنفق  
على شؤون العبادة وتقديم العون لفقرائهم، وكانت هذه الأوقاف تشمل العديد من  
الأماكن العقارية والأراضي الزراعية، حيث جعلوا محمد الآبلي<sup>(1)</sup> مشرفا عليها  
والذي أصبح وكيل أوقاف الأندلس<sup>(2)</sup>.

وقد شجع السلطان العثماني بايزيد الثاني الأوقاف في الدولة العثمانية، وأسبغ  
عليها مناعة وحصانة أبعدت عنها أنظار الطامعين وجعلها في مأمن من الضرائب  
والمصادرات، الأمر الذي أكسب الأملاك العقارية والأراضي الفلاحية والمراعي  
التابعة للأوقاف، شكل مؤسسة رعاية اجتماعية ومركز تعليمي وديني كان له اليد  
الطولى في رعاية الأعمال الخيرية والمحافظة على الحياة الدينية والثقافية<sup>(3)</sup>.

ويعتبر الوقف من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية، حيث يعبر به الفرد المسلم  
عن إرادة الخير وعن إحساسه العميق بالتضامن مع المجتمع الإسلامي، وهو شرعة  
اتبعتها المسلمون في بداية أوائل الإسلام، وقد تطور في العهد العثماني نتيجة  
لاعتبارات سياسية واقتصادية.

وتتجلى أهمية الوقف في الحياة الدينية والعلمية والاجتماعية، فهو مصدر العيش  
للزوايا والأضرحة وغيرها من المؤسسات، كما أنه مصدر الحياة والنمو للمدارس  
والكتاتيب والمساجد ولمعيشة العلماء والطلبة، ومن جهة أخرى لعب الوقف دورا

(1) Devoux, « les édifices religieux de l'ancien Alger », in, R.A (N°12) 1868, p.279.

(2) وكيل الأندلس هو المشرف على الأوقاف، لمزيد من الإيضاح راجع: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار،  
نقيب الجزائر: (تحقيق: أحمد توفيق المدني)، ط2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1980م.

(3) ناصر الدين، سعيدوني، النظام المالي في أواخر العهد العثماني (1792-1830م)، ط2، الجزائر: المؤسسة  
الوطنية للكتاب 1985م. ص 141.

بارزا في الحياة الاجتماعية لتضامن المجتمع وترابطه وتوزيع ثرواته على فقرائه والعجزة منه<sup>(1)</sup>، وفي الحقيقة إن كثيرا من الأوقاف كانت مشتركة بين الحرمين الشريفين والأندلس أو بين الجامع الأعظم بالجزائر وفقراء الأندلس.

وكان الأندلسيون يتمتعون بمكانة خاصة في المجتمع الجزائري وخصوصا لدى العثمانيين، حتى أن بعضهم كان يعين على أوقاف حنفية عثمانية مثل حميدة الأندلسي، الذي كان عضوا في لجنة إدارة سبل الخيرات<sup>(2)</sup>، ومثل سليمان الكبابي الذي عينه خضر باشا وكيلا على أوقاف جامع سوق اللوح<sup>(3)</sup>.

ويقدم لنا الجدول التالي بعض المعلومات المتعلقة بأمولاك المؤسسات الخيرية، ويعطينا صورة عن مدى الدور الحيوي الذي لعبته الأملاك في النظام المالي تحت الرعاية المادية والأدبية للخرزينة العامة، ومعلوماته مركزة على مدينة الجزائر دون سواها من أقاليم الإيالة في العهد العثماني.

المؤسسات الخيرية	عدد الأملاك الموقوفة	عدد المساجد والأضرحة التابعة لها	مدخولها السنوي	نفقتها السنوية
سبل الخيرات	119 بناية	/	16000 ف ف	14583 ف ف
أوقاف المرابطين	/	19 ضريحا	/	/

(1) أبو القاسم، سعد الله، المصدر السابق، ج 1، ص 225-227.

(2) ينسب بعض الكتاب وانشاء مؤسسة سيل الخيرات إلى شعبان خوجة التركي سنة 1584م، واهتمت هذه المؤسسة بالإشراف على المساجد الحنفية.

(3) أبو القاسم، سعد الله، المصدر السابق، ج 1، ص 237-238.

				والأولياء
/	5000	61 مكانا دينيا	40 بناية	أوقاف أهل الأندلس

ومن خلال ذكر الأوقاف الخاصة بالأندلسيين والمشاركة بينهم وبين الحرمين الشريفين وعامة الناس، يتضح لنا أن أوقاف الأندلسيين تأتي في المرتبة الرابعة من حيث الأهمية وعدد الأوقاف ومقدار دخلها، فتنفوق عليها أوقاف الحرمين الشريفين التي تستحوذ على ثلاثة أرباع الأوقاف كلها وتضم 1558 ملكية مردودها السنوي يقدر ب 43222,70 فرنك فرنسي، وبعدها تأتي أوقاف الجامع الأعظم في الدرجة الثانية، إذ تحصى ب 548 وقفاً، وفي المرتبة الثالثة تدرج أوقاف سبل الخيرات التي ينفق منها على المساجد الحنفية والتي تشرف على 331 وقفاً، مدخولها السنوي لا يقل عن 180000 فرنك فرنسي في السنوات الأولى للاحتلال، وبعد ذلك تأتي أوقاف الأندلسيين لتحل المرتبة الرابعة، فقد كانت تتصرف في السنوات الأولى للاحتلال في 40 ملكية و 61 عناء (كراء) توفر دخلاً سنوياً لا يقل عن 4000 فرنك، وتراوحت مصاريف أوقاف الأندلسيين خلال الفترة الممتدة من 1836 إلى 1841م بين 18736,20 ف و 72515 ف، في حين بلغ فائض مردود هذه الأوقاف خلال نفس الفترة 19979,19 ف<sup>(1)</sup>.

وتبقى وثائق الوقف رغم ما تتصف به من توزيع جغرافي غير متكامل وتغطية زمنية غير كافية، الوسيلة المثلى والمصدر الأساسي للتعرف على واقع الحياة الداخلية بالجزائر في العهد العثماني.

(1) ناصر الدين، سعيدوني، دراسات، المصدر السابق، ج2، ص57-58.



وتتوفر الجزائر على غرار الولايات العثمانية على رصيد زاخر من الوثائق الرسمية المحلية العائدة إلى الفترة العثمانية، وهي محفوظة بمركز الأرشيف الوطني الجزائري، وتقتصر هذه الدراسة على سلسلة المحاكم الشرعية، وهي رصيد هام، حيث يضم ثلاثا وخمسين ومائة علبة، ويحتوي معظمها على أزيد من مائة وثيقة، وهي تخص في معظمها مدينة الجزائر والمناطق المجاورة لها وبعض المدن الأخرى، كالبليدة والقليلة ومليانة، أما اللغة المستعملة فهي اللغة العربية<sup>(1)</sup>، والأخبار التي تتضمنها الوثائق في مجال الحياة الاجتماعية متنوعة، من ذلك العلاقات ضمن الأسرة الواحدة، كما تكشف لنا عن الذهنية السائدة وقتذاك، كاستفادة المرأة من ممتلكات الآباء، وتتيح لنا التعرف على أعمال البر والتضامن والتكافل والتآزر.

وإذا كانت التركات تعرفنا بالثروة المخلفة عن المتوفي، مما يسمح لنا دون شك بدراسة مستوى الثروات وهو أمر في غاية الأهمية، فهي تعكس لنا شتى مظاهر الحياة المادية التي كان يحياها الفرد من بساطة ورفاهية، وتطلعنا على الممارسات الاقتصادية والاجتماعية للفرد، كالثروة الموظفة في تأثيث البيت وتلك الموظفة في الميدان العقاري، وفي هذا السياق فإن الحرة فاطمة بنت أحمد الغبري قد خلفت ثروة تقدر ب 17,173 دينارا بتاريخ 1681م، وأوصت بثلاثها إلى فقراء الحرمين الشريفين وفقراء الأندلس<sup>(2)</sup>.

وبعد وفاة المذكورة فاطمة، لجأ أمناء بيت المال<sup>(3)</sup> إلى تقويم ثروة المالكه وتصفية تركتها بدءا بتنفيذ وصيتها، فأعطي الثلث من حساب 1500 دينارا إلى شقيقها محمد، وما تبقى كان حبا للفقراء المذكورين في الوصية.

(1) عبد الجليل، التميمي، "فهرس الدفاتر العربية والتركية بالجزائر"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 2، تونس، جويلية 1975، ص 134-150.

(2) سجلات المحاكم الشرعية، علبة، 34، وثيقة 2-1ف.

(3) تعتبر مؤسسة بيت المال من التقاليد العريقة للإدارة الإسلامية بالجزائر، تدعمت في العهد العثماني وأصبحت بدول إمانه أبناء السبيل والأسرى، وتتصرف في الغنائم وتشرف على إقامة المرافق العامة، وتتولى تصفية الودائع، وكان يشرف على هذه المؤسسة موظف يعرف ببيت المالجي، ويساعده قاضي يلقب بالوكيل.

كما ورثت ابنتها آمنة بنت المرحوم الحاج مصطفى الأندلسي نصف التركة،  
والعاصب محمد ثلثا واحدا، وأوصت المرحومة بحبس الثلث من الثروة المخلفة على  
أن تكون أربعة أتساع  $4/9$  لفقراء الحرمين، وخمسة أتساع  $5/9$  لفقراء الأندلس،  
ومن هنا نلاحظ أنه عندما تجمع الوصايا يعطى لفقراء الحرمين الثلثان وثلث واحد  
يعطى لفقراء الأندلس، وهذا يدل على أن فقراء الحرمين كانوا أشد فقر من  
غيرهم، وشهد تصفية التركة وتسوية الإرث كل من محمد السعدي بن محمد التواتي  
ومحمد ابن محمد وبحضور حسين قاضي مدينة الجزائر.

ومما يلاحظ أن الوثيقة شملت جزأين، هما الصدر والحاشية، فصدر الوثيقة تعرض  
لوصية فاطمة وتصفية التركة على مستحقيها، بينما تعرضت الحاشية إلى تحبيس آمنة  
على ولدها الحاج محمد الشريف أحمد بن الحاج علي ما قيمته 4657 دينارا، وأمرته  
بتنفيذ وصية المرحومة أمها بخصوص الوقف الخيري الحاصل للفقراء المذكورين.

وأشرف الحاج عبد القادر بن علي الغبري على شؤون نظارة أوقاف الفقراء  
المذكورين، ويبدو مما لا شك في ذلك، أن هذا التكليف المزدوج في رعاية الأوقاف  
يدل على المكانة الرفيعة التي وصل إليها علماء وشرفاء أهل الأندلس في مجتمع  
الجزائر زمنئذ، إذ نصت الوثيقة على أن: (كله مبين ومفسر في رسم بعدالة بيت  
المال وقف عليه شهيدا وأراد الوارثان المذكوران وناظر الفقراء المذكورين وهو  
السيد الحاج عبد القادر في حق فقراء الأندلس وفقراء الحرمين الشريفين، لاستنابة  
ناظري أوقاف الحرمين الشريفين إياه فيما ستؤدي إليه التفاصيل في متروك  
المالكة)<sup>(1)</sup>.

(1) س.م.ش، علبة، 34، وثيقة 2-1ف

وتطلعنا تركة عائشة بنت أحمد حويجات المتوفى، أنها خلفت حانوتين أحدهما كائن بالخضارين والآخر بالفكاهين قرب شارع باب عزون، وكانا فيما سبق لابن الشريف الخضار وابن العباد، واختص الحانوتان بنشاط التجارة وبيع الصابون، وقد ورثت فاطمة بنت علي الصباغ الحانوتين المختلفتين عن أمها خديجة بنت الحاج محمد الحجام، ورصدنا من خلال الوثيقة، تنفيذ فاطمة لوصية جدتها خديجة بإعطاء ثلث التركة لبيت المال، والباقي يوزع حسب الفريضة، حيث أخذت فاطمة النصف 1/2، والثلث رجع إلى أبناء الحاج محمد الخياط بن علي الحجام زوج عائشة عن طريق الوصية أيضا، وهم الحاج عمر والحاج علي وعزيزة<sup>(1)</sup>.

وكما هو معروف فإن الوصية في عرف الفقهاء عقد يوجب حقا في ثلث مال عاقده يلزم بموته أو نيابة بعده، وهي مشروعة بنص الكتاب والسنة والإجماع، وبعد تسوية الإرث، اشترى الحاج علي بن حسن الأندلسي صانع الشواشي الحانوتين بثمن قدره 2800 دينار، وأشهر على نفسه بأنه حبسها لفائدة فقراء الحرمين الشريفين مكة والمدينة وفقراء الأندلس، مناصفة بينهما، وجعل الناظر على فقراء الحرمين الحاج محمد بن سالم، والناظر على فقراء الأندلس كلا من الحاج يحيى الخياط وابن محمد الأندلسي، إذا نصت الوثيقة على أنه: «اشترى مكان الناسك ابن الحاج علي صانع الشواشي ابن حسن الأندلسي الحانوتين الاثنتين بمحدودهما وحقوقهما وفي كافة حقوقهما ألف دينار اثنتان دينار كلها جزائية ثم أشهر المسمى الحاج علي المذكور به على نفسه أنه حبس على فقراء الأندلس القاطنين المحروسة الجزائر وعلى الفقراء القاطنين بالحرمين الشريفين مكة والمدينة وأذن المحبس

(1) س.م.ش، علبة 16 مكرر.

الشيخ الحاج يحيى الخياط وكيل فقراء الأندلس في التاريخ وابن محمد الأندلسي والسيد الحاج محمد بن سالم وكيل فقراء الحرمين الشريفين»<sup>(1)</sup>.

وتمكن علي طوليض الأندلسي من تحبيس دار وجنينة بمليانة وبحيرة بفحص روضة قرب مليانة والمحاذية لوادي بوتكتون، لصالح فقراء الحرمين الشريفين، وهذا بتاريخ شهر ذي الحجة من عام 1152هـ/1739م<sup>(2)</sup> إن قضية التركات الختسي هي الأخرى أهمية قصوى، إذا تطلعنا على الواقع المادي الذي كانت تحياه شرائح مختلفة في مجتمع مدينة الجزائر العثمانية، إذ نصت وثيقة علي أن السيد عبد القادر ابن الحاج عبد الرحمن المعروف بابن العطار، أوقف دارا على ابنتين، ديرومة وآسية، وعلى زوجته الزهرة بنت إبراهيم، وفي حالة زواجها ينتقل نصيبها من ذلك لأولادهما<sup>(3)</sup>.

وقلد الموصي ما ذهب إليه الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان، حيث حدد الأطراف المستفيدة من المحبس، إذ يعود إلى شقيقه إبراهيم وذريته، وفي حالة انقراضهم يرجع المحبس المذكور إلى شقيقه نفسه، وبعد ذلك يؤول المرجع لصالح فقراء الحرمين الشريفين، والشطر الآخر يعود إلى فقراء زاوية الأندلس بالجزائر، ونستنتج من هذا المحبس أن الموصي كان حريصا على أن يكون الوقف في العائلة في أي حال من الأحوال<sup>(4)</sup>، ونقرأ في أحد العقود الشرعية أن جماعة من شرفاء الأندلس وهم علي التواتي الحاج ابن الناسك الخير، والحاج ابن محمد بن قاسم، والناسك ابن ابن قاسم، قد تملكوا دارا بمدينة الجزائر بتاريخ 1073هـ/1663م عن

(1) س.م.ش، علبة 16 مكرر.

(2) س.م.ش، علبة 34، وثيقة 163-34ف

(3) س.م.ش، علبة 5-1.

(4) نفسه.

طريق الشراء بثمن قدره 6000 دينار ذهبية، وحبسا المنزل لفائدة فقراء الحرمين وفقراء الأندلس مناصفة بينهما<sup>(1)</sup>.

ويتضح لنا من خلال وثائق المحاكم الشرعية عدم اقتصار الأندلسيين على تخصيص الأوقاف على فقرائهم، وعدم الاكتفاء بمشاركة ذويهم فيما كانوا يحسبونه، بل عمدوا إلى وقف أملاكهم لفائدة فقراء الحرمين الشريفين، وذلك للمكانة التي كانت تحظى بها الأماكن المقدسة بالحجاز.

وتكشف لنا الوثائق مدى إسهام الجالية الأندلسية في الحياة الاجتماعية والثقافية بما حسبه من ممتلكات وعقارات على المؤسسات الدينية والثقافية، ونوه الباحثون بالأهمية التي تكتسيها دراسة الوثائق الشرعية الخاصة بالوقف في الكشف عن جوانب عديدة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لمجتمع ما.

ويمكننا التعرف بواسطة وثائق وقف الأندلسيين على ثرواتهم ومختلف الأنشطة التي مارسوها ومستوى المعيشة التي كانوا عليها، وذلك بحصر الأموال التي أنفقوها في شراء العقارات وامتلاك المحلات التجارية، أو التي كانوا يدفعونها مقابل استغلالهم لبعض الأوقاف.

كما يتضمن الوقف أخبارا ذات صلة وطيدة بالحياة الاقتصادية من ذلك العمليات المتداولة وقتذاك وأسعار الجنات والمنازل، ومن الصعوبة بمكان أن نضع قائمة جامعة لأصحاب هذه العقارات لصعوبة حصر ذلك لكثرتها، وتكفي الإشارة إلى أن الباحث كلما تمتد يده إلى سجلات المحاكم الشرعية المحفوظة بالأرشيف الوطني الجزائري إلا ويجد فيها العديد من الوثائق المتعلقة بهذه الأوقاف والعقارات

(1) س. م. ش.، ص 147.

والرقيق الانتفاع بها، فبالمحكمة يتم تسجيل عقود البيع والشراء والأحباس، بل ويتم إسفاء الشرعية على تلك المعاملات.

وفي هذا السياق نشير إلى أن سنان بن عبد الله اشترى ثلاثة حوانيت، حيث حبس حانوتين لصالح جامع القصبة حيث مرقد الوالي الصالح سيدي رمضان بمدينة الجزائر، وجعل المشرف على الحبس السيد سعيد بن علي الأندلسي، والحنوت الثالث حبسه لفائدة جامع السيد داخل مدينة الجزائر، وجعل المشرف على ذلك خطيب الجامع المذكور أبا عبد الله محمد بن حسن التركي<sup>(1)</sup>، وثقة أهالي الجزائر في تولى أفراد الجالية الأندلسية الإشراف على أحباسهم ورعاية شؤونها تدل على المكانة الاجتماعية المميزة التي وصل إليها الأندلسيون في العهد العثماني.

ومن استقراء سجلات المحاكم الشرعية، والقيام بعملية التتبع لأسماء الأماكن والشوارع والأحياء التي كان يقيم بها الأندلسيون ولهم فيها عقارات وأوقاف، يستطيع الباحث أن يقف على مدى انتشار أفراد الجالية الأندلسية على خريطة مدينة الجزائر، وكيف أنهم أصبحوا يلعبون دورا في بنيتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وقد كان هذا الدور في مجمله إيجابيا ومؤثرا.

إلا أن أن أوقاف أهل الأندلس ما لبثت أن اضمحلت وتلاشت وتناقص مردودها، ولم يعد يستفيد منها عام 1837م سوى 71 فردا ينتسبون إلى أفراد الطائفة الأندلسية، كما تعرضت زاوية أهل الأندلس إلى الهدم من طرف الإدارة الفرنسية سنة 1843م<sup>(2)</sup>، وصدر قرار من طرف السلطات الاستعمارية بتاريخ 1

(1) س.م.ش، علبة 32، وثيقة 32-111ف.

(2) مرسوم 1 أكتوبر 1843م نص في مادته الثالثة على رفع صفة المناعة عن الحبس، واعتبره مندمجا في قانون المعاملات التجارية التي تهم الأوروبيين

أكتوبر 1844م، يقضي بإخضاع الأوقاف للمعاملات التجارية، ونزع صفة المناعة عنها، ولكن ما جعل حداً نهائياً لأوقاف الأندلس بالجزائر.

ومن الملاحظات الأولية التي يجب تسجيلها من خلال دراستنا للعقود الشرعية ما يلي:

أولاً: تعرفنا وثائق الوقف على أسماء العديد من رجال العلم وموظفي السلك الديني من الأندلسيين وغيرهم من وكلاء ونظار وفقهاء، وعلى سبيل المثال نذكر اعتماداً على الوثائق الموجودة بأيدينا أسماء بعض هؤلاء الأعلام: الحاج عبد القادر ابن الحاج الغبري ناظر أوقاف الأندلس سنة 1681م، والحاج يحيى الخياط وكيل فقراء الأندلس سنة 1568م، والمشرف على فقراء الأندلس السيد ابن محمد الأندلسي والسيد محمد بن علي الأندلسي وكيل الولي الصالح سيدي عمر التنسي، وأبو عبد الله محمد بن حسن التركي إمام جامع القصبة، والحاج محمد بن سالم ناظر أوقاف الحرمين الشريفين سنة 1662م، وحسن القاضي والحاج محمد بن عبد الرحمن.

ثانياً: تعرفنا وثائق الوقف على نوعية النشاط الاقتصادي لأفراد الجالية الأندلسية بالجزائر، وتعطي لنا فكرة عن الأعمال التجارية والحرف والصنائع، وهذا ما يمكن استنتاجه من الألقاب الحرفية التي كانت تضاف إلى أسماء الأعلام أو المتخرجة من الحرف الوادة في الوثائق، ونذكر من ذلك، مهمة الخياطة والعطارة والحدادة، والحياسة والحراة وصناعة الشواشي، ومن خلال وقوفنا عند الأسماء والألقاب المهنية التي صاحبت أسماء الشهود والمشرفين على البيع والأحباس، استطعنا رصد بعض الألقاب التشريفية التي وصف بها أفراد الجالية الأندلسية، ولا بأس أن نشير إلى البعض منها كالمنعم والمكرم والأجل والناسك والعلامة والأبرار وفضلاء الأندلس والعظيم وفضل الخير وغيرها من الألقاب.

ثالثا: تعطينا وثائق الوقف صورة عن الحياة الاقتصادية بمدينة الجزائر في العهد العثماني، لما ورد فيها من أسماء الأسواق، مثل سوق المقايسة وسوق الفكاهين وسوق الخضارين وسوق الكتان وسوق الشواشي.

رابعا: إن القراءة في عقود التحبيس الخاصة بوثائق الوقف تسمح لنا برصد الملكيات العقارية والاطلاع على المالكين وعلى كيفية توزيعها ضمن الشرائح الاجتماعية، وتمكننا من التعرف على طوبوغرافية المدينة وعلى معالمها من أسواق ومرافق عامة، في غياب الخرائط والأوصاف الدقيقة في كتب الإخباريين<sup>(1)</sup>، وإنه لمن الأهمية بمكان التنويه بالدقة التي روعيت من قبل الموثقين في تحرير العقود مما لا يدع مجالاً لأي التباس أو غموض، ويرجع الفضل في هذا إلى الطريقة المتبعة في تحديد مهنة الواقف والموقع (المكان) والأطراف المستفيدة منه والغرض من الوقف، ومن هنا نستنتج أن أصول التوثيق كانت دقيقة في المجتمع الجزائري في العهد العثماني بالمحاكم الشرعية، والوثائق التي اشتملت عليها المحاكم الشرعية، قد حددت الدور الذي أضحي يلعبه الحاكم الشرعي، أي القاضي بالمدينة، فهو قاضي الأحوال الشخصية والوصايا والعتق والقائم على الأحباس والمشرف على البيع والشراء والهبات<sup>(2)</sup>.

خامسا: تتعرض الوثائق الشرعية للحبس من مختلف جوانبه سواء كان أرضا زراعية أو ملكا عقاريا، كما تنص الوثائق على كيفية التعرف على الوقف والإصلاحات التي يتطلبها والنفقات التي يستوجبها، مع إثبات مقدار الدخل الذي

(1) عائشة، غطاس، سجلات المحاكم الشرعية وأهميتها في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي بمجتمع مدينة الجزائر في العهد العثماني، مجلة إنسانيات، وهران، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، عدد 3، 1997، ص 72.

(2) نفسه، ص 71.



يوفره المحبس، وتحديد الوصايا وتسوية الإرث، زيادة على ذلك ذكر المحبس ومرجعه والمنتفع به والمشتغل به المشرف عليه والتاريخ الذي يعود إليه<sup>(1)</sup>.

سادسا: من استقراء المصادر المعاصرة لفترة الحكم العثماني في الجزائر، وسجلات المحاكم الشرعية التي كانت قائمة خلال هذه الفترة، تستنتج أن الجالية الأندلسية أصبحت قوة لا يستهان بها، وأصبح لها دورها في توجيه سياسة النظام الإداري في المدينة، وقد اكتسب الأندلسيون هذه القوة نتيجة لعاملين أساسيين:

الثراء الضخم الذي أصبح عليه كثير من أفراد هذه الجالية وبخاصة من فئة التجار وأصحاب الحرف.

وانتماء كثير من أفراد هذه الجالية انتماء عضويا إلى النخب العثمانية والتمتع بامتيازاتها المادية والأدبية، وقد وصل هذا الانتماء إلى حد الارتباط الاجتماعي والتزاوج والمصاهرة.

ومن بين النتائج التي يمكن استخلاصها من دراسة أوقاف أهل الأندلس بالجزائر في العهد العثماني ما يلي:

لم تعرف الأوقاف توسعا ملحوظا وانتشارا واسعا بالجزائر إلا أثناء الفترة العثمانية، وقد ساعدها على ذلك انتشار الروح الدينية وسياسة الحكام، وتأثير رجال الدين والمرابطين.

وبفضل عوائد الأوقاف تمكن حكام الجزائر من إيجاد حلول ملائمة لتسيير الشؤون الثقافية، التي ما كان لها أن تتم لولا مداخيل الأقباس التي كانت تساهم

(1) للمزيد حول سجلات المحاكم الشرعية وأهميتها في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي بمجتمع مدينة الجزائر في العهد العثماني، راجع: عائشة، غطاس، المقال السالف الذكر، ص 71-81.

في نفقات التعليم وسد حاجة العلماء والطلبة، والتكفل بأجور المعلمين والقائمين على شؤون العبادة بالمساجد والزوايا وصيانة الأضرحة.

كانت الأوقاف خير مساعد لتخفيف شقاء المساكين والفقراء والمحتاجين، بما كان لهم من صدقات وإعانات.

وحدثت من المظالم والأحكام التعسفية للحكام، حيث كان الوقف يوفر وسيلة فعالة للمحافظة على الثروات والأموال والأراضي الموقوفة.

ويفضل الوقف تمت رعاية وصيانة المرافق العامة، مثل العيون والسواقي والآبار والطرق.

كما أدى الوقف إلى إقرار حدود الملكيات الزراعية التي تعتمد على العقود الشرعية<sup>(1)</sup>.

### ج - الأندلسيون والحياة الثقافية:

لم يقتصر الموريسكيون الأندلسيون على التأثير على النشاط الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية بإيالة الجزائر فحسب، بل كان لهم دور مهم في ميدان التعليم ومجال الفن ونمط العمارة.

ونلاحظ أن توافد الأندلسيين إلى الجزائر وخاصة (دار السلطان) عمل على تعميق الإحساس بالانتماء العربي-الإسلامي لدى السكان الذي ساعد على توطيد وتدعيم مكانة الفقهاء في المدن وزيادة نفوذ المرابطين بالأرياف، وذلك منذ فترة متقدمة تعود إلى مبادرات علماء وصلحاء أهل الأندلس بالمغرب الأوسط.

(1) ناصر الدين، سعيدوني: دراسات في الملكية العقارية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب 1986، ص 101-106.

وقد ارتقى العديد من الأندلسيين في الوظائف الإدارية والدينية كالقضاء والإمامة والنظارة، واشتهر منهم ابن النيقرو وابن الكبابطي، كما سارعت النخبة الأندلسية إلى تأطير مجموعتها من خلال تخصيص الأوقاف للإنفاق على المحتاجين من أبناء جلدتهم للمحافظة على نفوذها في أوساط الأندلسيين، ولإظهار نفسها للحكام العثمانيين بالجزائر على أنها الحليف الطبيعي لهم في حربهم ضد الإسبان<sup>(1)</sup>.

وعلى الرغم من أن الهجرة الأندلسية المتأخرة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين فإن غالبيتها لم تكن من ذوي الثقافات الواسعة التي تماثل مستوى الهجرات السابقة من حواضر الأندلس، إلا أنها ضمت من بين أفرادها بعض العلماء والصلحاء الذين تعاونوا مع الفقهاء والمرابطين من أهل الجزائر، مثل سيدي أحمد بن يوسف دفين مليانة سنة 951هـ/1524م، كما دعي بعضهم إلى الجهاد لطردهم من السواحل، وكانوا عوناً للسلطة العثمانية بالجزائر<sup>(2)</sup>.

ولم يتوقف نشاط صلحاء وعلماء الأندلسيين عن إثارة الحماس والدعوة إلى الجهاد، بل تعداه إلى الأعمال الخيرية والخدمات التعليمية في رعاية شؤون الناس، مما زاد من تقدير السكان لهم، فأصبح الوالي الأندلسي سيدي فرج محل تقدير، وتحول ضريحه بعد موته إلى مزار، ونال سيدي يعقوب الشريف الزبوج القرطبي مكانة لدى سكان الأطلس البليدي، فتحول ضريحه إلى مكان للزيارة والتبرك بالقرب من سطوح الشفة سنة 927هـ/1521م، وسيدي أحمد الكبير الأندلسي الذي أيد خير الدين بربروسا، وأصبح محل تقدير من قبل سكان البلدية، وسيدي

(1) ناصر الدين، سعيدوني: صورة...، المقال السابق، ص 239

(2) ناصر الدين، سعيدوني: الأندلسيون، المقال السابق، ص 119.

علي بن مبارك الأندلسي الذي التف حوله المدجنون بالقليلة، وبعد وفاته، نسيت الكرامات إليه، حيث ظلت سلالة هذا الولي تحظى بالتقدير لدى الناس.

لقد احتكر الأندلسيون ميدان التعليم واحترفوا مهنته بالجزائر في العهد العثماني، ونقلوا طريقتهم الخاصة بهم، كما ساهم التراث الأندلسي في الميدان العلمي في تلقين السكان طرق وأساليب علمية أندلسية من تصانيف في مختلف العلوم النقلية والعقلية، فعمل أهل الأندلس على تجديد طرق التدريس، وطوروا أسلوب تلقي المعلومات التي تجاوزت الطريقة المغربية التقليدية، التي كانت تعتمد على حفظ القرآن واستظهار الحديث النبوي، إلى طريقة البحث والتفكير والاعتماد على أسلوب المحاورة والمناقشة، كما عمل الأندلسيون على نشر خطهم حتى ساد على الخط المغربي، ويمكننا تسجيل الفروق في المناهج التعليمية بين الأندلسيين والمغاربة عموماً استناداً على ما أورده ابن خلدون في هذا الصدد: (ولم يتصل سند التعليم فعسر عليهم حصول الملكة والحدق في العلوم، وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية) (1).

أما في مجال تعليم الأطفال من لدن الأندلسيين والمغاربة، فيورد: (فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، لا من حديث، ولا من فقه، ولا من شعر، ولا من كلام العرب، وأما أهل الأندلس فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب. وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتابة) (2).

(1) ابن خلدون، المقدمة: ط 6، بيروت، دار القلم، 1989، ص 431.

(2) نفسه، ص 538.

ولا تكاد المؤسسات الثقافية بالجزائر في العهد العثماني تخرج عن المسجد والمدرسة والزوايا والمكتبة، لهذا ساهمت الجالية الأندلسية بإنشاء الزوايا والمعاهد وخاصة في مقاطعة الجزائر (دار السلطان) ومن أشهرها:

زاوية أهل الأندلس الملحقة بالمسجد بحي مسيد العدالية بمدينة الجزائر، وقد ظلت هذه الزاوية منذ إنشائها سنة 1639م مقصد للعلماء والطلاب، وأشرف عليها الكثير من النظار والفقهاء الأندلسيين أمثال محمد بن محمد الآبلي، ومحمد العنجدون ومحمد السميع ومحمد بن بكير وغيرهم.

زاوية سيدي أحمد الكبير الأندلسي بالبليدة.

زاوية سيدي علي بن مبارك بالقليلة.

كما ساهم الأندلسيون في نشاط الزوايا ببلاد القبائل مثل زاوية الشيخ محمد التواتي ببجاية<sup>(1)</sup>.

وأما في الميدان الفني، فقد نشط الأندلسيون الحياة الفنية بإيالة الجزائر من خلال الموسيقى التي طوروها عبر الموشحات والأزجال المألوف<sup>(2)</sup>.

وتناول الغناء الأندلسي وصف الطبيعة والمولوديات والإخوانيات التي تعكس النموذج الأندلسي المغربي، الذي حافظت عليه الأجيال المحلية بالجزائر والبليدة وشرشال وبجاية وتلمسان.

(1) ناصرالدين، سعيدوني: الأندلسيون المقال السابق، ص 120.

(2) المألوف الأندلسي: اخترعه زرياب، وهو فن تلحيني على نظام النوبات، للمزيد راجع: أحمد سفتي: دراسات في الموسيقى الجزائرية، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب 1988. ويرى المؤرخ طالبي، أن المألوف المعروف بالمغرب العربي، لم يأتي به الموريسكيون لأن هؤلاء كانوا يجهلون اللغة العربية، انظر: محمد طالبي: "الهجرة الأندلسية إلى إفريقيا أيام الحفصيين"، مجلة الأصالة، العدد 26، الجزائر، جويلية-أوت 1975، ص. 64-78.

وغلب على الموشحات قصائد المدح (المولوديات) ومن أشهر روادها أبو العباس أحمد بن عمار الأندلسي (ت 1766م)، وعمر بن محمد بن سيدي علي الأندلسي (ت 1749م)، ومحمد بن الشاهد الأندلسي (ت 1793م) والذي عرف بترديده لموشحات ابن سهل وابن زهر ولسان الدين بن الخطيب<sup>(1)</sup>.

وكانت الموشحات تنشد بالآلات الموسيقية في المواسم الدينية والحفلات والسهرات العائلية، وقد تفنن سكان دلس وشرشال والبليدة والجزائر والقلعة وتلمسان بالعزف على مختلف الآلات الموسيقية الوترية كالعود (الكويترا) والرباب والقانون والكامنجا، أو الصوتية كالقصة والزرنة والغايطة، أو الإيقاعية كالطبل والدف والطبيلة والطار والدربوكة، وعمل الأندلسيون على تحسين معظم هذه الآلات<sup>(2)</sup>، ولعل أعمق تأثير خلده الأندلسيون في الجزائر هو حدث الموسيقى، ومما لاشك فيه أن استيطان العناصر الأندلسية ببجاية، هو الذي جعل منها مدينة تشبه إشبيلية في شغفها بالموسيقى<sup>(3)</sup> وانصرافها في الطرب.

وحافظ سكان تلمسان على جانب كبير من التراث الموسيقي الغرناطي، حتى أن كلمة غرناطة بتلمسان صارت مرادفة لكلمة موسيقى، ففي تلمسان اشتهر أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مسايب الأندلسي (ت 1776م) بنظم الموشحات وتلحينها، وقد نسب إليه نظم حوالي 3034 قطعة شعرية (مالوف) معظمها في مجال المدائح النبوية (المولوديات)<sup>(4)</sup>.

(1) ناصر الدين، سعيدوني: الأندلسيون، المقال السابق، ص 121.

(2) وليم، سبنسر، المرجع السابق، ص 101.

(3) طالب، محمد، المقال السابق، ص 73.

(4) ناصر الدين، سعيدوني، دراسات العهد العثماني، ص 144.

## د - الأندلسيون والنشاط العمراني:

وفي مجال العمارة، فقد تميزت أماكن تجمعات الأندلسيين بمدن وفحوص الجزائر والبليدة وشرشال والقلية ودلس بطابع عمراني خاص، فاستعمل الأندلسيون القرميد بدل السطوح المستوية التي كانت شائعة قبل حلولهم بالجزائر الغربية، كما عرفوا أيضا باستعمال الزخارف والمجصصات والتفنن في بتشكيلها وترخيمها، ولعل أحسن صورة لرقى هذا الفن على يد الأندلسيين نجدها مائلة للعيان بمساجد الجزائر وتلمسان، مثل الجامع الكبير (530هـ/1136م) وجامع سيدي بلحسن (696هـ/1296م) وجامع العباد (739هـ/1338م) هذه المساجد التي لا زالت محاربيها تشهد على تفوق المهندسين الأندلسيين في مجال فن الزخرفة والنقوش والكتابة<sup>(1)</sup>.

أما المنظر الخارجي للمنازل الأندلسية، فهي تتميز بطلاء أبيض ناصع بمادة الجير الذي اشتهرت به مدينة الجزائر التي عرفت (ببلد الجير)، ويستخدم القرميد الأجوف الأحمر أو المائل إلى الزرقة في تغطية المنازل، كما هي الحال في مدن البليدة وشرشال والقلية ودلس، وأدخل الأندلسيون بمدن الجزائر نمطا جديدا من العمارة، يعتمد أساسا على وجود ساحة عامة، ومنها تنطلق الشوارع المستقيمة.

ويرى الباحث التونسي سعداوي أنه من مميزات المدينة الموريسكية بالمغرب العربي تماثل الفضاءات العمرانية التالية:

تخطيط منظم للطرق والعمل على توسيعها بشكل مستقيم.

إقامة ساحة عامة في وسط المدينة بمثابة الصعب الذي تنطلق منه الشوارع.

(1) نفسه.

البعد الديني للنشاط العمراني من خلال بناء المساجد والمنارات وإقامة الحمامات والأسواق<sup>(1)</sup>.

وتوصل الباحث التونسي في بحثه في الفضاء العمراني الموريسكي إلى أن هذا النموذج يعمل على إقصاء النمط العمراني البدوي الذي عرفه المغاربة في البناء، وأن المدة التي شيد فيها الموريسكيون ما شيدوه تشبه في نهضتها الجديدة ما أنجزه الرومان سابقا في شمال إفريقيا<sup>(2)</sup>.

ومن الإنجازات العمرانية الأندلسية، شوارع مدينة البليدة القديمة<sup>(3)</sup>، وتأسيس الموريسكيين لحي الأبيار بالجزائر سنة 1610م<sup>(4)</sup>، ويرجع الفضل لإسهامات سيدي معزوز المري في تطور عمران مدينة مستغانم، بالإضافة إلى تشييد مدرسة مدينة مازونة من طرف الشيخ محمد بن الشريف البولداوي<sup>(5)</sup>. وتفنن الأندلسيون في تشييد الأسبلة، حيث أنجز الخشاش الأندلسي إحدى هذه الأسبلة بمدينة الجزائر<sup>(6)</sup> عام 1579م، كما ساهم هؤلاء الأندلسيون في إنشاء قناة جلب مياه عيون بير طريلية على عهد عرب أحمد باشا سنة 1573م، لتأمين مياه الشرب للجزء الشمالي من مدينة الجزائر المهددة آنذاك من طرف الأساطيل الإسبانية، ويبلغ طول هذه الساقية 1700م<sup>(7)</sup>.

(1) Ahmed, Saadaoui, Etablissement des moresques andalous au Maghreb, son impact sur l'urbanisation et la vue urbaine, D.E.A, Paris, 1984, pp.40-43.

(2) Ibid, p. 44.

(3) trumelet (c), Blida, récit selon la légende, la tradition de l'histoire, Alger, 1887, p.102.

(4) M. Ravillard, op. cit., T2, p. 146.

(5) Belhamissi, Mazona, une petite ville, une longue histoire, Alger, SNED 1982, p. 49.

(6) Haedo Topographie op. cit., p. 383.

(7) ناصر الدين، سعيدوني، "من المظاهر الأثرية المندثرة بفحص مدينة الجزائر، الشبكة المائية في العهد العثماني"، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 9، جامعة الجزائر، 1415هـ/1995م، ص72.



ومن أشهر مظاهر الشبكة المائية في العهد العثماني، إنجاز ساقية الحامة على يد أحد المهندسين الأندلسيين يعرف ببساطة موسى الذي أنهى العمل فيها عام 1610 - 1611م، في ولاية قوصة مصطفى باشا الذي حكم الجزائر في فترتين متقاربتين (1605 - 1607م و1610 - 1613م)، ومنبع الساقية يبعد عن مدينة الجزائر ب 4300م<sup>(1)</sup>.

ومما تجدر الإشارة إليه هو دور الأسبلة والمنشآت المائية بصفة عامة في المجتمعات العربية الإسلامية منذ عهدها الأولى حيث كانت إحدى مميزات حضارتنا، فهي تؤكد على المرامي السياسية والدينية والأهداف العمرانية والاجتماعية في انتصاب المرافق العمومية.

وتعتبر الأسبلة إحدى نماذج العمارة الأندلسية بالبلاد المغاربية وبالرغم من المساهمة الفعالة للأندلسيين في إيالة الجزائر طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر فما لبث أن ضعف التأثير الأندلسي مع مستهل القرن الثامن عشر، حيث اندمج العنصر الأندلسي مع بقية السكان في مطلع القرن التاسع عشر.

والملاحظ أنه ابتداء من أواسط القرن الثامن عشر، فإن الأخبار عن الجمالية الأندلسية تكاد تكون معدومة، فكتابات الرحالة الأوربيين أمثال فاننور دوبارادي (2) Venture de Paradis (1788-1790م) وبايصونال<sup>(3)</sup> (Peyssonnel)

(1) نفسه.

(2) Venture, de Paradis, Tunis et Alger au XVIIIe siècle, (présenté par Joseph Cuoq), Paris, ed, Sindbad, 1983, p. 292.

(3) J (A), Peyssonnel, Voyages dans les régences de Tunis d'Alger, présentation et notes (Lucette Valencia), Paris, ed la découverte, 1987, p. 267.

وديسفونتان<sup>(1)</sup> (Des fontaines)، وكذا تقارير القناصل الذين زاروا الجزائر أمثال الطبيب الإنجليزي شاو<sup>(2)</sup> (Shaw)، فهذه المصادر لم تعد تذكر الأندلسيين على أنهم عنصر متميز في المدن، فهم كغيرهم من سكان المناطق، يحملون اسم المور (Maures)، وأصبحوا يصفون الأندلسيين ضمن طبقة الحضر بإيالة الجزائر، ولم يبق العنصر الأندلسي محافظا على نسبه كما كان في السابق، ولم يعتز بأصوله، سواء تلك العائلات الأندلسية الثرية أو تلك العناصر التي تعاملت بقوة مع السلطة العثمانية.

ولم يستطع الموريسكيون بالجزائر الاتصال المباشر بإسبانيا خارج العلاقات الدبلوماسية والتجارية، بسبب تفوق الأساطيل الأوروبية على القوة البحرية الجزائرية، وظل الحكم العثماني ينظر إلى الموريسكيين المستقرين بالجزائر على أنهم لا يختلفون عن باقي سكان الإيالة<sup>(3)</sup>، وكان انكماش المدن بالإيالة والبليدة والقلعة وشرشال باديا بفعل انتشار الفقر وظهور الأوبئة وانعدام العناية الصحية، وانخفاض مستوى المعيشة، وتكرر حدوث المجاعات بمقاطعة الجزائر، وما نتج عن تقلص سكان المدن، كان سببا رئيسا في اندماج العائلات الأندلسية في بقية الطوائف.

ويرجع السبب في تلاشي العنصر الأندلسي بمدن إيالة الجزائر إلى ضعف نشاط أفراده في الميدان المالي، نتيجة مضايقة واستبداد الحكام الأتراك وقادة الجيش، وهذه العوامل حددت من إمكانيات التطور الاجتماعي والاتصال القائم على مبدأ العمل والمبادرة الفردية للجالية الأندلسية.

(1) R (L), Desfontaines, Fragments d'un voyage dans les régences d'Alger et de Tunis, 1785-1786, Paris, 1958.

(2) Thomas, Shaw (D), Voyage dans régence d'Alger, Traduction par S Mac Carthy, paris, 1834, p. 405

(3) M. Emerit, le voyage op. cit., p. 376.

بالإضافة إلى انغلاق الطائفة التركية على نفسها، ومنافسة جماعة الكراغلة الأهالي، وضغط القبائل المحلية والجماعات الريفية على الوسط الحضري بالمدن، حيث تركزت الجالية الأندلسية، وشيوع البداوة، كلها أمور عملت على طمس المساهمة الأندلسية في مختلف مجالات الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية<sup>(1)</sup>.

وعلى الرغم من أن الاسم أندلسي (Andalous) يحمله أفراد الجالية، فإن اختلاف مصادر الثورة، ونوعية النشاط الممارس، ومراحل ومكان الاستقرار، والتوزيع الجغرافي بالجزائر، كانت كلها عوامل جعلت عند الحديث عن الأندلسيين بالجزائر، لا يكتسي نفس البعد من التشابه والمضمون لدى التحدث عن العناصر الأندلسية بتونس أو المغرب الأقصى.

وعليه، فإن العنصر الأندلسي بإيالة الجزائر، وبالأخص في مقاطعة الجزائر، قد ساهم بنشاط اقتصادي اجتماعي وحضاري مميز، وكان له تأثير واضح خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين.

(1) سعيدوني، ناصر الدين، النظام المالي...، المرجع السابق، 1985، ص 226.

## القسم الثاني:

### حرية الاعتقاد عند الموريسكيين الأندلسيين بين ازدواجية مراقبة محاكم التفتيش والهجرة

لم تكن المحاولات الحثيثة للسلطات القشتالية النصرانية لتنصير مسلمي الأندلس قسراً، طيلة القرن 16م، كافية لتشفي غليل رجال الكنيسة و تضع حدا لجرائمهم ضد المسلمين الذين سقطت آخر دولهم بشبه الجزيرة الأيبيرية سنة 1492، و أجبروا جميعاً على اعتناق الكاثوليكية ابتداءً من سنة 1502م. فرغم الترسانة الرهيبة من القرارات والنقاط التنظيمية الهادفة لإدماج الأندلسيين في المجتمع النصراني القادم غزواً من الشمال، ورغم بطش محاكم التفتيش وإرهابها لمن حافظ على الإسلام ولو خفية، فقد بقيت التعاليم و المظاهر الإسلامية قائمة في المجتمع الأندلسي بشكل أرق سلطات الاحتلال الإسباني وجعل مشروع كثلكة إسبانيا غير قابل للتطبيق في ظل وجود أحفاد للمسلمين يرفضون رفضاً قاطعاً اعتقاد النصرانية، بل و يرفضون حتى التشبه بالنصارى في أبسط أمورهم كالقدارة و نبذ النظافة مثلاً.

استمر الوجود الإسلامي في شبه جزيرة إيبيريا على طول أكثر من تسعة قرون متتالية، وقد كان هذا الوجود مصحوباً بقوة سياسية عسكرية طوال القرون الثمانية الأولى (منذ فتح الأندلس سنة 92هـ/711م حتى سقوط غرناطة في سنة 897هـ/1492م)، ثم أصبح هذا الوجود متمثلاً في بقاء مجموعات كبيرة من المسلمين منتشرة في شتى أنحاء إسبانيا حاملة لتسميات مختلفة: المدجنين Mudejares أولاً ثم الموريسكيين Moriscos بعد ذلك<sup>(1)</sup>.

(1) حدد المؤرخ الإسباني ميكال دي إيبالزا وجود ثلاثة مراحل للإطار الديني والاجتماعي للأندلسيين من وجهة نظر القانون الإسباني، وتشمل المراحل التالية:  
- مرحلة المدجنين: قبل التعميد القسري (1502-1525).

ولم يكن لهؤلاء سلطة سياسية ترعى شؤونهم، وإنما ظلوا مجرد رعايا يخضعون للسلطة المسيحية، ويتعرضون لشتى ضروب الاضطهاد، حتى صدرت ضدهم في النهاية قوانين الطرد الجماعي فيما بين سنتي 1609-1614م، وحتى بعد هذا التاريخ بقيت مجموعات كبيرة من هؤلاء الموريسكيين متظاهرة بالتنصر وإن احتفظت بعقيدتها الإسلامية في الباطن، ويدل على ذلك ما احتفظت لنا به وثائق كثيرة لمحاكمات قام بها ديوان التفتيش Inquisicion ضد من اهتموا بالحفاظ على الإسلام وراء ستار من اصطناع المسيحية. وترجع آخر وثائق هذه المحاكمات إلى تاريخ سنة 1729<sup>(1)</sup>.

سقطت غرناطة (آخر قلاع المسلمين في إسبانيا) سنة 897 هـ/1492م، وكان ذلك نذيراً بسقوط صرح الأمة الأندلسية الديني والاجتماعي، وتبدد تراثها الفكري والأدبي، وكانت مأساة المسلمين هناك من أفظع مآسي التاريخ؛ حيث شهدت تلك الفترة أعمالاً بربرية وحشية ارتكبتها محاكم التحقيق (التفتيش) لتطهير إسبانيا من آثار الإسلام والمسلمين، وإبادة تراثهم الذي ازدهر في هذه البلاد زهاء ثمانية قرون من الزمان.

## 1 - محاكم التفتيش: المراقبة والتعذيب.

ظهرت فكرة تأسيس محاكم التفتيش<sup>(2)</sup> منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، حيث كان البابوات يعهدون إلى الأساقفة بمعاينة المارقين والملحدون، وتأسست هذه

= - المرحلة الموريسكية: اعتبر فيها المسلم متنصراً أو مسيحياً رديئاً، ونعتهم الكنيسة بالهراطقة (mauvais chrétiens).

- مرحلة الطرد النهائي (1609-1614)، وهي مرحلة عودة الأندلسيين إلى ديار الإسلام، للمزيد راجع: حنفي، هلايلي، الموريسكيون الأندلسيون في الجزائر خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة وهران، 1999، ص 15-17.

(1) لعبت محاكم التفتيش دور الحارس الأمين على المصالح الأسبانية وهي تلاحق الموريسكيين وتطاردهم أينما كانوا، وقد شبهها أحد الباحثين الأسبان، بأنها كانت تمارس بيداغوجية الخوف والقهر. انظر:

l'inquisition espagnol XV<sup>e</sup>-XIX<sup>e</sup> siècle, Paris, Hachette, 1979, pp.72-101: Bartolomé, Bennassar

(2) بلغت البيبليوغرافيا الخاصة بدراسة محاكم التفتيش سنة 1963 حوالي 1950 عنواناً.

الواووين في إسبانيا خلال عهد الملكين الكاثوليكين إيزابيلا وفردناندو (1474-1516)، فكانت أولى المحاكم في إشبيلية وقرطبة وجيان وبلد الوليد سنة 1482، والتي أبعث اليهود وفرضت عليهم التنصير، وفي سنة 1483 أصدر الفاتيكان براءة تقضي بإشياء مجلس أعلى لمحاكم التفتيش تشرف على شؤون الدين الكاثوليكي<sup>(1)</sup>.

وبفضل جهاز محاكم التفتيش أضحي الموريسكيون عبيدا بدون سيادة، وبدأت عمليات الاستيلاء الثقافي والتغريب بعد مصادرة أملاكهم، وتؤكد وثائق محاكم التفتيش أن روح المعاهدة التي بموجبها سقطت غرناطة (25 نوفمبر 1492/21 محرم 897هـ)، لم تحترم بنودها التي وقعت بين الطرفين، بل سرعان ما تنكر لها الطرف المسيحي، وبدأ المسؤولون السياسيون والدينيون الإسبان، وهم المنغلقون دينيا وحضاريا على أنفسهم، والمؤمنون بوجوب محاربة كل ما هو غير كاثوليكي، في عملية جديدة، تقضي ليس باسترداد ليس المدن فقط، بل أيضا باسترداد روحي وحضاري لكافة سكان المملكة.

وصف ريشليو - كاردينال فرنسا ورئيس وزرائها في عهد لويس الثالث عشر - عمل إسبانيا في إبادة العنصر العربي الإسلامي في الأندلس وطرد جميع من تبقى منهم فيها عامي 1609 و1614 بأنه أكثر ما عرفه التاريخ في جميع عصوره من أعمال القسوة والبربرية<sup>(2)</sup>.

ويصعب إعطاء تاريخ محدد لنشوء محاكم التفتيش، لكن فكرة التحقيق في العقائد الكنسية الرومانية ظهرت في وقت مبكر، فخلال المجلس الكنائسي الثالث في لتران Latran سنة 1179 أصدر البابا ألكسندر الثالث أمراً بمتابعة المارقين وحجز ممتلكاتهم<sup>(3)</sup>، ويرجع تأسيس محاكم التفتيش بإسبانيا إلى عهد الملكين الكاثوليكين، إذ تحصلا على براءة من الفاتيكان، فأنشئت محكمة التفتيش الأولى في إشبيلية سنة 1480.

(1) Guy, Testas et jean Testas, L'inquisition, que sais-je, Paris, PUF, 1964, p.7.

(2) أسعد، حومد: محنة العرب في الأندلس، ط2، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1988، ص5.

(3) Guy Testas et jean Testas, op.cit, p.7.

وبدأت مشروعها في قشتالة ضد اليهود المنتصرين، فطاردت ألوفا منهم. وبعد صدور قرار التعميد الإجباري ضد الأندلسيين سنة 1502 أصبحت محاكم التفتيش تتابع الموريسكيين بصرامة. ففي وصية لفرديناندو إلى شارل الخامس بنحده يأمره: « بضرورة اختيار محققين أكفاء ومخلصين للكاثوليكية وتضييق الخناق على طائفة محمد - عليه الصلاة والسلام<sup>(1)</sup> ».

لقد وزعت محاكم التفتيش قائمة مفصلة لكل المظاهر التي تنبئ عن اتباع ملة الإسلام من طرف الموريسكيين، وفتح باب الوشاية بهم من طرف العناصر الإسبانية، والجدير بالملاحظة أن أملاك الكنيسة ومحاكم التفتيش تأسست أساسا من الأحباس والإستيلاء غير الشرعي على أملاك الموريسكيين.

ولهذا الغرض وزعت محاكم التفتيش بيانا كاشفا عن مظاهر اتباع الدين الإسلامي للوشاية بأصحابها، وفيه:

((إذا تم الاحتفال بيوم الجمعة، وإذا احترموا تعاليم الإسلام الخمسة، وإذا تزوجوا على النهج المحمدي، وإذا غنوا الأغاني العربية، وإذا غسلوا موتاهم ولفوهم في كفن، وإذا سمعنا أن الدين الإسلامي هو الأحسن وأنه لا يوجد غيره للوصول إلى الجنة.))<sup>(2)</sup>.

وقد تسبب هذا البيان في محاكمة الآلاف من المتهمين الذي وقعوا في فخ الوشاية والحقد والانتقام، وحكم عليهم بالسجن والجلد والإسترقاق والتهجير، وكان من مظاهر مأساة الموريسكيين إجبارهم على تغيير أسمائهم العربية بأخرى مسيحية، وقد وجد هذا المظهر في سجلات محاكم التفتيش، بحيث اكتشف أمر

(1) شارل، لي، ص 125.

(2) لوي، كاردياك: الموريسكيون الأندلسيون، المجابهة الجدلية (1492-1640)، (تعريب وتقديم: عبد الجليل التميمي)، تونس-الجزائر: الدار التونسية للنشر والتوزيع، 1989، ص 114-115.

موريسكية واسمها لويزا الأزرق التي اختلط عليها أسماء زوجها وأبنائها السبعة على أن تناديهم بأسماء لاتينية أمام أعضاء محاكم التفتيش فأحرقت وهي حية<sup>(١)</sup>، كما أصدرت محكمة التفتيش بغرناطة في سنة 1526 البيان التالي: ((نطالب من الآن فصاعداً كل الجراحين والأطباء والأشخاص المرخص إلا لهم بالألا يقوموا بقطع مقدم عضو أي شخص دون إذن من الأسقف أو الحاكم، وكل من يخالف ذلك يعرض إلى النفي من المملكة<sup>(٢)</sup>).

لقد أقرت محاكم التفتيش قطع الموريسكيين عن جذورهم وهويتهم الثقافية وذلك بالقضاء على نظامهم الإجتماعي انطلاقاً من قمة الهرم، أي سحق الزعماء والمتضلعين في شؤون الإسلام. وبسبب تعنت الموريسكيين وتشبثهم بالهوية الإسلامية ورفضهم لكل محاولات الإدماج، هو الأمر الذي جعل المؤرخ الفرنسي برودال يصر على «أن المشكل الموريسكي هو صراع ديني، وبمعنى آخر صراع حضاري يصعب حله، فهو مدعوا لأن يستمر»<sup>(٣)</sup>.

وكان دور المرأة الموريسكية أساسياً في رفض اندماج مجتمعتها في المجموعة المسيحية، فقد لعبت دوراً مشرفاً في مواجهة محاكم التفتيش، ذلك أنها مثلت الحارس الأمين للقيم والتقاليد الاجتماعية منها والدينية. فإيزابال كالافار Isabel Calavara أحرقت لأنها لم تخبر عن والدتها وأختها، وهي في العشرين من عمرها، ومن النساء من شنقن أنفسهن أو رمين بأنفسهن في البئر، أو قطعن ألسنتهن كي لا يبحن بأسرار العائلة عند الاستنطاق والتعذيب<sup>(٤)</sup>، وفي البيت كانت المرأة

(1) أعمال المؤتمر العالمي للدراسات الموريسكية الأندلسية حول دين وهوية الموريسكيين الأندلسيين ومصادر وثائقهم، تقديم: عبد الجليل التميمي: تونس، 1984، ج1، ص59-69.

(2) نفسه، ج2، ص191.

(3) Fernand, Braudel, op.cit, T2, p.118.

(4) Jeanne Vidal, Quand on brûlait les morisques (1544-1621), Nîmes, 1986, p.165.



الموريسكية ضامنة للطعام الحلال وإحياء الأعياد الدينية ومتكفلة بتعليم أبنائها تعاليم الإسلام. وفي بعض الأحيان كانت تعقد اجتماعات سرية في بيوتها لتعليم القرآن وقواعد الإسلام مثلما فعلت خوانا لوبيز Juana Lopez<sup>(1)</sup>.

وبلغت نسبة الموريسكيين المقدمين لمحاكم التفتيش لغاية 1533 حوالي 3.3% . ويمكن تصنيف الأعمال المرتكبة من طرف الموريسكيين والمعاقب عليها من طرف محاكم التفتيش إلى ما يأتي: الوضوء - الطهارة - الصلاة - صوم رمضان - الاحتفال بيم الجمعة - عدم شرب الخمر - عدم أكل لحم الخنزير - قراءة كتب عربية - القول بأن الإسلام هو الأصلح - نختان الأطفال - الزواج على الطريقة الإسلامية<sup>(2)</sup>.

والمتبع لمسار سياسة محاكم التفتيش تجاه الجالية الإسلامية، يلاحظ تطبيق قوانين صارمة منها :

- منع الآباء من تلقين أبنائهم شعائر الإسلام.
- إجبار الصغار والكبار على حضور الحفلات الدينية في الكنائس.
- تحويل المساجد إلى كنائس.
- إنشاء مفتشية تدقق في أموال ومداحيل الموريسكيين وعقاراتهم.
- مصادرة الكتب<sup>(3)</sup>.

كما صدرت عدة إجراءات وتدابير تتعلق بمحاولة إدماج الطفل الموريسكي في المجتمع الإسباني، وهي محاولات لقطع صلة الأطفال الموريسكيين عن هويتهم الإسلامية، وتتمثل في الأساس من :

(1) لوي، كاردياك، المرجع السابق، ص 72.

(2) الأرشيف الإسباني المتعلق بملفات محاكم التفتيش بلنسية، مدريد، قضية رقم : 799.

(3) نفسه

• منع الموريسكيين من ختان أطفالهم.

• منع تسميتهم بأسماء عربية.

- تسليم الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ثلاث سنوات وخمسة عشر سنة إلى السلطات الإسبانية قصد تلقينهم مبادئ المسيحية<sup>(1)</sup>.

## 2- التقية أسلوب المواجهة الجديدة.

بعد عمليات التنصير القسري (1502)، لجأت الجماعات الموريسكية إلى تأسيس جمعيات سرية، واستمر الفقهاء في تأطير تنظيماتهم الاجتماعية، وكانت تهاجم التفتيش في مقابل ذلك ترفض وبشكل قاطع كل أشكال الحوار والجدال مع المسلمين. لذلك رخص الإسلام للمسلمين، بعدم إظهار الواجبات الدينية في ظروف قاهرة أو خشية مضرّة كبيرة بالشخص<sup>(2)</sup>.

اتبع الموريسكيون أسلوباً جديداً لمواجهة المد المسيحي يعتمد أساساً على مبدأ التقية، وقد عبر بهذا الصدد الشهاب الحجري الأندلسي: «وكانوا يعبدون دينين: دين النصرى جهراً ودين المسلمين في الخفاء (خفية)، وإذا ظهر على أحد شيء من عمل المسلمين، يحكم فيه الكفار الحكم القوي، يحرقون بعضهم كما شاهدت من عشرين سنة قبل خروجي منها»<sup>(3)</sup>.

(1) العروسي، الميزروري: الطفل الموريسكي وأزمة هوية، في أعمال المؤتمر العالمي السابع للدراسات الموريسكية الأندلسية، حول العائلة الموريسكية النساء والأطفال، تقديم عبد الجليل التميمي، تونس، 1997، ص 54.

(2) ناصر الدين، سعيدوني: من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999، ص ص 344-350.

(3) أحمد بن قاسم، الشهاب الحجري، المصدر السابق، ص 21.

لقد احتار الموريسكيون في بداية الأمر في الكيفية التي يمارسون بها الشعائر الدينية وسط المجتمع الإسباني الضاغط وتحت المراقبة الشديدة والمستمرة من طرف محاكم التفتيش، لهذا سمح فقهاء الإسلام في عدوة المغرب للموريسكيين بممارسة العبادات سرّاً، ففي سياق الرد الذي جاء به الفقيه الونشريسي عن تساؤلات سكان غرناطة الذين سألوه عن احتمال رجوعهم إلى أرض الإسلام أو البقاء في دار الكفر (إسبانيا) أباح الفقيه لهم العودة إلى دار الإسلام، وكأنه واجب ديني<sup>(1)</sup>، وقد استغرب لوي كاردياك من هذا التصريح وألح على أنه خطأ كبير صدر من فقيه بوزن الونشريسي<sup>(2)</sup>، وهذه الفتوى كانت وراء تصاعد حدة التوتر بين الفئتين المسلمة والمسيحية، خاصة فيما يتعلق باستعمال أسلوب التقية.

بقي الإسلام الخفي قائماً على أرض الأندلس يحمله جيل بعد جيل، على الرغم من وسائل الإرهاب والإقصاء إلى غاية سنة 1614، وهذا يعني أن سياسة محاكم التفتيش والكنيسة الرامية إلى تنصير الأندلسيين قد فشلت .

حاول الراهب الإسباني بדרو لونقا Pedro longas دراسة عقيدة الموريسكيين وتحليل أركان الإسلام مع محاولته تحديد الأطر العامة للإسلام الخفي المتبع في إسبانيا من خلال وثائق محاكم التفتيش، فوصل إلى تحديد أربع ركائز شملت مايلي

- الخط السياسي المتبع باستمرار على المنطقة من طرف الموريسكيين في المجال الديني ما بين 1492-1614 باستمرار على المنطقة، كما تؤكد ذلك المصادر التاريخية المعاصرة، ثم إن هذا التصرف من قبل الوهرانيين هو في الحقيقة موقف جديد، وهو

(1) نفسه.

(2) لوي، كاردياك، المرجع السابق، ص 93.

إلى حد قريب تصرف أندلسيي المغرب عندما استقروا بالرباط والقصبة<sup>(1)</sup>، مما  
 أدى إلى الميل إلى التأكيد بأنهم أندلسيون، أو على الأقل كانوا مسيرين من طرف  
 الأندلسيين، فهم في الحقيقة كونوا شبه جمهورية صغيرة مستقلة بالمنطقة تمارس جزءا  
 كبيرا من سيادتها، وهذا يعني بكل وضوح أن الجالية الأندلسية خلال هذه الفترة  
 كانت تشعر بشخصيتها المتميزة، وبالتالي فإن تصرفها كان ينبثق من واقعها بكل  
 مكوناته النفسية والخلقية.

- تمسك الموريسكيين بممارسة شعائر الإسلام رغم مراقبة محاكم التفتيش لهم.

- اختلاف وضعية الموريسكيين زمانا ومكانا .

- عدم فعالية الوسائل التي استعملتها محاكم التفتيش لتحويل الموريسكيين إلى  
 المسيحية<sup>(2)</sup>.

لقد اعتبر الموريسكيون مبدأ التقية موقفا سياسيا يواجهون به الظروف التاريخية  
 الصعبة، وهذا ما أشار إليه جل الباحثين. ومن أسباب استعمال التقية من طرف  
 الموريسكيين في إسبانيا خلال القرن السادس عشر ما يلي :

- تعنت محاكم التفتيش ورفضها لأسلوب الحوار والتسامح والتعايش.

- ازدياد الضغط الكنيسي على المسلمين بعد صدور مراسيم التعميد القسري

- نقض بنود اتفاقية تسليم غرناطة (1492) والتي تعهد فيها الملكان

الكاثوليكيان باحترام الحريات والدين الإسلامي.

(1) محمد، رزوق: "الجالية الأندلسية بالمغرب العربي: تونس والجزائر"، المجلة التاريخية المغربية، العدد  
 11-43، تونس، نوفمبر 1986، ص. 132.

(2) بدرو، لونقا، الحياة الدينية للموريسكيين الأندلسيين، (تعريب جمال عبد الرحمن، مراجعة عبد الجليل  
 التميمي)، تونس، 1993، ص 40-42.

- إطلاق الصفات القبيحة التي ألصقتها الكنيسة بالموريسكيين.
  - إجازة الإسلام لأتباعه بالتستر في أداء الواجبات الدينية عند الشعور بالخطر.
  - ظهور فتاوي تجيز استعمال التقية في الأندلس لأول مرة، حيث أصر الموريسكيون على استعمال التقية كأسلوب للدفاع عن الهوية الثقافية والدينية، وهذا انطلاقاً من التوجيه القرآني الذي يراعي اليسر والأمان للمسلم وعدم الإلقاء بالنفس إلى التهلكة. ولهذا استعمل الموريسكيون الأساليب التالية :
  - التحايل على رجال الكنيسة وعيون محاكم التفتيش.
  - رفض العمل بالشعائر المسيحية جملة وتفصيلاً.
  - التمسك بالإسلام دينا وعقيدة.
- إن الالتجاء المستمر للتقية كان يمثل بالنسبة للموريسكيين خطراً، لا شك فيه، فتكرار حركات غريبة على الديانة المسيحية يجعل أعين محاكم التفتيش تطارد بلا هوادة الموريسكيين. لقد حافظ الموريسكيون وإلى اللحظات الأخيرة على فقهاءهم وتنظيماتهم الدينية، وقد توبع الموريسكيون من طرف محاكم التفتيش على الصوم والوضوء والصلاة، والصدقة والحج، كما امتنع الموريسكيون بصفة عامة عن آكل لحم الخنزير وشرب الخمر رغم الضغوط الكبيرة التي كانت تمارس ضدهم.

بعد قمع السلطات القشتالية لثورة أندلسي غرناطة سنة 1570م، التي تزعمها محمد ابن أمية ثم ابن عبو، تمّ توزيع مسلمي هذه المملكة على باقي الممالك الإسبانية رغبة منهم في كسر شوكتهم وتفريقهم للفت من قوتهم، عندها اعتقدت الكنيسة والدولة أن مشكلة إسلام الأندلسيين في طريقها إلى الحل. لكن خيبتهم كانت كبيرة حيث جاءت النتائج عكسية، فبعد بضع سنين على نفي الغرناطين ظهر أن هذا النفي ساعد المسلمين بمناطق أخرى على التثبيت بالإسلام وقوى عزمهم على المقاومة؛ فاستحكمت اليأس في نفوس رجال الدولة والكنيسة من تنصير المسلمين قبل أن ييأس الأندلسيون أنفسهم من تخلص أنفسهم من الاستعباد النصراني القشتالي الذي وقعوا فيه، ومن مساندة إخوانهم المسلمين من وراء البحار. فبعد إرغام الأندلسيين على التنصر، وحرق كتبهم، ومسح ثقافتهم، ومصادرة أموالهم، واستعباد أبنائهم ونسائهم، وقتل رجالهم وقمع ثوراتهم، ومتابعتهم لأتفه الأسباب، ومنعهم من لغتهم العربية وعاداتهم وأسمائهم، ومتابعة تشريدهم وتشيتهم، وحرق زعمائهم. لم تصل الكنيسة الكاثوليكية ولا الدولة الإسبانية إلى النتيجة المتبغاة منهم. فانهزمت الكنيسة أمام تصميمهم على الثبات على الإسلام، وارتعبت الدولة منهم على ضعفهم وقلة حيلتهم وهوانهم على الناس كلما انشفت أو تخيلت مؤامرة ضدها من طرفهم «اطمأنت الدولة الإسبانية من وقوع ثورات جديدة في مملكة غرناطة بعد أن طردت عددا كبيرا من الغرناطين سنة 1571 وشتتهم على أنحاء قشتالة، فوجهت اهتمامها إلى مسلمي مملكتي بلنسية واراغون القديمة، تهدد تجمعاتهم بالطرد والتشيت»<sup>(1)</sup>.

هذا اليأس من تنصير المسلمين أدى إلى التفكير في حلول أخرى تُخرج إسبانيا من هذا المأزق. فأخذت الدولة والكنيسة في جمع الاقتراحات التي انقسمت إلى عدة حلول:

(1) Caro Baroja - Julio - Los Moriscos del reino de Granada - Madrid - 1976 - p 225.

- **الحل الأول:** اقترحه الراهب فرانسيسكو دي رباس سنة 1582، وألجأه كوتريس سنة 1588م، ويعتمد على تجميع الأندلسيين الذين يرفضون النصرانية ويختارون الإسلام في أحياء خاصة بهم، على أن يُضيق عليهم تضييقاً شديداً.
- **الحل الثاني:** اقترحه الراهب تريخوس سنة 1573 (و هو من أب نصراني وأندلسية. حمته عائلة أمه من بطش النصراني إبان ثورة غرناطة الكبرى)، وهذا الاقتراح هو اختطاف كل الأطفال الأندلسيين الذين لا تتعدى أعمارهم 11 سنوات وتسليمهم للنصارى القدامى لتربيتهم على دين النصرانية، ومنعهم من الزواج حتى لا يتناسلوا، وبهذا ينقرضون مع الأيام.
- **الحل الثالث:** اقترحه المطران ربيرا، ويهدف إلى القضاء على الأندلسيين بالاسترقاق، وأخذ كل سنة بضعة آلاف منهم للعمل في السفن والمناجم حينئذٍ إفناؤهم.
- **الحل الرابع:** اقترحه بعض وزراء الملك فيليب الثاني، يقوم على جمع الأندلسيين وحملهم على السفن ثم إغراقهم في عرض البحر.
- **الحل الخامس:** اقترحه مارتين دي سالبتيرو، أسقف سقوربة بمملكة بلنسية، يقوم على إخفاء كل الذكور الأندلسيين، كباراً وصغاراً، وبهذا ينقرضون بسرعة.
- **الحل السادس:** اقترحه أيضا ألونسو كوتريس، ويقوم كذلك بإفناء الإخفاء، لكن لتحديد نسلهم فقط.
- **الحل السابع:** قتل الأندلسيين دفعة واحدة، أو قتل البالغين منهم واستئصال الباقيين وبيعهم.

الحل الثامن: اقترحه بدرو بونسي دي ليون، الذي قضى عشرين عاماً في السجن، ويعتمد على إرسال شباب الأندلسيين الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و25 عاماً للعمل في السفن، وبذلك يقل نسلهم وينقرضون مع الوقت.

الحل التاسع: وهو الذي لاقى قبول كبار رجال الدولة والكنيسة، ويقوم على طرد الأندلسيين خارج إسبانيا، وهذا الحل هو الذي سيتم تطبيقه سنة 1609م في أراضي مملكة بلنسية ثم على باقي المناطق خلال السنوات الخمس التي تلتها. وقد كان لثالوث الشر والحقد خوان دي ريبيرا، دوق دو ليرما ونخايمي بليدا من أسباب إقناع الساسة، النبلاء ورجال الكنيسة بحسنات طرد الأندلسيين.

تمت الأحداث بسرعة في اتجاه طرد المسلمين:

في 30 يناير 1608: اجتمع مجلس الدولة القشتالي بكامل أفرادهِ ووافق على طرد الأندلسيين من الأراضي الإسبانية. وبقي هذا الاتفاق سرا حتى طرد الأندلسيون.

في 4 أبريل 1609م: إصدار مجلس الدولة قرار الطرد (للمحافظة على أمن البلاد). وقرر مجلس الدولة الابتداء بطرد أندلسيي مملكة بلنسية على أن يبقى طرد الأندلسيين سرا إلى حين.

في 11 شتنبر 1609م: توقيع الملك فيليب الثالث لقرار طرد أندلسيي بلنسية.

في 17 شتنبر 1609م: السفن الإيطالية ترسو في موانئ مملكة بلنسية، وتولت

الحراسة العسكرية حراسة حدودها مع أراغون القديمة.<sup>(1)</sup>

(1) في عام 1598م أصبح فيليب الثالث ملكاً على إسبانيا، وكانت الأقلية الموريسكية تثير المخاوف واعتبرت تهدياً للإندماج، فأصبحت أقلية مهمشة ومطاردة. وفي عام 1609 وقعت إسبانيا هدنة مع هولندا مدتها 12 سنة.



- في 21 شتنبر 1609م: اجتمع الملك مع أعضاء مجلس الدولة والنبلاء ودار رجال الدولة.

- في 22 سبتمبر 1609م: الإعلان الرسمي لقرار طرد الأندلسيين من مملكة بلنسية.

بعض الأندلسيين رفضوا القرار وثاروا في بعض مناطق بلنسية، لكنهم تعرّضوا للتقتيل.

وفي 12 يناير 1612 صدر قرار الطرد الخاص بمنطقة إقليم الأندلس (حسب التقسيم السياسي الحالي لإسبانيا) ومرسية عدا بلدة أورناتشوسو في 17 أبريل 1610م صدر قرار طرد أندلسيي قطلونية. وفي 29 ماي 1610م صدر قرار طرد أندلسيي أراغون القديمة. وسنة 1614 صدر قرار بطرد أندلسيي وادي ريكوتي بمرسية. هكذا أسدل الستار رسميا - أو هكذا أريد له - على الوجود الإسلامي بالأندلس، وسطّرت الكنيسة الكاثوليكية بهذا العمل العنصري صفحة جديدة من صفحات جرائمها بحق المخالف لها، وأسست سلطة الاحتلال القشتالي أول دولة عنصرية في التاريخ، كما وصفها الأندلسي المعاصر رودريغو دي زياس. أمّا الأندلسيون، فرغم الفظائع والجرائم التي تعرّضوا لها أثناء الطرد، فقد اعتبروا ذلك فرجا من الله وجزاءا لهم على ثباتهم على الإسلام وتشبّثهم به! قال الشهاب الحجري الأندلسي: «وبعد ذلك باثني عشرة سنة (1018هجرية) فرج الله تعالى على مسلمي الأندلس الذين كانوا فيها تحت قهر سلطان البلاد المسمى بيفلب الثالث»<sup>(1)</sup> وقال ابن عبد الرفيق: «ولا يخفى أن هذا أمر عظيم ومحال عادة، لما

= سنة فترغت للمشكلة الموريسكية ، فصدر قرار الطرد الذي استمر ما بين سنوات 1609-1614. ليصل عدد المهجرين حوالي 300 ألف نسمة.

للمزيد راجع: أنطونيو دومينغير هورتز وبرنارد بنثت، الموريسكيون: حياة ومأساة أقلية، (ترجمة: عبد العال صالح طه ومحیی الدين الأصفى)، ط1، قطر: دار الأشراف، 1988، ص 219-229.

(1) الشهاب، الحجري، ناصر الدين على القوم الكافرين (تحقيق: محمد رزوق)، الدار البيضاء، 1987، ص 2.

لما فيه معه من الشدة والضيق في الدين والنفس والمال. فسبحان رب السماوات والأرض الذي إذا أراد أمراً قال له كن فيكون؛ فيا لها من أعجوبة ما أعظمها، ومن فضيلة ما أشرفها»<sup>(1)</sup>.

بينما رفض أندلسيون آخرون الخروج وحاولوا الاختفاء قدر ما أمكن. وقد كان للفقهاء دور عظيم، فقد شرحوا للعوام أن هذا الطرد فرج لهم من عند الله، وإنقاذ لعقيدتهم، ونهوه عن المقاومة التي لا فائدة منها، ونصحوهم بالصبر.

### 3- موقف فقهاء الإسلام من الهجرة الأندلسية.

تردد الأندلسيون في مسألة الهجرة أو البقاء في الأندلس، فعرضوا أمرهم على علماء المغرب قصد إيجاد حلول لمحتهم، ومما لاشك فيه فإن مسألة الهجرة كانت أعسر على اجتهاد فقهاء ذلك الزمان، وهي مشكلة بقاء جماعات إسلامية منقطعة تماماً عن بلاد الإسلام داخل بلاد النصرانية، ولا بد من أن نقرر بأن المأساة لم تبدأ منذ سقوط غرناطة، وإنما يوم خطأ ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون خطوته الحاسمة التي قررت مصير الأندلس الإسلامي باستيلائه على إمارة طليطلة سنة 478هـ/1085م، إن الاستيلاء على طليطلة تم بصورة سلمية نتيجة خيانة أميرها العاجز الذي ابتلى به المسلمون في طليطلة وهو عبد القادر بن ذي النون، ولم يقتصر الأمر على سقوط طليطلة بل سقطت معها توابعها، ولقد ذكر ابن الكردبوس في كتابه الاكتفاء أنه سقط بسقوطها ثمانون منبراً<sup>(2)</sup>.

(1) ابن عبد الرفيق، محمد، الأنوار النبوية، في آباء خير البرية، مخطوط بالخزانة الحسنية، الرباط، رقم 2648، ص 336.

(2) أحمد، الوئشريسبي: أسنى المتاجر في بيان من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر،

(تحقيق حسين مؤنس)، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد 5، العدد 1-2، 1957، ص :

## أ - فتوى الونشريسي الأولى: (1)

كتب الونشريسي الفتوى الأولى قبل سقوط غرناطة 1492، وذلك سنة 1484م، في شأن أندلسيين هاجروا إلى المغرب، ولم ترق لهم ظروف العيش، ((ندموا على الهجرة بعد حلولهم بدار الإسلام وسخطوا وزعموا أنهم وجدوا الحال عليهم ضيقة وأنهم لم يجدوا بدار الإسلام التي هي دار المغرب. بالنسبة إلى التسبب في طلب أنواع المعاش)) (2) وصرح آخرون منهم: ((إن جاء صاحب قشتالة إلى هذه النواحي نسير إليه فنطلب منه أن يردنا إلى هناك)).

لقد رد الونشريسي على هذه المزاعم بقوله: ((إن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة. ولا تسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية (الملك) لعنه الله على معاقلهم وبلادهم إلا تصور العجز بكل وجه وحال الوطن والمال، فإن ذلك كله ملغى في نظر الشرع، قال تعالى: ﴿إِلَّا سَبِيلًا يَهْتَدُونَ وَلَا حِيلَةً يَسْتَطِيعُونَ لَا وَالْوَالِدَانَ وَالنِّسَاءَ الرَّجَالَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ (3) وأما المستطيع بأي وجه كان وبأية حيلة تمكنت، فهو معذور وظالم لنفسه إن أقام (4).

(1) أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي: ولد حوالي 834هـ/1430م، عرف بفصاحة لسانه وبراعة قلمه وشجاعته الأدبية، هاجر من فاس إلى تلمسان بسبب مجاهرته بالحق تقلد بفاس الفتوى والتدريس، ألف العديد من التصانيف. يعتبر كتابه المعيار من أبر كتب الفقه المالكي. للمزيد حول حياته، راجع: أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998، ج1، ص: 123-132. وأيضا: ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999، ص ص 277-289.

(2) أحمد، الونشريسي: المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب، إشراف: محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي 1981، ج2، ص119.

(3) نفسه، ج2، ص 121-122. سورة النساء: 98-99.

(4) نفسه.

ان الونشريسي صارما حينما صرح في حقهم: «ماذكر عن هؤلاء المهاجرين من قبيح الكلام وسب دار الإسلام وتمني الرجوع إلى دار الشرك والأصنام، وغير ذلك من الفواحش المنكرة، التي لا تصدر إلا من اللئام، يوجب لهم خزي الدنيا والآخرة ويطرهم أسوأ المنازل، والواجب على من مكنه الله في الأرض وسيره اليسرى، أن يقبض على هؤلاء وأن يرهقهم العقوبة الشديدة والتكيل المبرح ضرباً وسجناً، حتى لا يتعدوا حدود الله، لأن فتنة هؤلاء أشد ضرراً من فتنة الجوع والخوف ونهب الأنفس والأموال»<sup>(1)</sup>.

هل كان على الموريسكيين أن يعلنوا تنصرهم ويخفوا إسلامهم؟ فالنص الذي أجاب به عن تساؤلات الموريسكيين، قد جعل الونشريسي يستنج أن هجرة هؤلاء كانت للدنيا وليست للدين، بينما الهجرة من أرض الكفر إلى دار الإسلام واجب شرعي.

لقد انتقد المؤرخ المصري حسين مؤنس هذه الفتوى قائلاً: «فهذا الشيخ الذي تصدى لإبداء الرأي في مصير المسلمين المتخلفين في الأندلس، لم يكلف نفسه، عندما جلس يكتب هذه الفتوى عناء البحث عن أحوال من يفتي فيهم، وتقضي أخبارهم، والتعرف على الأسباب التي تضطرهم إلى البقاء في الأندلس وتحول بينهم وبين الهجرة إلى المغرب. ولم يذكر أنهم أولاً وقبل كل شيء بشر ضعفاء عسر عليهم مغادرة الأوطان ومعاهد الحياة الطويلة التي تقلب فيها الآباء والأجداد قروناً متطاولة...»<sup>(2)</sup>.

(1) حسين مؤنس: المقال السابق، ص 132.

(2) نفسه، ص 133-134.

ويضيف حسين مؤنس في موضع آخر: «وقد فاته (الونشريسي) أن ضعاف الناس أكثر من الأقوياء، وأن العاجزين عن الرحلة والهجرة هم الغالبية العظمى، لقد كان لفتوى الونشريسي وأمثالها أسوأ الأثر على مصير الجماعات الإسلامية الباقية في الأندلس، فقد حكم عليها بالكفر وأنها مقيمة في الجحيم الذي كانت تعانيه»<sup>(1)</sup>.

بالرغم من انتقادات حسين مؤنس للفقهاء واتهامه بقصر النظر في إصدار حكم قاسى على مسلمي الأندلس في مثل هذه الظروف الحرجة، وأنه لم يكن في موقع تقصي الحقائق لإصدار حكم شرعي بخصوص هجرة الأندلسيين، فإن بلاد الأندلس بعد سقوط غرناطة وصدور قرارات التعميد الإجباري أصبحت أرض كفر وحرب، وأصبح من الصعوبة بمكان على المسلمين هناك تأدية شعائر الإسلام بكل حرية.

#### ب - الفتوى الثانية للونشريسي:

وجه الونشريسي الفتوى الثانية سنة 901هـ/1495م، في شأن أحد الأندلسيين الذي أراد البقاء في الأندلس لمؤازرة إخوانه المسلمين لدى السلطات الأسبانية: «يتكلم عنهم مع حكام النصارى فيما يتعرض لهم من نوائب الدهر، ويخاصم عنهم، ويخلص كثيراً منهم من ورطات عظيمة بحيث يعبر عن تعاطي ذلك عنهم، وبحيث يلحقهم في فقدته ضرر كبير إن فقدوه»<sup>(2)</sup> وكان رفض الونشريسي في هذه المسألة واضحاً: «لأن مساكنة الكفار من غير أهل الذمة لا تجوز ولا تباح، لما تنتجه من الأدناس والأوصار، والمفاسد الدينية والدينية»<sup>(3)</sup>.

(1) نفسه، ص 144-147.

(2) نفسه، ج 2، ص 137.

(3) نفسه، ج 2، ص 138.

لقد بين الونشريسي في فتواه صعوبة القيام بشعائر الإسلام في وسط البيئة المسيحية المعادية لكل ما هو مسلم قائلاً: «فكيف يتوقف مشرع أو يشك متورع في تحريم هذه الإقامة مع استصحابها لمخالفة جميع القواعد الإسلامية الشريفة<sup>(1)</sup>».

من خلال هذه النوازل يتضح أن الونشريسي أكد على مبدأ وجوب الهجرة لارتباطها بالعقيدة الإسلامية والحفاظ عليها من الشرك والتضليل والردة بفعل الضغوطا والتنكيل المسلط من قبل محاكم التفتيش زمنئذ. والظاهر أن الفقيه لم يتصور حدوث هذه الظاهرة الدفاعية في وسط بيئة مسيحية معادية، لم يسبق وأن أبدى فيها فقهاء الإسلام برأيهم.

عندما ندقق في حكم الهجرة الصادر عن الونشريسي نصرح بأن دخول بعض المسلمين تحت حكم النصارى أمر لم يعرفه المسلمون إلا في القرن الخامس الهجري بعد استيلاء النرمانيين على صقلية، لذلك لم يتعرض جمهور الفقهاء لمسألة الهجرة من قبيل هذه المشكلة. والواقع أن الواقع أن هذا الإهمال عرفه علماء المشرق والمغرب معاً، ففي أثناء الصراع الطويل بين الإسلام والنصرانية لم يخل الأمر بين حين وحين من أن تقع بعض بلاد الإسلام في أيدي غير المسلمين<sup>(2)</sup>.

(1) نفسه، ج2، ص 139.

(2) في أيام المهدي العباسي استولى الروم على الحديثة وحكموها أعواماً حتى استردها المسلمون أيام الهادي.

للمزيد

راجع: حسين، مؤنس: المقال السابق، ص 134-137.

### ج - فتوى المغراوي (1).

بعث مفتي وهران أبو جمعة المغراوي، فتواه إلى مسلمي غرناطة الذين فرض عليهم التنصير الإجباري ومنعوا من تأدية شعائر الإسلام، حيث شملت فتواه خطاباً شاملاً لقواعد الإسلام، وفيه تشجيع صريح للموريسكيين على التمسك بأركان الإسلام، والعمل بها:

«الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً، إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته. وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثوي سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق، وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلفظ بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً بعد السلام عليكم من كاتبه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى عفوهم ومزيده، عبيد الله تعالى أحمد ابن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني. كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلاً من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار ومؤكداً عليكم في ملازمة دين الإسلام، أمرين به من بلغ من أولادكم، إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس.» (2).

وعليه فإن المغراوي دعا الموريسكيين إلى استعمال الإسلام الخفي في إطار مبدأ التقية، لأن الله عز وجل سمح للمؤمنين بذلك، وقدم المغراوي حلاً مناسباً تساعد

(1) نشر نص هذه الفتوى في الدراسات التالية : محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط4، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1987، ص 342-344. وأيضاً، بدرو، لونها: المرجع السابق، ص 198.

(2) محمد عبد الله، عنان، المرجع السابق، ص 343.



الموريسكيين على ممارسة أر دان الإسلام خفية من النصارى: «وإن ذكر الله بين الغافلين كالحى بين الموتى، فاعلموا أن الأصنام خشب منجور وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع، وإن الملك ملك الله، ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله، فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عوماً في البحور، وإن منعوكم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتميم ولو مسحاً بالأيدي على الحيطان، فإن لم يمكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء، والصعيد، إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتمم به، فاقصدوه بالإيماء، (نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله صلى الله عليه وسلم فأتوا منه ما استطعتم) وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية وأنوا صلاتكم المشروعة وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله، وإن كان لغير القبلة تسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وأن أجبروكم على شرب خمر، فاشربوه لا بنية استعماله، وإن كلفوكم أكل خنزير فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه. وكذا إن أكرهوكم على محرّم، وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل الكتاب، وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم ولو وجدتم قوة لغيرتموه، وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم، ثم ليس عليكم إلا رؤوس أموالكم وتصدقوا بالباقي إن تبتم لله تعالى وإن أكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التوبة والإلغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك، وإن قالوا اشتموا محمداً فإنهم يقولون له مُمدّ، فاشتموا مُمدّاً، ناوين أنه الشيطان، أو مُمدّ اليهود، فكثير بهم اسمه وإن قالوا عيسى توفي بالصلب فانوو من الوفية والكمال والتشريف من هذه وإماتته وصلبه، وإنشاد



ذكره إظهار الشاء عليه بين الناس، وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون به. وإنا أسأل الله أن يدل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله من غير محنة ولا وجلة، بل بصدمة الترك الكرام، ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به، ولا بد من جوابكم، والسلام عليكم جميعاً، بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسعمائة، عرف الله خيره يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى»<sup>(1)</sup>.

أثارت المؤرخة السورية ليلي الصباغ في بحثها عن فحوى فتوى المغراوي إلى وجود ثلاث نقاط هامة :

I - لاحظت وجود عدة ثغرات في الفتوى التي حللت وحققت أربع مرات عند ترجمتها إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية، فجعل التعبيرات المستعملة لم توضح مدى عمق تمسك الموريسكيين بدينهم.

2 - لم يقارن الباحثون بدقة بين النسخ الثلاث للفتوى، ولم يدركوا بأن هناك اختلافات بين النسخة العربية ونسختي الأخمياادو<sup>(2)</sup>.

3 - وجود هفوات في الترجمة التي تعرضت لها الفتوى<sup>(3)</sup>.

(1) نفسه .

(2) ترك الموريسكيون تراثاً أدبياً يسمى بالأدب الأخمياادو، عمد مؤلفوه إلى تسجيله بلغة خاصة وجديدة تعد من ابتكار الموريسكيين، واعتمد على الحرف العربي كإطار خارجي عوض الحرف اللاتيني، وتضمنت الكتابات الأخمياادية ما يلي :

- كتابات جدلية دينية.

- كتابات فقهية.

للمزيد راجع: حنفي، هلايلي : الحرف العربي تعبير مقدس في النصوص الأخمياادية الموريسكية، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد الأول، جامعة وهران، جوان 2003، ص 64-75.

(3) Leila .Sabbagh ، «La religion des morisques entre deux fatwas» ، in ، les morisques PP. 45-50. CNRS ، Paris ، 1983 ، ، et leurs temps

أما جاءت فتوى المغراوي مدعمة لبقاء الأندلسيين الضعاف بأرضهم  
والسك بدينهم على الطريقة الموريسكية، والمتمثلة في اعتناق المسيحية ظاهراً  
والإسلام باطناً، فأبطلان الإسلام في القلب قد لا يتفق إلى ما ذهب إليه الونشريسي  
في فتاويه الصادرة بخصوص مسألة الهجرة.

والحقيقة أن المغراوي تساهل مع مسلمي الأندلس انتظاراً للفرج، وقد أوضح  
في فتواه أن المسلمين يعيشون غرباء في الأندلس بعد سقوط غرناطة<sup>(1)</sup>.

يلاحظ في آخر الوثيقة (رسالة المغراوي) أن الآمال كانت معلقة آنذاك على  
الدولة العثمانية في تخلص الأندلس وإعادة فتحها، وفي الوقت نفسه كان مسلمو  
الأندلس ينتظرون الخلاص من العثمانيين الذين كانت محاولاتهم عديدة بفضل  
جهود البحرية الجزائرية منذ عهد خير الدين بربروسا إلى البيلرباي قليج علي باشا.

وعليه فإننا نلاحظ عدم تعارض جوهر كلا الفتوتين من حيث المبدأ الفقهي،  
بمجرد جاءت فتوى المغراوي مكتملة ومنتمة لفتوى الونشريسي، فالمغراوي قدم  
الحلول المناسبة لمسلمي الأندلس للتكيف مع الأوضاع الراهنة، بينما أباح  
الونشريسي للمستضعفين البقاء المؤقت، واستعمال التقية (الإسلام الخفي).

إن المساجد السرية والفقهاء كانت بمثابة أعمدة الحياة الدينية في المجتمع  
الموريسكي، حيث أصبحت العبادات تمارس سرّاً داخل البيوت، كان الموريسكي

(1) الغرباء في قاموس اللغة تعني الأبعد، وتعني المنفيين الذين يشعرون بالغربة في مجتمع مغاير لهم في الحياة  
اليومية والدينية، وهذا الوصف ينطبق على الأندلسيين بعد سقوط غرناطة، أما تسمية الغرباء فأطلقها  
الموريسكيون على أنفسهم أثناء نداء الاستغاثة الموجه إلى السلطان العثماني سليمان القانوني (1520-1566) في  
عام 1541 كما أطلقها عليهم الفقيه المغراوي تنزيهاً لهم عن اسم الموريسكيين. للمزيد راجع: حنيفي، هلايلي  
" الأندلسيون في فكر أحمد المقري: أزهار الرياض ونفح الطيب نموذجاً"، مجلة الأمير عبد القادر للعلوم  
الإسلامية، العدد 16، جوان 2004، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ص ص 107-123.

متمسكا بصلاته إلى أقصى حد ممكن، مارسها وهو في السجن وهو تحت التعذيب، وهو ذاهب إلى الحرق، وكثيراً ما اكتشف من طرف جواسيس محاكم التفتيش وهو يمارس الصلاة.

بعد سقوط غرناطة على يد الملكين الكاثوليكين عام 1492م بدأت مرحلة من الحياة المليئة بالمصاعب والمتاعب بالنسبة للمسلمين، فتحول التسامح إلى مواقف عدائية وعنصرية وقد ظهرت تلك المعاملة بصورة قوانين فرضت الارتداد الإجباري عليهم، وحكمت على غير الراغبين بالطرد من الأندلس، وخلال قرن من الزمان تظاهر قسم كبير منهم بالنصرانية وسموا بالموريسكيين، وكانوا بالسر يمارسون الشعائر الإسلامية، وكانوا أبطال كفاح أليم من أجل الحفاظ على هويتهم ضد سياسة الاحتواء من قبل المملكة الإسبانية ومحاكم التفتيش.

إن معرفة تاريخ الأندلس وفهم أحداثه وتفاعلاتها ومسبباتها بالإضافة إلى دراسة الآثار التاريخية التي تظهر كشواهد ملموسة على مرور الزمن، يؤدي ذلك إلى تكوين رؤية واضحة لجوهر حضارتنا الإسلامية عبر عصور ازدهارها، كما يفضح حقيقة الحضارة الغربية القائمة على التسلط والقهر والإكراه، والتي كان من أوائل ضحاياها شعب الأندلس المسلم، الشعب الذي استمدت من جهوده عناصر الحضارة عندما أنارت الأندلس أرجاء أوروبا المظلمة، ولا يزال الغرب منذ تلك العصور وحتى اليوم يصور المسلمين والإسلام بأبشع الصور ويشن عليهم الحرب بمختلف الأساليب.

#### 4- الجزائر الملف الموريسكي الأندلسي.

كانت الخريطة السياسية لشبه الجزيرة الإيبيرية في القرن الخامس عشر الميلادي (القرن التاسع الهجري)، تتألف من عدة كيانات سياسية، تمثلت في مملكة قشتالة، ومملكة الأراغون، ومملكة النصار، ومملكة البرتغال، وهي ممالك مسيحية، وإلى جانبها مملكة غرناطة الإسلامية.

مع العلم، أن هذه الممالك المسيحية كانت ترغب في التوسع والانتشار خارج حدودها من شبه الجزيرة الإيبيرية، وذلك ما نراه في سعي البرتغاليين إلى اكتشاف المحيط الأطلسي، والسيطرة على السواحل الغربية لإفريقيا، وتمكن الأراغون من بسط سيطرته على جزء كبير من غرب البحر الأبيض المتوسط، والسيطرة على أغلب جزره، وأما مملكة النصار الصغيرة، فلم يكن لها شأن يذكر، كما أن قشتالة، كانت تمزقها عدة حروب داخلية.

وفي سنة 1469م (874هـ)، تزوج فرديناند ملك الأراغون ايزابيلا، ملكة قشتالة، وبهذا الزواج توحدت المملكتان في الأهداف والمسعى، إذ توسعتا داخل المحيط الإسباني وذلك بالقضاء على مملكة غرناطة الإسلامية، وخارجه في البحر الأبيض المتوسط ببسط نفوذها لي ممراته.

#### I- ظهور الوحدة الإسبانية وبداية المأساة الموريسكية.

إن زواج فرديناند وايزابيلا قد جمع بين مملكتين من الممالك الثلاث<sup>(1)</sup> (قشتالة، الأراغون، البرتغال)، التي صارت موجودة تحت سلطة تكاد تكون مشتركة، رغم أنه لم يؤد ذلك إلى توحيد مملكتي قشتالة وأراغون في دولة واحدة، لأن مملكة

(1) كانت الملكة الثالثة هي البرتغال، وقد استغرق قرار ايزابيلا، في هل تتزوج من أسرة الأراغون أو من أسرة البرتغال؟ وكان قرارها الأخير مصيريا بالنسبة للمالك الثالث. وكان على ايزابيلا أن تختار ما بين الزواج الأراغوني والبرتغالي، ما بين الأطلسي والمتوسطي، ومن هنا اختتم مشروع الوحدة الإسبانية.

أرغوان استمرت في تكريس اهتمامها على جزر البحر الأبيض المتوسط؛ وعلى إيطاليا. التي كانت محكومة من قبل دبلوماسيين وسياسيين ذوي اتجاه تجاري، بينما كانت لمملكة قشتالة - التي يسيطر عليها نبلاء عسكريون - نظرة سياسية أكثر عدوانية، ولم تكد تسقط غرناطة - آخر مملكة في شبه الجزيرة - حتى مد رجال قشتالة عيونهم عبر مضيق جبل طارق إلى ميادين جديدة للنشاط العسكري. وقد أرسلت إيزابيلا جاسوسا ليتعرف على ما يجري في شمال إفريقيا فكان تقريره كالتالي: «إن كل البلاد في حالة يبدو أن الله أراد أن يمنحها لأصحاب الجلالة»<sup>(1)</sup>.

وتعود أصول الوحدة الإسبانية إلى الزواج الذي تم بين فرديناند وإيزابيلا سنة 1469م. وبعد القضاء على آخر قلعة إسلامية بغرناطة عام 1492م، وانضمام إقليم النصار إلى المملكة سنة 1512م. وعلى إثرها تحقق حلم الوحدة ومن جراء ذلك تولدت أسطورة إسبانيا (الأمبريالية).

وهكذا، تتجلى لنا قضية الوحدة الإسبانية مجسدة على أرض الواقع في عهد الملكة إيزابيلا، حيث جعلت من بين أهدافها إخراج العرب المسلمين والاستيلاء على أراضيهم، وضرب آخر معقل من معاقلهم لتتجه بعد ذلك إلى الوحدة مع أرغوان<sup>(2)</sup>، ممثلة في شخص ملكها فرديناند الذي كانت تحركه نفس الأهداف.

ويرى أحمد توفيق المدني، أن إسبانيا المسيحية الموحدة ظهرت سنة 1474م<sup>(3)</sup>، وباحتفالها حينئذ بنصرين هما: النصر على المسلمين بعد تحطيم مملكة غرناطة

(1) جون (ب) وولف، المرجع السابق، ص 24.

(2) تختلف أرغوان عن قشتالة من حيث بنيتها الاقتصادية. فقد كانت الأولى تعتمد على ازدهارها التجاري ونشاطها في الحوض الغربي للمتوسط، في حين كانت الثانية تعتمد على الفلاحة، أما الصناعة فكانت بيد المسلمين والتجارة كانت بيد اليهود.

(3) بعد وفاة ملك قشتالة هنري الرابع يوم 2 ديسمبر 1474م، أصبحت إيزابيلا ملكة على قشتالة، أما فرديناند فتمكن من اعتلاء عرش أرغوان بعد وفاة جون الثاني سنة 1479م.

واكتشاف العالم الجديد سنة 1492م<sup>(1)</sup>، ومن أجل ذلك سعى فرديناند إلى توحيد المسيحية والقضاء على نفوذ النبلاء والإقطاعيين<sup>(2)</sup>.

ومهما كان الأمر، فإن فرديناند وإيزابيلا اختارا لقب (الملكين الكاثوليكين)، وهذا ما يفسر مدى التعصب الديني والرغبة الجامحة في محاولة تنصير المسلمين وإبعاد حدود الإسلام خارج شبه الجزيرة الإيبيرية، وكان هذا وراء المحرقات الإسبانية والبرتغالية على سواحل شمال إفريقيا خلال القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر، في إطار الحرب الصليبية المقدسة التي كان يغذيها رجال الكنيسة الكاثوليكية<sup>(3)</sup>.

وفي هذا الصدد، بدأ ملوك إسبانيا وصف أنفسهم بالملوك الكاثوليك، فكل مراسلاتهم حول المسائل الإفريقية ومطاردة الأندلسيين تدل على الطابع الديني والصبغة الصليبية لسياستهم، فقد صرح فرديناند في الكثير من المرات أنه يعمل لأجل الرب، ومن أجل الديانة المقدسة، والعمل على محاربة أعداء الإيمان المسيحي الكاثوليكي<sup>(4)</sup>.

وكانت للوحدة الإسبانية نتائج على الصعيدين الداخلي والخارجي:

(1) درج المؤرخون على اعتبار العصر الحديث أنه العصر الذي بدأ مع أحداث عالية ثلاثة: سقوط القسطنطينية (1453م)، واكتشاف رأس الرجاء الصالح (1497م)، واكتشاف العالم الجديد (1492م).

(2) أحمد توفيق، المدني حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792)، ط 2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976، ص 48.

(3) op ، cit ، T2 ، pp19-20.. F. Braudel ،

(4) Braudel ، « les Espagnoles et l'Afrique du Nord de 1492-1577 » ، in ، R A ، (N°69) 1928 ، p. 199.

- فعلى الصعيد الداخلي: تمكن الملكان الكاثوليكيان من تنظيم السلطة وإعادة النظام، حيث أصبحت الأوامر العسكرية مرتبطة بالعرش، ومن إنشاء ميليشيات قوية ومسلحة وكل إليها محاربة السلب والنهب وأعمال اللصوصية السائدة آنذاك<sup>(1)</sup>.
- وعلى الصعيد الخارجي: اتجهت إسبانيا نحو مغامرات خارجية، فقوت من وحدتها السياسية في الخارج أكثر من الداخل، وظهر المشكل الموريسكي بإسبانيا خلال عهد الملكين الكاثوليكين
- وارتبط بمعطيات سياسية واقتصادية واجتماعية حددت مسار السياسة الإسبانية تجاه الجالية الإسلامية بها، فإسبانيا كانت تبحث بقوة عن وحدتها السياسية متخطية بذلك كل الحواجز التي تعوق هذه الوحدة:
- فالحواجز الطبيعية تتمثل في انعزال العديد من المناطق التي تتمسك بذاتيتها واستقلالها (كطالونيا، والباسك، والأندلس).
- والحواجز الاقتصادية: تتمثل في التفاوت الطبقي بفعل وجود قوات إقطاعية ذات امتيازات كبيرة، وهي قوات تؤدي إلى التفكك أكثر مما تؤدي إلى الوحدة المركزية، في هذا السياق يذكر المؤرخ الفرنسي **بروديل (F. Braudel)**: «إن الدولة الحديثة كانت عدة النبلاء والإقطاعيين»<sup>(2)</sup>.
- ففي قشتالة مثلا، كانت الأسرة الحاكمة ضعيفة الإمكانيات بسبب وجود عدد من الإقطاعيين النبلاء الذين كانوا في صراع مع السلطة، فيضيقون الخناق على مشاريعها الوحدوية، إضافة إلى مدن لها حقوقها القديمة، كما أن الإكليروس كان له دور حاسم في التدخل بسبب تبنيه لحرب الاسترداد (La Reconquista).

(1) Jean Descola ، Histoire d'Espagne ، Paris ، 1979 ، p. 308.

(2) Braudel ، op . cit ، T2 ، p.54.

وفي نهاية الأمر تمكن العرش القشتالي من التغلب على الصعاب بفضل حمسه المسيحية وإخراجه للعرب المسلمين بالاستيلاء على أراضيهم، هذا العمل كان الدور الذي دارت حوله الوحدة القشتالية أولا، والإسبانية ثانيا، إذ جعل من قشتالة مركزا استقطاب لعدد من المتطوعين المتحمسين للمسيحية ظاهريا وللأطماع الاقتصادية باطنيا، لأنها هي التي كانت تحركهم وتدفعهم إلى الاستيلاء على الأراضي الجديدة المنتزعة من يد المسلمين، والعرش القشتالي جلب لذلك الجنود والضباط وأصبحت لديه الإرادة الفعالة التي تسير به نحو الوحدة.

وكان أول عمل اهتم به الملك الكاثوليكيان هو تصفية الوجود الإسلامي من شبه الجزيرة الإيبيرية، لذلك اعتبرهم جل المؤرخين الغربيين، البانين الحقيقيين الموحدية الإسبانية<sup>(1)</sup>، وقد أطلق الإسبان لفظة موريسكي على المسلمين الذين فرض عليهم التعميد الإجباري، وكلمة (Moros) أي المسلمين الأصغر، أطلقها الإسبان على سكان شمال إفريقيا، وبالخصوص على سكان منطقة موريطانيا الطنجية<sup>(2)</sup>.

وتتفق معظم الدراسات التاريخية على أن مصطلح الموريسكي (Moriscos)، استعمل بعد سقوط غرناطة للدلالة على المسلم الذي دخل إلى المسيحية حديثا (المسيحيون الجدد)، لكن الباحث سيمون الحايك يرى أن الظاهرة برزت سنة 1463م<sup>(3)</sup>.

وتذهب الباحثة الفرنسية إيفات هرموسيللا **Y. Hermossilla** إلى أن التاريخ الموريسكي يبدأ مع سقوط غرناطة وبداية حركة الاسترداد، حيث لوحظ استبدال

(1) Ibid ، p.19.

(2) للمزيد حول الموضوع راجع مادة الموريسكي - Moriscos:

Encyclopédie de L'Islam ، Paris ، Nelle éditions ، 1993 ، T.VII ، p. 243-245.

و مادة (Maures) في :

Dominique et janine sondel ، Dictionnaire historique de L'Islam ، Paris ، P.U.F ، 1996 ، p.1010.

(3) سيمون ، الحايك : "الدراسات الموريسكية في الخمس والعشرين سنة الأخيرة في إسبانيا"، في أعمال المؤتمر العالمي السادس للدراسات الموريسكية الأندلسية، حول وضعية الدراسات الموريسكية الأندلسية في العالم خلال الثلاثين سنة الماضية، (جمع وتقديم: د عبد الجليل التميمي)، زغوان: سيرمدي 1995، ص25.



لفظ مدجن (Mudéjares)<sup>(1)</sup> ، بكلمة موريسكي في وثائق محاكم التفتيش، والتي نعتت الموريسكيين بالمسيحيين الجدد (Cristiano nuevo de moro)، وهذا خلال القرن السادس عشر<sup>(2)</sup>.

وقد حدد المؤرخ الإسباني دي إيبالزا (M. de Epalza) وجود ثلاث مراحل للإطار الديني والاجتماعي للأندلسيين من وجهة نظر القانون الإسباني، وتشمل المراحل التالية:

- مرحلة المدجنين: قبل التعميد القسري (1502-1525م).

- المرحلة الموريسكية: والتي اعتبر فيها المسلم منصرفاً أو مسيحياً رديثاً حيث نعتهم رجال الكنيسة بالهراطقة (Mauvais chrétiens)

- مرحلة الطرد النهائي: (1609-1614م): وهي مرحلة عودة الأندلسيين إلى ديار الإسلام<sup>(3)</sup>.

درج المؤرخون على استعمال مصطلح الموريسكيين كدلالة تاريخية للتعريف بآخر مسلمي الأندلس أو العرب المنتصرين الذين فرض عليهم التنصير القسري ما بين 1499-1526، وبقي أحفادهم حتى عمليات الطرد النهائي (1609م).

(1) عندما سقطت الحواضر الإسلامية بالأندلس ودب الضعف في دول الطوائف، ظهر عنصر المدجنين، وهم المسلمون الذين افتكت أراضيهم واندمجوا في وسط وحياة الممالك المسيحية، وحافظوا على مساجدهم وتقاليدهم، واعتبرت طليعة مركزاً لهم.

(2) Cardailiac (Y) , Hermossilla , la magie en Espagne morisques et vieux chrétiens XVIè et XVIIè siècle , Bordeaux , 1994 , T1 , p.33-36. .

(3) M. de Epalza: l'identité onomastique et l'linguistique des morisques , in : Actes du II symposium international du C.I.E.M , sur (Religion , identité et sources documentaires sur les morisques Andalous) : Etudes réunies et présentés par A. Temimi , Tunis 1984 . T1 , pp. 269-279.

ويعتقد المؤرخ الفرنسي لوي كاردياك L. Cardillac، أن مصطلح الموريسك ظهر بهذا المفهوم حوالي سنة 1560م، ليشمل كل المسلمين الذين مكثوا بشبه الجزيرة بعد سقوط غرناطة، والذي أرغموا على اعتناق الدين المسيحي الكاثوليكي<sup>(1)</sup>.

وسعت إسبانيا إلى فرض العقيدة النصرانية على المسلمين، وهذا ما يفسر تعدد إنشاء محاكم التفتيش وملاحقة الموريسكيين.

وقد باركت البابوية بروما مشاريع ملوك إسبانيا، وهذا من خلال المساعدات الإستراتيجية التي قدمها البابا ألكسندر السادس (ALEXANDRE VII) (1492-1503م)، ويقضي الفرمان المؤرخ في 15 ماي 1492 بدفع الضريبة الصليبية والمتمثلة في الدعم المالي والروحي للملكين الكاثوليكين، حيث دعا البابا جميع المخلصين للمسيحية إلى تدعيم إسبانيا ودفع الضريبة كل خمس سنوات وتسمى بـ : (La Crusada)، وهي عبارة عن إمدادات مالية تقدم إلى خزانة الملكين الكاثوليكين لتمويل مشاريع الحملة الصليبية، وتسهيل عملية القضاء على النفوذ الإسلامي بالأندلس واستئصال جذور المسلمين الثقافية والدينية، بل وملاحقتهم إلى شمال إفريقيا في إطار الصراع القائم بين الهلال والصليب<sup>(2)</sup>.

ب - أوضاع شمال إفريقيا قبيل مجيء الأتراك العثمانيين.

يصور لنا المغرب الإسلامي في نهاية القرن الخامس عشر حالته السياسية والعسكرية المنحطة ووضعيته الاقتصادية المتدهور، في استقرائنا لأحداث تاريخ المنطقة بعد انهيار دولة الموحدين (1130هـ / 1269م) تبين لنا سمة التفكك السياسي الغالب عليه والسائد في جميع بلدانه.

(1) لوي، كاردياك، المرجع السابق، ص 150.

(2) Braudel . les Espagnoles ... op.cit ، pp.200-201. .

وكانت منطقة المغرب في بداية القرن السادس عشر تنقسمها نظريا ثلاث دول: بني مرين الوطاسيين في المغرب الأقصى، وبني زيان في المغرب الأوسط، وعاصمتهم تلمسان، وبني حفص التي كانت قاعدة ملكهم مدينة تونس، وتضم كلا من الجزء الشرقي من المغرب الأوسط وإفريقية حتى إقليم طرابلس.

وكان المغرب الأوسط في أغلب الأحيان مسرح صراع على النفوذ بين القوى السياسية الحاكمة في القطرين المجاورين، ونظرا لفقدانه وجود سلطة مركزية، مما فقد كان مسرحا لفوضى القبائل، وكان من جراء هذا التمزق أن أصبح المغرب الأوسط وحدة تتناحر فيه وتتصارع عليه عدة كيانات صغيرة، فأنفقت في ذلك الأموال واستهلكت الحروب جزءا كبيرا من ثروة البلاد، كما أدت إلى عدم الاستقرار<sup>(1)</sup>، ومن هذا المشهد السياسي نستخلص العناصر التالية:

- ليس هناك دولة مركزية موحدة قوية ومعترف بها في المغرب العربي.

- غياب شبه كلي للدفاع عن السواحل التي أصبحت مفتوحة لكل المغامرين وتحقيقهم لمشاريع توسعية.

- بروز البحارة الشرقيين والموريسكيين الذين اعتبروا قوة بحرية جديدة في الفضاء الجغرافي السياسي للبحر الأبيض المتوسط الغربي في بداية القرن السادس عشر؛ وهو الأمر الذي مكنها من مجاهدة ومحاربة إسبانيا، ومد يد المساعدة للأندلسيين داخل إسبانيا، ومن هذا المنطلق وضعت المملكة الإسبانية آلية احتواء واحتلال لسواحل وموانئ المغرب الأوسط<sup>(2)</sup>.

(1) محمد خير، فارس، المرجع السابق، ص 6-7.

(2) عبد الجليل، التميمي: "التشكل الإداري والجغرافي للإيلات العثمانية بالجزائر وتونس وطرابلس الغرب (1557-1588)"، في كتاب تقديري للأستاذ خليل الساحلي أو غلو، (جمع وتقديم: د. عبد الجليل التميمي)، زغوان، سيرمدي 1997، ج 2، ص 451-452.

وقد كانت خطة إسبانيا بعد سقوط مملكة غرناطة عام 1492م قائمة على غزو سواحل شمال إفريقيا وتصفية النفوذ الإسلامي نهائياً، من شبه الجزيرة الإيبيرية.

وقد أسفر هذا الانتصار الذي حققه الملكان المسيحيان ضد المسلمين على انتعاش الروح الصليبية من جديد وتعقب الأندلسيين الذين التجؤوا إلى موانئ شمال إفريقيا، فإسبانيا بدأت بإنزال حملاتها على سواحل المغرب الأوسط، فاحتلت ميناء المرسى الكبير (911هـ / 1505م)، ثم أخذ نطاق العمليات الإسبانية يتسع منذ 1508م، حينما تولى قيادة الأساطيل الملكية بדרو نافارو (Pedro Navarra)، الذي تمكن من احتلال وهران (915هـ / 1509م)، ثم بجاية (916هـ / 1510م)، وتحت هذا الضغط الإسباني اضطرت موانئ دلس والجزائر إلى دفع جزية لإسبانيا، لأن الزيانيين أثبتوا عجزهم في حماية هذه الموانئ نتيجة للتفكك السياسي الذي أصاب دولتهم وللثورات الداخلية التي نشبت ضدهم كرد فعل عن كثرة الضرائب التي فرضوها في تلك الفترة على الأهالي، بحجة الغزو الخارجي، واضطرت السلطات الزيانية إلى عقد صلح مع إسبانيا سنة 1512م. اعترفت فيه باستيلاء إسبانيا على عدة موانئ في غرب الجزائر<sup>(1)</sup>.

وبسبب ضعف المملكة الزيانية، استولى الأسبان على تنس وقلعة البنيون (الصخرة)، ومستغانم، وكان سقوط المرسى الكبير وهران خسارة عظيمة لمملكة تلمسان، ولم يعد تجار البندقية يقصدون وهران لكونها مليئة بالجنود الإسبان، فطلب منهم أهل تلمسان أن يأتوا إلى هنين<sup>(2)</sup>.

(1) حول موضوع الاحتلال الإسباني لموانئ المغرب الأوسط، أنظر: يحيى، بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500-1830، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1985، ص 11-12.

(2) الحسن بن محمد، الوزان، المصدر السابق ج2، ص9.

وهكذا، وضعت إسبانيا لنفسها موضع قدم في شمال إفريقيا، كانت عبارة عن نقط ارتكاز أمامية منعزلة للدفاع عن سواحلها الخاصة، كما شيدت سلسلة من القلاع على طول ساحل الشمال الأفريقي. إلا أن القلاع والحصون الإسبانية عاشت في حالة حصار طوال فترة الاحتلال، وكانت حياة الجند شاقة، وبلغ اليأس بالجند مبلغا جعلهم يفكرون في أن يتحولوا إلى مغاربة<sup>(1)</sup>.

وقد ساعد التدهور والتفكك الذي شهده المغرب الأوسط، على إفساح المجال للفتن الداخلية وفتح الباب للهجمات الخارجية والغارات الإسبانية؛ وفي مقابل هذا التشتت، وقفت إسبانيا بعدما استكملت وحدتها، تعززها القوى الروحية التي منحها إياها البابوية، أمام العالم المسيحي عندما باركت مشاريعها الصليبية - تعمل من أجل حل الخلافات التي كانت قائمة بينها وبين مملكة البرتغال. ولقد كللت المساعي البابوية بالنجاح حيث أبرمت اتفاقا بين الدولتين سنة 1499م تم بمقتضاه تقسيم العالم الغير الأوروبي إلى منطقتي نفوذ بينهما، وكان المغرب الأوسط في هذه القسمة من نصيب الإسبان.

وفي ظل هاته الظروف السياسية والنفسية، حدثت تلك المبادرة التاريخية لسكان مدينة الجزائر، التي سوف تغير وجه المنطقة، والتي تتمثل في دعوة عروج لقيادة حركة الجهاد انطلاقا من مدينة الجزائر.

### ج - الجزائر والملف الموريسكي الأندلسي:

أرسل سالم التومي<sup>(2)</sup> باسم مجلس أعيان مدينة الجزائر<sup>(3)</sup> رسوله إلى مدينة جيجل طالبا المساعدة من عروج وأخيه خير الدين على تخليص مدينة الجزائر من الإسبان، فلبيا الطلب وجهاز الأخوان حوالي ثلاثة آلاف من رجال القبائل، واتجهوا

(1) شارل أندري، جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية (تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة)؛ ط2، تونس: الدار التونسية للنشر، 1983، ج2، ص. 325.

(2) كان سالم التومي شيخ بني مزغنة، وهو ينتمي إلى إحدى العائلات المتيجية الثرية.

(3) هذا المجلس هو عبارة عن برلمان يضم فقهاء وأعيان وأثرياء مدينة الجزائر آنذاك.

إسعاد مدينة الجزائر تحت قيادة عروج، وتمكنوا من دخول المدينة وعندما أدرك شيخ بني مزغنة، سالم بن التومي، أن عهد المشيخة قد ولى، بدأ في خلق المصاعب أمام عروج، مما أدى إلى القطيعة بين الرجلين، فكانت النتيجة إعدام سالم التومي والخلص من مؤامراته<sup>(1)</sup>

وبعد وفاة سالم بن التومي، أخذت نار الفتنة وفسحت المجال واسعا أمام عروج للتحكم في زمام الأمور وإعداد نفسه لتحقيق مشروعه التحريري التوحيدي الذي قام على أساس المبادئ التالية:

- تنظيم المؤسسة العسكرية، وذلك بإقامة التحصينات القوية وإنشاء حاميات عسكرية خارج المدينة.

- توسيع نفوذه وذلك بإخضاع القبائل إلى السلطة المركزية.

- تقسيم الأراضي الموجودة تحت سيطرته إلى مقاطعتين شرقية وغربية. فالغربية عاصمتها الجزائر، وكان يديرها بنفسه، أما الشرقية التي كانت عاصمتها دلس فقد عين لإدارتها أخاه خير الدين.

توجهت أنظار عروج، قبل القيام بمحاولة أخرى لتحرير مدينة الجزائر من الحصن الغسباني المواجه لها، إلى القضاء على الحكام المواليين للإسبان، ومنهم سلطان تنس، وملك تلمسان.

وكان حميدة العبد، سلطان تنس، يعد هجوما كبيرا على عروج للخلص منه، بالتنسيق مع عرب المناطق الغربية لمدينة الجزائر، الذين لم ينسجموا مع الحكم الجديد، الذي فرض سيطرته عليهم بالقوة، وألزمهم بدفع الضرائب، فاستخلف عروج على مدينة الجزائر أخاه خير الدين، وتحرك على رأس (1000) من الأتراك

(1) علي، أجقو: "الدولة الجزائرية الأولى 1514-1830: دراسة مؤسسية"، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة، العدد 2، ديسمبر 1994، ص 140-141.

و(500) من الأندلسيين، نحو تنس، وتمكن من الإنتصار على قوات حميدة العبدفي معركة قرب نهر الشلف في صيف 1517م. وذلك بفضل السلاح الناري الذي كان بحوزته. و زحف عروج نحو تلمسان لتخليصها من أبي حمو الثالث، وتمكن من تحقيق النصر عليه في معركة أغبال، والدخول إلى تلمسان في سبتمبر 1517م<sup>(1)</sup>.

واستطاع عروج فتح مدينتي تنس وتلمسان، الشيء الذي أضر بالمصالح الإسبانية بوهران، مما دفع الملك شارل الخامس إلى أن يطلب من حاكم وهران المركزي دي قوماز (M. de Gomaz) مجاهدة تلمسان، وإعادة السلطان الزياني أبي حمو إلى السلطة<sup>(2)</sup>، وانتهت الحملة باستشهاد عروج وهو في طريق العودة إلى مدينة الجزائر سنة 924هـ/1518م.

تولى خير الدين القيادة بعد وفاة أخيه، ورفض طلبا تقدم به أعضاء مجلس الدفاع يتضمن تعيينه ملكا على الجزائر، ولكنه اشترط على أعيان مدينة الجزائر الاستنجد بالسلطان العثماني سليم الأول (1512-1520م)، وبالفعل فقد أرسل السلطان ألفين من جنود الأنكشارية وأربعة آلاف من المشاركة، بالإضافة إلى إرساله لبعض المدافع والذخيرة الحربية<sup>(3)</sup>، ويعتبر هذا الاتصال بين خير الدين والدولة العثمانية بداية لانضمام إقليم المغرب الأوسط إلى حوزة الدولة العثمانية<sup>(4)</sup>.

ظهرت شخصية خير الدين عندما كان يغير على السواحل الإسبانية، حاملا معه الغنائم والعبيد والموريسكيين الراغبين في الفرار من الاستبداد الإسباني.

(1) Haedo , op.cit . pp.25-27.

(2) عاد السلطان الزياني أبو حمو إلى الحكم سنة 1518، وأرغمه الإسبان على دفع ضريبة سنوية تقدر بـ 1200 دوكة ذهبية، للمزيد من التفاصيل راجع: جون (ب) وولف، المصدر السابق، ص 29-30.

(3) نفسه، ص 30-31.

(4) حول انضمام المغرب الأوسط إلى الخلافة العثمانية، راجع:

عبد الجليل، التميمي، "أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519"، المجلة التاريخية المغربية، تونس، العدد 6، جويلية 1976، ص 116-120.

و كان هؤلاء اللاجئين يشيدون بخصال خير الدين، على أنه بطل مسلم، يمكن أن  
 «ود ذات يوم جيشا منصورا إلى إسبانيا نفسها<sup>(1)</sup>، وإن النجاح الذي حققه خير الدين  
 ١٥. أكسبه سمعة وهيبة لدى الجزائريين والموريسكيين الأندلسيين على حد سواء.

أما السلطان سليمان القانوني (1520-1566م). الذي اتصل بلائحة شكاوي  
 من الموريسكيين، فقد سارع بإرسال فرمان إلى خير الدين يأمره بالتحول إلى  
 إسطامبول للمشورة ومناقشة موضوع إنشاء أسطول عثماني، وإمكانية تدخل  
 الدولة العثمانية في غرب البحر الأبيض المتوسط<sup>(2)</sup>.

وأدرك السلطان سليمان القانوني جيدا خلفية وأهداف السياسة الإسبانية في  
 المغرب العربي ووضع الموريسكيين ووجوب العمل على تقوية الوجود العثماني في  
 البحر المتوسط الغربي، وهذا وفقا للإستراتيجية العسكرية التي يسعى خير الدين إلى  
 تنفيذها وتحقيقها.

وقد سلم السلطان سليمان إلى خير الدين شخصيا بتاريخ 6 مايو 1534م علما  
 ووصولنا وسيفا كعلامة تشريفية، واستجابة لهذه الرؤية اتخذت عدة قرارات، منها:  
 منح خير الدين لقب يلرباي ثم بعد ذلك لقب قبودان باشا أي أمير البحرية العثمانية<sup>(3)</sup>.

وعندما دعا السلطان العثماني خير الدين إلى إسطامبول سنة 1532م، كان  
 السؤال المطروح هو: هل ستحدث حرب في البحر الأبيض المتوسط بين الدولتين  
 العثمانية والإسبانية؟ وهل يتمكن العثمانيون من تحطيم الإمبراطورية الإسبانية؟  
 وهل يمكن لقوة إسلامية أن تستعيد الأندلس وتصحح المظالم التي تكبدها  
 الموريسكيون الأندلسيون؟

(1) نفسه.

(2) حول هذا الموضوع راجع مادة: الجزائر عثمانية في دائرة المعارف الإسلامية:

Marcel . Colombe : « Algérie Turque » . in . Encyclopédie de L'Islam: op. cit . T1 . p: 378-380.

(3) عبد الجليل، التميمي: التشكل الإداري، المقال السابق، ص45.



وانطلاقاً من سنة 1519م، عندما ارتبطت الجزائر بالإمبراطورية العثمانية، يمكننا أن نتحسس على ضوء الأحداث خلفية التدخل العثماني في منطقة الحوض الغربي للمتوسط.

وبعد استرجاع قلعة البنيون سنة 1529م من يد الإسبان، وهو الأمر الذي كان وراء إرساء الوحدة السياسية والإدارية لإيالة الجزائر العثمانية<sup>(1)</sup>، والنقطة المركزية في الصراع بين الدولتين، العثمانية والإسبانية، أصبح يطلق على إيالة الجزائر اسم (مصرم الحروب)، وتنعت بالقاعدة الخلفية في الجناح الغربي المتوسطي للدولة العثمانية<sup>(2)</sup>.

إن استقرار الحكم العثماني بالجزائر، و(عثمنة) فضاء المغرب الأوسط، وتزايد عمليات الجهاد البحري، أدت كلها إلى تغيير الخارطة الجغرافية لمنطقة البحر المتوسط الغربي، ليصبح الصراع العثماني الإسباني ذا أبعاد عالمية، وبموجبه أصبح إيالة الجزائر محوراً رئيسياً، وخاصة بعد تدفق تيار الهجرة الأندلسية على سواحل شمال أفريقيا، والدور الفعال الذي قامت به البحرية الجزائرية العثمانية في عمليات الإنقاذ. ويرى المؤرخ الجزائري سعد الله أن الدولة العثمانية دخلت رسمياً في الحرب ضد إسبانيا بعد أن أصبحت الجزائر إحدى إيالاتها في شمال أفريقيا<sup>(3)</sup>.

وقدر للجالية الأندلسية التي بدأت هجرتها منذ سقوط دولة الموحدين ثم ازدادت بصورة ملحوظة منذ مطلع القرن السادس عشر، أن تلعب دوراً بارزاً في تاريخ المغرب الأوسط.

(1) جون (ب) وولف، المصدر السابق، ص 60.

(2) نفسه.

(3) أبو القاسم، سعد الله، ج 1، ص 130.

## القسم الثالث:

### الحضور الأندلسي في الجزائر خلال العهد العثماني على ضوء وثائق المحاكم الشرعية.

شهدت الجزائر هجرة أندلسية واسعة وهامة خلال مراحلها الثلاث الكبرى نحو الأندلس، إلا أن الوثائق المتعلقة بها وبالجمالية الأندلسية محدودة، والموجود منها ما يزال متناثرا موزعا عبر مختلف أرشيفات دول البحر الأبيض المتوسط، زيادة على وضعية الأندلس الأندلسية بالجزائر وطبيعة الحكم العثماني بالإيالة، وكلها أمور جعلت من الدراسات الموريسكية الأندلسية بالجزائر تتأخر عن مثيلتها بتونس والمغرب الأقصى<sup>(1)</sup>.

وهذا عرفت الجزائر خلال المرحلة الأولى من الهجرة الأندلسية التي تمتد من عام 1492م، وصول موجات هامة من هؤلاء المهاجرين الذين تضاعف عددهم، وذلك موازاة مع حركة الاسترداد المسيحي (Reconquista)، وسقوط الأندلس الإسلامية الكبرى بالأندلس كقرطبة 1236م وبلنسية 1283م وإشبيلية 1492م، إلا أن حظ مدينة الجزائر من هذه الهجرة التي شكل معظم صفوفها رجالا من الأندلس، قد كان ضعيفا نسبيا بمقارنتها بالأعداد الهامة التي نزلت على بجاية والسيدي وتلمسان الزيانية، لكونهما المدينتين اللتين كانتا تعدان من أهم المراكز الأندلسية في المنطقة، وللعلاقات الزيانية - الأندلسية السابقة من جهة أخرى.

انظر تأسيس الحكم العثماني بمدينة الجزائر (1520م)، كأولى قاعدة عثمانية في المغرب العربي - الإسباني - العثماني<sup>(2)</sup> والنشاط البحري الذي بذله الإخوة برباروسة

(1) انظر الدين، سعيدوني: الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر (دار السلطان) أثناء القرنين السادس والسابع عشر، حوليات جامعة الجزائر، العدد 7، الجزائر 1993، ص 107-129.

(2) انظر الدكتور العثماني في شمال إفريقيا ونجاح خير الدين برباروسا في ربط إيالة الجزائر بالدولة العثمانية. دراسة من إسقاط عامه البيروقراطية الإسبانية سنة (1529)، ثم فتحه لتونس سنة 1534، والاندلسيات الملاحقة

في الحوض الغربي من البحر المتوسط من حملات بحرية واسعة على السواحل الإسبانية، واستغاثة الموريسكيين ونقلهم، كل ذلك أعطى لمدينة الجزائر سمعة وشهرة في المنطقة واستقطاب أنظار ليس فقط لحكومات شارل الخامس (1516م-1556م) وفليب الثاني (1556م-1598م) لتكثيف حملاتهم للحد من التوسع العثماني في المنطقة، ولكن كذلك أنظار العديد من مهاجري المرحلة الثانية التي تبدأ بسقوط غرناطة (1492م)<sup>(1)</sup> لاختيار مدينة الجزائر كملجأ والحكم العثماني كنفوذ مجدد ومناسب لآمالهم، ولهذا ربطوا مصيرهم بالأتراك العثمانيين<sup>(2)</sup>.

ولا نبالغ إذا قلنا أنه كان لهؤلاء المهاجرين دور فعال في تثبيت الحكم العثماني بالجزائر، وهذا للمساعدات التي قدموها للأتراك للتصدي للحملات الإسبانية من جهة والقضاء على الإمارات المحلية من جهة أخرى.

## 1- الأندلسيون والنشاط الاقتصادي:

استطاع أفراد الجالية الأندلسية بفضل نشاطهم الاقتصادي الواسع تكوين ثروات ضخمة ساهمت في فعاليات اقتصاد إيالة الجزائر، وكان الأندلسيون يمارسون

= جعلت الملك الإسباني شارل الخامس يتحرك إيماناً منه بأن العثمانيين يمثلون تهديداً مباشراً لأمن المسيحيين ولعالمه بأوروبا.

انظر: التفاصيل حول الموضوع في المقالات التالية:

- عبد الجليل، التميمي، الخلفية الدينية للصراع الإسباني-العثماني على الإيالات المغربية في القرن السادس عشر المجلة التاريخية المغربية، العدد 10-11، تونس، جويلية 1978، ص 5-44.

- عبد الجليل، التميمي: "التشكل الإداري والجغرافي لولايات العثمانية بالجزائر وتونس وطرابلس المر (1557-1588)"، في كتاب تحية تقدير للأستاذ خليل الساحلي أوغلو جمع وتقديم: د. عبد الجليل التميمي،

تونس، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، أكتوبر/نوفمبر 1997، ج 2، ص 451-466.

(1) محمد عبد الله، عنان: نهاية الأندلس ص 240-245.

(2) عبد الجليل، التميمي: رسالة من مساهم غرناطة ص 37-47.

المعروفة آنذاك، حيث تخصصوا في مختلف الحرف السائدة في مجتمع الجزائر، مما يشبه أحد المؤرخين نشاط الأندلسيين بإيالة الجزائر، مقارنة مع نظام الطوائف الأندلسية، بأنها تمثل النخبة البورجوازية التي تحتكر دواليب الحركة الاقتصادية، مما جعل هذه الجالية بمثابة المؤشر المالي للرأسمالية الحديثة في الجزائر العثمانية<sup>(1)</sup>.

وقد امتد نشاط أفراد الجالية الأندلسية في الجزائر إلى كافة مجالات الأنشطة الاقتصادية، واستطاعوا أن يفتحوا أبواب معظم الحرف المهنية والحرفية، واحتكروا الأعمال بها، ويمكن تقسيم الحرف المهنية التي اشتغل بها الأندلسيون في الجزائر إبان العهد العثماني إلى مجموعتين أساسيتين:

الحرف الصناعية التي ارتبطت في بعض جوانبها بالنشاط التجاري.

حرف خاصة بالأعمال غير الصناعية كاللدالة والحياكة.

أوضحت وثائق الوقف الخاصة بسجلات المحاكم الشرعية نشاط الأندلسيين بالجزائر، حيث تعطي لنا فكرة عن المهن والصنائع، وللوقوف على أهمية الحرف وأهميتها الاقتصادية، لا بد من وضع قائمة بها من واقع المحاكم الشرعية التي سجلت اشتغال الأندلسيين بها، وبفحص سجلات المحاكم الشرعية، نرى أن كثيرا من أصحاب الصناعات الحرفية في الأوساط الأندلسية، تتصل بألقابهم بالألقاب المهنية، مثل الحوكي بن محمد الأندلسي، والحداد محمد الأندلسي، وصانع الشواشي الحاج علي بن الحسن الأندلسي، والعطار أحمد بن محمد الأندلسي، وصانع الصابون علي بن عمر الأندلسي، والخياط يحيى<sup>(2)</sup>.

(1) Denis . Brahimi . Quelques jugements sur les maures Andalous dans les repères turques: in . R.H.C.M. . (N°9) . Juillet 1970 . p. 39-40.

(2) الأندلسيون في العهد العثماني، مجلة إنسانيات، وهران مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية، العدد 1، 1997، ص 69-86.

ومن أهم الحرف التي اشتغل بها الأندلسيون في الجزائر في العهد العثماني صناعة النسيج والملابس وحياتها، وقد قدر عمال النسيج في مدينة الجزائر في الربع الأول من القرن السادس عشر بما لا يقل عن 3000 صانع، كما اشتهرت مصانع الحرير الأندلسية في مدن الجزائر والقلية وشرشال وبرشك بجودتها، و هذا الجزء الأكبر من هذا الإنتاج يصدر خارج الجزائر<sup>(1)</sup>، واشتهرت المناطق الغربية من الجزائر بصناعة الزرابي ذات الطابع الأندلسي، وخاصة في مناطق هنين وتلمسان وقلعة بني راشد<sup>(2)</sup>، كما اهتم الأندلسيون بدباغة الجلود وصناعة الشاشية والأنسجة الحريرية، واشتهرت عائلة القلانسي وبوناتير بحي باب الواد بصناعة الشاشية<sup>(3)</sup>، واختصت عائلات أندلسية بصناعة المخمل (القطيفة)<sup>(4)</sup>، وسيطر أهل الأندلس على مصانع الأسرجة والنسيج والإسكافة والحدادة بتلمسان وقسنطينة، وامتازت زرابي تلمسان وشرشال بأسلوب أندلسي راق<sup>(5)</sup>.

## 2 - الأندلسيون والنشاط التجاري:

قدر لأبناء الجالية الأندلسية الذين استقروا بالجزائر في العهد العثماني، أن يكون لهم دور المشاركة الفعالة التي كانت أبرز أوجهها محصورا في التجارة، فقد امتدح المتاجر الأندلسية في مدينة الجزائر وخاصة في الشارع الممتد ما بين باب عزون إلى باب الواد المتفتح على حومة الأسواق الرئيسة أسفل المدينة.

(1) Haedo (F. Diego de) . Topographie et histoire général d'Alger . trad . Mannereau et A. Herbrugger in R. A(N°14) . 1871 . P495..

(2) محمد، الطمار: تلمسان عبر العصور، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب 1984، ص 237

(3) ناصر الدين، سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني): الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 141.

(4) نفسه.

(5) bibliographie commentée des Morisques Martine . Ravillard . doucement imprimés de leur origine à 1982 . thèse inédite . paris 1980 . p. 146. .

والأسواق في مدينة الجزائر العثمانية تتمركز في شارعين، ففي الشارع  
القديم، سوق الكتان وسوق الزيت وسوق الشمع وسوق الفكاهين  
وسوق الخضرية وسوق الصباغين وسوق الحديد وسوق الشمع وسوق الخضار  
في الشارع الثاني نجد سوق السمن وسوق القيصرية، وبهذه الأسواق كانت  
المداهي والحمامات والفنادق<sup>(1)</sup>

وهذا اتسع نشاط هؤلاء التجار الأندلسيين، وبخاصة تجارة بيع الأسرى  
وتمويل مشاريع الجهاد البحري، وهي مؤسسات حيوية وهامة ظلت لمدة  
طويلة هاما للرزق ومصدرا للثروة وعاملا حاسما في تنشيط الحركة  
الاقتصادية بالجزائر، كما كانت حكرا على أفراد الإدارة العثمانية.

وأصبح للأندلسيين فائض مالي كبير، وكان لا بد من البحث عن ميادين  
جديدة إلى جانب عملهم التجاري لاستثمار فائض رأسمالهم فيها، وكانوا حريصين  
على المارص على أن تعطى لهم هذه المجالات الاستثمارية ربحا، وتميز الثغريون<sup>(2)</sup>،  
والأكثر تحالفا ونشاطا مع السلطة الحاكمة من بين مختلف الفئات الأخرى  
التي دون الجالية الأندلسية، وذلك لنوعية النشاط الممارس وتمركزهم بمدينة الجزائر  
عاصمة الحكم العثماني، فالثغريون استفادوا من مداخيل القرصنة وبيع الأسرى  
والتجارة الرقيق بضاعة وتجارة مربحة على حد تعبير أحد الباحثين الغربيين،  
الذين عاملوا الأسرى الإسبان بسوء وقسوة<sup>(3)</sup>.

وتشير بعض الدراسات بأن عدد الأرقاء المسيحيين الذين كانوا يباعون في  
أسواق مدينة الجزائر ما بين (1520م-1660م). كان يتراوح ما بين خمسمائة ألف  
وسمائة ألف نسمة، كما توجد قصص عن سوء معاملة القساوسة من قبل

(1) س، م، ش، علبة: 102-103، علبة: 32، علبة: 1-47، علبة: 5-1.

(2) لقب موريسكيو مدينة الجزائر في العهد العثماني بالثغريين، والثغر هي الحدود، ربما هم سكان منطقة  
الديوان.

(3) Haedo .Topographie op ، cit : p 68

الموريسكيين، وكان هؤلاء يعملون في تجارة الفداء التي كانت مظهرا هاما من مظاهر مجموع اقتصاد إيالة الجزائر<sup>(1)</sup>.

والحقيقة أن المتبع لدور التجار الأندلسيين وخاصة في مدينة الجزائر، واستثمار أموالهم في عمليات القرصنة (غنائم الجهاد البحري)، ليقف مندهشا لهذا الدور الذي لعبه هؤلاء في المجال التجاري! حيث اشتهروا بتحصيلهم للتضاريف ومساعدتهم للأتراك في تنظيم موارد الخزينة العامة.

ولا غضاضة في أن نعتبر هذه الفئة التجارية طبقا لاتساع نشاطها المالى وبفضل خبرتها التجارية أنها أصبحت تمثل النخبة المدبرة لشؤون القرصنة والنتائج ومبادلة الأسرى في الجزائر العثمانية<sup>(2)</sup>.

وقد شجعت إيالة الجزائر القرصنة وهي التي كانت تدر عليها غنائم كثيرة بفضل الموريسكيين الذين يتقنون اللغة الإسبانية ويعتبرون أكثر الفئات علماء بدخائل الصراع السياسي والعسكري بالبحر الأبيض المتوسط.

ومن الأمور المتعلقة بثراء الأندلسيين في مدينة الجزائر التي يجب الإشارة إليها، أن كثيرا من أفراد الجالية الأندلسية إلى جانب استثمارهم للعقارات قاموا بوقف الكثير منها، إما على أنفسهم مدة حياتهم، ثم على ذريتهم من بعدهم أو على أوجه البر وطلبة العلم، أو على فقراء الأندلس وفقراء الحرمين الشريفين.

وجاءت هذه الأعمال لتجنب الأندلسيين لمضرات الزمن، وخاصة تخوفهم من مصادرة السلطات لمثل تلك الأملاك، ومن واقع سجلات المحاكم الشرعية، ما جاء في عقد نشره ابن شنب يتضمن شراء جنة بفحص طريلية من طرف الولية عائشه

(1) جون (ب) وولف، ص 207-214.

(2) Laugier de Tassy، histoire du Royaume d'Alger، paris، ed loysel، 1992، p.69

سعيد الأندلسي بثمن قدره 1550 دينارا، وهذا بتاريخ أواسط شوال 1048هـ / 1648م<sup>(1)</sup>، وتشير وثيقة أخرى إلى أن الحاج أحمد بن سعيد الأندلسي قد اشترى من سعيده بفضله بفتح السد خارج باب الواد بثمن قدره 3000 دينارا، وذلك بتاريخ 1052هـ / 1643م، ومما جاء في الوثيقة<sup>(2)</sup>: (.المكرم الأفضل الحاج أحمد بن سعيد الأندلسي اشترى جميع اللجنة المذكورة وحقوقها وحرمتها وما فيها ومرافقها داخلا وخارجا فيما صحت والخيار بثمن قدره: اللجنة المذكورة بفضله بفتح السد بثمن قدره 3000 دينار، كلها خمسينية العدد<sup>(3)</sup> .<sup>(4)</sup> .

### 3 الأندلسيون والحياة الاجتماعية:

لا يستطيع الباحث في تاريخ الجزائر الاجتماعي في العهد العثماني، وفي إطار العام الاجتماعية السائدة آنذاك، أن يغفل الدور الكبير الذي لعبته الجالية الأندلسية في الحياة الاجتماعية بالجزائر، إن اشتغال الأندلسيين بالعمل التجاري والحرف اليدوية وطلب العلم والتدريس، مكنهم من ربط علاقات واسعة وقوية بمختلف شرائح وطوائف المجتمع الجزائري في العهد العثماني.

وقد اشتهرت العائلات الأندلسية باشتغال أفرادها بالتجارة والصنائع، مثل ابن زيان وابن زوان وبرانحال وابن تشيكو وابن الكبابطي وابن الشاهد،

(1) Bencheneb : " un acte de vente adressé à Alger en 1648 » ، in ، R ، A (N°89) ، 1945 ، pp 287-290.

(2) لقد حرصنا أثناء نسخ نصوص وثائق المحاكم الشرعية خلال هذه الدراسة على الإبقاء على الصيغة الأصلية، كما حافظنا على الشكل الذي تدم به، كي يتعرف القارئ على اللغة المستخدمة، وعلى الطريقة المعتمدة من طرف الأندلسيين وقتذاك.

(3) عملة جزائرية أصبحت متداولة منذ العشرينيات من القرن 16م.

(4) س، م، ش، علية: 106.



دارا بمدينة الجزائر بتاريخ 1073هـ/1663م، عن طريق الشراء بثمن قدره (6000) دينار ذهبية، وحسب المترل لفائدة فقراء الحرمين وفقراء الأندلس مناصفة بينهما<sup>(1)</sup>، وتكشف لنا الوثائق مدى إسهام الجالية الأندلسية في الحياة الاجتماعية والثقافية، ما حبسوه من ممتلكات وعقارات على المؤسسات الدينية والثقافية.

وعليه فإن أوقاف أهل الأندلس ما لبثت أن اضمحلت وتلاشت وتناقصت مردودها ولم يعد يستفيد منها عام 1837م سوى 71 فردا ينتسبون إلى أفراد الجالية الأندلسية، كما تعرضت زاوية أهل الأندلس إلى الهدم من طرف الإدارة الفرنسية سنة 1843م<sup>(2)</sup>، ويرجع السبب في تلاشي العنصر الأندلسي بمدن إيالة الجزائر إلى ضعف نشاط أفرادها في الميدان المالي في أواخر العهد العثماني، نتيجة مضايقة واستبداد الحكام الأتراك وقادة الجيش، وهذه العوامل أضعفت إمكانيات التطور الاجتماعي والاتصال القائم على مبدأ العمل والمبادرة الفردية للجالية الأندلسية.

وبالإضافة إلى انغلاق الطائفة التركية على نفسها، ومنافسة جماعة الكراغلة والأهالي، وضعف القبائل المحلية والجماعات الريفية على الوسط الحضري للمدن، حيث تركزت الجالية الأندلسية، وشيوع البداوة، كلها أمور عملت على طمس المساهمة الأندلسية في مختلف مجالات الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية، وعلى الرغم من اسم الأندلسي (Andalous) الذي وحد أفراد الجالية، فإن اختلاف مصادر الثروة ونوعية النشاط الممارس ومراحل ومكان الاستقرار والتوزيع الجغرافي بالجزائر، كانت كلها عوامل جعلت الحديث عن الأندلسيين بالجزائر لا يكتسي نفس البعد من التشابه والمضمون لدى التحدث عن العناصر الأندلسية بتونس أو المغرب الأقصى<sup>(3)</sup>.

(1) س، م، ش، عبلة: 47/1.

(2) ناصر الدين، سعيدوني، دراسات، المرجع السابق، ج2، ص58.

(3) شكيب، بن حفري: "موقف الدولة العثمانية من الجالية الأندلسية بالجزائر ما بين سنتي 1571 و1573"، في أعمال المؤتمر العالمي الخامس للدراسات الموريسكية الأندلسية حول الذكرى خمسمائة سنة لسقوط غرناطة (1492-1992م)، ديسمبر 1991، زغوان: سيرمدي، 1993، ج2، ص47.

## القسم الرابع

### الذاكرة الموريسكية في الكتابات العربية والتراث الأخمياي

1 - الأندلسيون في كتابات أحمد المقرئ التلمساني (أزهار الرياض نموذجاً):

إذا كان الباحثون والمؤرخون الغربيون وبعض الدارسين العرب محظوظين بالعثور على معلومات تاريخية هامة من المصادر الأرشيفية التابعة لمحاكم الإسبانية أول العدول الإسبانية، وكذلك من المخطوطات الأخميايية بمدرسة الأمانة جميعها بالتاريخ الموريسكي. فإن المصادر العربية قد ألفت أضواء جديدة على عدد من التساؤلات. ومن هذا المنطلق فإن المعلومات التي أوردها المقرئ التلمساني الأندلسيين من خلال كتابه: (أزهار الرياض) يقدم لنا إطاراً جديداً للتأريخ الفارين من إسبانيا، ومن جهة أخرى منحنا هذا المصدر التاريخي معلومات مفيدة حول مشاعر الكره والحقد ضد الموريسكيين ومواقف السلطات الإسبانية تجاه قضيتهم ومأساتهم.

يهدف هذا البحث إلى دراسة موضوع الأندلسيين من خلال ما أنتجه المقرئ، ذلك لدقة هذا الفضاء التاريخي حيث حاولنا تسليط الأضواء على أهمية العنصر الأندلسي في الكتابات التاريخية للمقرئ، وهذا من خلال كتابه (أزهار الرياض) وهو لا يزال المصدر الرئيسي للباحثين في تاريخ الأندلس والمغرب العربي.

ونحن بمرصنا على دراسة مأساة الموريسكيين الحضارية بالأندلس، استناداً إلى دلائل الإشارات التاريخية التي تعرض إليها المقرئ بخصوص صرخة الأندلسيين واستغاثتهم بالسلطات العثمانية بواسطة قصيدة شعرية أوردها في (أزهار الرياض)، وهي طويلة في نحو مائة بيت<sup>(1)</sup>.

(1) أحمد، المقرئ، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، (تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري)، القاهرة، 1939-1942، ج1، ص109-111.

وابن عمار، وخوجة<sup>(1)</sup>، ووصف دي تاسي<sup>(2)</sup> الجالية الأندلسية بطبقة الأغنياء في مجتمع الإيالة الجزائر، فهم يسكنون المدن وقيمون في منازل كبرى ويملكون الثروة ويتعاطون التجارة وخاصة تجارة الفداء<sup>(3)</sup>.

إن حساسية البعد الثقافي الاجتماعي والاقتصادي بين أهل الأندلس والطبقات الاجتماعية المكونة لمجتمع الإيالة، كانت من العوامل التي دفعت بأغنياء الجالية إلى تأسيس جمعية أشرفت بدورها على إقامة مسجد وزاوية ومدرسة، وذلك في شهر محرم عام 1033هـ/1624م، وكانت هذه الجمعية الأندلسية مكونة من الأشخاص التالية أسماؤهم: محمد الآبلي وإبراهيم بن محمد بوساحل، والمعلم موسى ومحمد شلالة ومحمد بن العنجدون ومحمد السميح وعلي بن عمر ويحيى الخياط<sup>(4)</sup>، وحبس أغنياء الأندلس على ذلك أوقافا داخل مدينة الجزائر وخارجها، لتنفق على شؤون العبادة وتقديم العون لفقرائهم، وكانت هذه الأوقاف تشمل العديد من الأملاك العقارية والأراضي الزراعية، حيث جعلوا محمد الآبلي مشرفا عليها والذي أصبح فيما بعد وكيل أوقاف الأندلس<sup>(5)</sup>.

(1) ناصر الدين، سعيدوني، "صور من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر": المجلة العربية، العدد 27، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، سبتمبر 1994، ص 238.

(2) دبلوماسي فرنسي كان مسؤولا عن القنصلية الفرنسية بالجزائر، بالإضافة إلى أنه كان مندوب للبحرية من طرف ملك إسبانيا في هولندا، زار الجزائر في 1685.

(3) L. de Tassy : op . cit . p.54.

(4) ناصر الدين، سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب 1988، ج 2، ص 40.

(5) Devoulx . « les édifices religieux de l'ancien Alger » in : R . A (N°12) : 1868 . p. 277-280..

وكان الأندلسيون يتمتعون بمكانة خاصة في المجتمع الجزائري، وخصوصاً لدى العثمانيين، حتى أن بعضهم كان يعين على أوقاف حنفية عثمانية مثل حميدة الأندلسي الذي كان عضواً في لجنة إدارة سبل الخيرات<sup>(1)</sup>، ومثل سليمان الكبابطي الذي عينه خضر باشا وكيلاً على أوقاف جامع سوق اللوح<sup>(2)</sup>.

وإذا كانت التركات تعرفنا بالثروة المخلفة عن المتوفى، مما يسمح لنا دون شك بدراسة مستوى الثروات، وهو أمر في غاية الأهمية، فهي تعكس لنا شتى مظاهر الحياة المادية التي كان يحياها الفرد من بساطة ورفاهية.

وتفيدنا تركة عائشة بنت أحمد حويجات أنها خلفت حانوتين أحدهما كائن بالخضارين والآخر بالفكاهين قرب شارع باب عزون، واختص الحانوتان بنشاط التجارة وبيع الصابون، وبعد تسوية الإرث الحاصل، اشترى الحاج علي بن حبس الأندلسي صانع الشواشي الحانوتين بثمن قدره 2800 دينار، وأشهر على نفسه بأنه يعبسهما لفائدة فقراء الحرمين الشريفين مكة والمدينة وفقراء الأندلس مناصفة بينهما، وجعل الناظر على فقراء الحرمين الحاج محمد بن سالم، والناظر على فقراء الأندلس كلاً من الحاج يحيى الخياط وابن محمد الأندلسي<sup>(3)</sup>.

ونقرأ في أحد العقود الشرعية أن جماعة من شرفاء الأندلس وهم على التوالي: الحاج ابن الناسك الخير والحاج ابن محمد بن قاسم والناسك ابن الحاج يوسف بن سليمان والناسك ابن الحاج أحمد بن جعفر والمكرم محمد بن قاسم، أنهم تملكوا

(1) تذكر المصادر أن تاريخ مؤسسة سبيل الخيرات يرجع إلى سنة 999هـ/1584م، وتدعمت مكانتها في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني، حيث أصبحت تحتل المرتبة الثانية بعد مؤسسة الحرمين من حيث وفرة مداخيلها وكثرة أوقافها، للمزيد راجع:

Tableau de la situation des établissements français : année . 1830-1837 . p. 223.

(2) أبو القاسم، سعد الله، المرجع السابق، ج 1، ص 237-238.

(3) س، م، ش، عليه (16) مذكر

ولد أحمد المقرئ ونشأ وتثقف في تلمسان (986هـ - 1578م)، وقد نال وهو بهذا هذا التكوين الأصلي حتى وهو يتمتع بالجاه والحظوة في القاهرة ودمشق. ولحق المقرئ إلى أسرة ذات علم وصلاح، تعود أصولها الأولى إلى بلدة مقرّة بمنطقة الموحدين بالشرق الجزائري، استقرت بتلمسان وتولى أفرادها وظيفة القضاء والإفتاء والمعلمة والإمامة. وكانت مصادره تعتمد أساساً على الروايات ومعارفه كشاهد عيان لما هو عليه في الأندلس في حياته أو ما أخذ من الجيل الذي سبقه من أهل الأندلس المطرودين<sup>(1)</sup> ومن الواضح أن إنتاج المقرئ غزير وحياته خصبة وتأثيره كبير، وكان يذكر تلمسان وتلمسان وجمالها وهو في المغرب والمشرق وكان يقارنها بفاس ودمشق. وتؤكد بعض الدراسات إلى أن الفتن التي عاشتها الجزائر في بداية العهد العثماني هي السبب في هجرة المقرئ نهائياً من تلمسان إلى فاس<sup>(2)</sup>.

وأوجب المقام في هذا الصدد أن الوطن كان دائماً في ذاكرة المقرئ وهو ما أشار إليه في هاذين البيتين:

بلد الجدار <sup>(3)</sup> ما أمر نواها	كلف الفؤاد بحبها وهواها.
يا عاذلي في حبها كن عاذري	يكفيك منها مأوها وهواها <sup>(4)</sup> .

ويمتاز المقرئ بمعاصرته للأحداث (986-1041هـ / 1578-1631م)، إذ عاش في نهاية القرن السادس عشر، وبداية القرن السابع عشر الميلادي، مما سمح له

(1) أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998، ج2، ص212-223. وحول ترجمته يرجى العودة إلى: ناصر الدين، سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999، ص327-336.

(2) لقد كثرت هجرة علماء تلمسان إلى المغرب خلال فترة المقرئ، وأشار إليها ابن مريم في كتابه: البستان، وابن سليمان في كتابه: كعبة الطائفين.

(3) بلد الجدار هي تلمسان.

(4) - أزهار الرياض، ج1، ص6.

في الأدبيات التي تحدث عنها، خصوصا المتعلق منها بالأندلس. إن المعلومات الواردة في المصادر المقري، تقدم لنا إطارا جديدا حول إثارة موضوع الاستغاثة الموجهة إلى السلطات العثمانية بعد سقوط غرناطة (1492م). من جهة أخرى منحنا (أزهار الرياض) معلومات مفيدة حول ظروف الهجرة العثمانية في اتجاه بلدان المغرب العربي ومواقف سكانها من ذلك.

### بدء الاستغاثة الشعري:

أما حفظ لنا المقري القصيدة الشهيرة التي وجهها الأندلسيون إلى الدولة العثمانية في شخص سلطانها بيازيد الثاني (886-918هـ/1481-1512م)، وهي القصيدة التي يستصرخ فيها صاحبها السلطان العثماني ويستغيث به لنصرة إخوانه المسلمين<sup>(1)</sup>، ويصف له ما تترله إسبانيا المسيحية برعاياها الجدد وما يصيبهم من مصائب ديوان محاكم التفتيش.

ومن المرجح أن هذه الرسالة أو القصيدة، وجهت بعد انتفاضة البشارات (1501م)، وما تلاه من إجراءات القمع ضد العرب المنتصرين، وذلك حوالي سنة 1501م، وهي تلخص وضع آل إليه المسلمون في الأندلس بعد سقوطها بيد المسيحيين عام 1492م<sup>(2)</sup>. لقد كان سقوط غرناطة (1492م) نهاية للحضارة العربية الإسلامية بالأندلس، وانتصارا للحضارة الغربية المسيحية، فالإسبان جعلوا من سقوط الأندلس مؤشرا لحركة الاسترداد، وتوحيد إسبانيا دينيا وجغرافيا. وقد انتهت بنود معاهدة تسليم غرناطة حقوقا وامتيازات للمسلمين، سرعان ما تحولت إلى سياسة قمعية وخرق الاتفاقية المبرمة بين الطرفين الإسلامي والمسيحي،

(1) الدراسات الموريسكية في الخمس والعشرين سنة الأخيرة في إسبانيا، في أعمال المؤتمر العالمي السادس للدراسات الموريسكية الأندلسية، (جمع وتقديم: عبد الجليل التميمي) زغوان، سيرمدي، 1995، ص 25-27.  
(2) ليلي الصباغ: "ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ أواخر عام 1568 والدولة العثمانية"، ص 346-347. مجلة الأصالة، الجزائر، عدد 27، سبتمبر، أكتوبر 1973.

فاستهدفت تنصير وتهجير العناصر الإسلامية قسرا من غرناطة<sup>(1)</sup>. وإليك بعض ما ورد في تلك القصيدة المؤثرة في وصف أنواع الاضطهاد والتعسف الذي لحق بالموريسكيين، بعد دياحة نثرية قصيرة ودياجة شعرية طويلة في تحية السلطان العثماني بايزيد:

سلام كريم دائم متجادد	أخص به مولانا خير خليفة.
سلام على مولانا ذي المجد والعلی	ومن ألبس الكفار ثوب المذلة.
سلام عليكم من عبيد تخلفوا	بأندلس بالغرب من أرض غربة <sup>(2)</sup>

وانطلاقا من هذه الأبيات يبدأ مشهد المأساة الموريسكية من مختلف الجوانب الإنسانية والحضارية والثقافية، فمن خلال المادة الشعرية التي بين أيدينا، يمكننا حصر هذه المأساة من خلال ثلاث مراحل كبرى<sup>(3)</sup>:

### التنصير القسري:

تؤكد الوثائق المكتشفة في أرصدة محاكم التفتيش أن الإسبان لم يحترموا بنود معاهدة تسليم غرناطة، وحاربوا كل ما هو غير كاثوليكي، ووزعت محاكم التفتيش بيانا كاشفا عن مظاهر اتباع الدين الإسلامي للوشاية بالمسلمين.

وقد تسبب هذا البيان في محاكمة الآلاف من المتهمين الذين وقعوا في فخ الوشاية والحقد والانتقام، وحكم على الباقين بالسجن والجلد والاسترقاق والتهجير.

(1) أسعد، حومد، محنة العرب في إسبانيا، بيروت، 1980، ص 107-116.

(2) أزهار، ج 1، ص 109.

(3) Djemaa, chikha, Les Morisques dans la poésie Andalous , Tunis, 1984 T1, pp.171-180

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم	بدأ غدرهم فينا ينقص العزيمة
وكان عهدا كان قد غرنا بها	ونصرنا مرها بعنف وسطوة
عدرنا ونصرنا وبدل ديننا	ظلمنا وعملنا بكل قبيحة <sup>(1)</sup> .

كان الأندلسيون بين رحي التعذيب والهجرة قبل فرض سياسة التنصير وحيث  
 إلا يغيب عنا أن الدين قد أثر على فكر وسلوك الإسبان خلال القرن  
 السادس عشر. وعليه فإن التعصب الديني كان قابعا في سياسة ملوك إسبانيا إذ  
 عنه الخوف المستمر من بقاء المسلمين بإسبانيا وتواصل الفتوحات العثمانية في  
 أوروبا، لهذا لجأت الحكومة الإسبانية إلى تعميم الإرغام على التنصير، والواقع  
 أن النصوص الشرعية صورت مختلف الواجهات لسياسة التنصير:

### 1- الاحتفال بالشعائر الدينية:

كان لزاما على الموريسكيين حضور مختلف الطقوس المسيحية، وإلا يتعرضون  
 أسادة أملاكهم أو السجن وهذا ما سجلته الأبيات:

ومن لم يجي منا لموضع كفرهم	يعاقبه اللباط شر العقوبة
ويلطم خديه ويأخذ ماله	ويجعله في السجن في سوء حالة <sup>(2)</sup>

وللسير قدما في تطبيق سياسة الاندماج، قررت السلطات الإسبانية تحت  
 إشراف الأساقفة، أن كل الموريسكيين يجب عليهم تلقي مراسيم دفن كنسي وأنه  
 يتحكم عليهم دفن موتاهم في نفس مقابر المسيحيين.

(1) أزهار، ج 1، ص 113.

(2) نفسه، ج 1، ص 112.



ومن جاءه الموت ولم يحضر الذي	يذكرهم لم يدفنه بحيلة
ويترك في زبل طريقا مجلدا	كمثل حمار ميت أو هيمة <sup>(١)</sup>

قد توبع الموريسكيين من قبل رجال الكنيسة وأعوان محاكم التفتيش، الصلاة والصوم، ومنعوا من تأدية الشعائر الإسلامية.

ومن صام أو صلى ويعلم حاله	ففي النار يلقوه على كل حالة
وفي رمضان يفسدون صيامنا	بأكل ورب مرة بعد مرة <sup>(٢)</sup>

وظل الموريسكي متمسكاً بعبادته، وهو في السجن وتحت وطأة التعذيب وسيتحول هذا الشعور إلى حقد المسيحيين على الموريسكيين، ويتطور بشكل سريع ليتنقل من حقد ديني إلى حقد عام وشامل لجميع التقاليد والعادات الموريسكية.

## 2- التقاليد والعادات:

أجبر المسيحيون المرأة الموريسكية على التبرج وأكل الخنزير والموتوسي وبالاختلاط مع الأجانب بالإضافة إلى عدم التلفظ باسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بل بشتمه أيضا وهذا ما يوضحه البيت التالي:

وقد أمرونا أن نسب نبينا	ولا نذكره في رخاء ولا شدة <sup>(٣)</sup>
-------------------------	--

## الإقصاء الحضاري:

تميزت هذه المرحلة بقيام الموريسكيين بعشرات الثورات ضد التعسف، فكانت نتيجة السياسة اندلاع ثورة في حي البيازين بغرناطة عام 1502م<sup>(٤)</sup>. ومما لا شك فيه

(1) نفسه.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

(4) ليلي، الصباغ، المقال السابق، ص 119.

الكنيسة الكاثوليكية (إيزابيلا وفرديناند: 1474-1516م) كانا على اتفاق مع الكنيسة بأعمال التنصير القسري. فقد كان هؤلاء يؤمنون بأن وحدة العقيدة هي الأساس الأول الذي يمكنه من توحيد إسبانيا المجزأة، وتمسك المسلمين هم الذي أواصر الصلة بينهم وبين إخوانهم بالمغرب وفي العالم الإسلامي، ولا سيما الدولة العثمانية، ومن ثم فإن تنصير المسلمين وإخراجهم هو الضمان الوحيد لتوحيد إسبانيا ووحدها.<sup>(1)</sup> وقد واكب هذه السياسة أن اقتلعت إسبانيا جذور المسلمين التاريخية من الناحية الدينية والثقافية والاجتماعية:

#### أ. الناحية الدينية:

عمقت روح الكراهية عندما أصدرت السلطات الأوامر بحرق المصاحف الآلاف من الكتب العربية الحاملة للعلوم والثقافات والتي قدرها المؤرخون بآلاف الألوف<sup>(2)</sup>. وكان الهدف من وراء هذه العمليات الإقصائية هو طمس معالم الحضارة العربية الإسلامية بالأندلس وفي هذا السياق تشير القصيدة:

وأحرق ما كانت لنا من مصاحف	وخلطها بالزبل أو بالنجاسة
وكل كتاب كان في أمر ديننا	ففي النار ألقوه بهزء وحقرة <sup>(3)</sup> .

(1) Fernand Braudel, La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II Armand colin, 2éd, Paris, 1966, T 2, p.577.

(2) نهاية الأندلس، ص 346.

(3) أزهار، ج 1، ص 112.

## ب. الناحية الثقافية:

لقد تم القضاء على الموروث الحضاري الإسلامي الذي خلده الأندلسيون  
الأجيال زهاء ثمانية قرون، حيث تشير القصيدة إلى ذلك صراحة:

ولم يتركوا فيها كتابا لمسلم	ولا مصحفا يخلى به للقراءة. <sup>(1)</sup>
-----------------------------	---

## ج. الناحية الاجتماعية:

منعت السلطات الإسبانية الموريسكيين من ارتداء الملابس العربية وأجبرتهم  
على تغيير أسمائهم العربية الإسلامية إلى أخرى إسبانية مسيحية.

وقد بدلت أسمائنا وتحولت	بغير رضا وغير إرادة. <sup>(2)</sup>
-------------------------	-------------------------------------

وبالحاج من البابا بروما أصدر ملك إسبانيا فيليب الثاني (1556-1598م)  
قرارات ذات تدابير صارمة في حق الموريسكيين منها توصيات اقترحها رجال  
الكنيسة يمكننا حوصلتها في النقاط التالية:

- منع استعمال الألبسة العربية.

- إجبار الموريسكيين على ترك أبواب بيوتهم مفتوحة أيام الجمعة والأعياد.

- يمنع النساء من التنظيف ودخول الحمامات.

- يمنع على المرأة الزواج طبقا لمبادئ الشريعة الإسلامية.

(1) نفسه.

(2) نفسه.

مع الآباء من تلقين أبنائهم الشعائر الإسلامية.

إجبار الأطفال على حضور الحفلات الدينية المسيحية في الكنائس<sup>(1)</sup>.

وقد تعرض الموريسكيين الذين كانوا يعيشون في مختلف مناطق الأندلس إلى  
الطرد الجماعي وهذا حسب ما ورد في القصيدة:

وقد بدلت أسمائنا وتحولت	بغير رضا منا وغير إرادة <sup>(2)</sup> .
فسل وحرأ عن أهلها كيف أصبحوا	آسارى وقتلى تحت ذل ومهانة.
وسل بلفيقا <sup>(3)</sup> عن قضية أمرها	لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة.
ومنياقة <sup>(4)</sup> بالسيف مزق أهلها	كذا فعلوا أيضا بأهل البشرة <sup>(5)</sup> .
والدرش بالنار أحرق أهلها	بجامعهم صاروا جميعا كفحمة <sup>(6)</sup> .

الطرد:

ومن المعروف أن ترتيبات إقصاء الموريسكيين من إسبانيا وطردهم كان من  
السياسة الجوهرية المقاومة المستمرة التي أبداها المسلمون في الأندلس طوال خمسة  
قرون (1492-1609م)، لذلك أصدر فيليب الثالث (1598-1621م) بتاريخ 22  
نوفمبر الثانية 1018هـ الموافق لـ 22 سبتمبر 1609م، مرسوما ملكيا يقضي بطرد  
جميع الموريسكيين. وجاء تبرير الملك حول هذا الطرد «لقد حاولت منذ سنين

(1) لوي، كاردياك، المرجع السابق، ص 43.

(2) نفسه.

(3) قلعة بالمرية، أنظر: أزهار، ج 1، ص 41.

(4) البشارات جبل بمنطقة غرناطة.

(5) Djemaa, chikha, op.cit, p 177.

(6) المصادر العربية والأسبانية تؤكد على مثل هذه الجرائم والمثلة في المقابر الجماعية المكتشفة في إسبانيا في  
سنة 1980، وهي تؤكد على صدق هذه الأبيات وكأنها ليست من نسيج خيال البشر.

طويلة على تنصير موريسكي هذه المملكة وإصداري لقرارات العفو المتتالية في شأنهم وبمساعدي رجال الدين في تحويلهم إلى ديانتنا المقدسة لكنهم أصرروا على التمسك بدينهم»<sup>(1)</sup>

ويتبين لنا عند دراسة بداية المأساة الموريسكية أن نداءات الاستغاثة بالإنسانية بمراسلات مسلمي غرناطة للسلطات العثمانية ومطالبة بيازيد الثاني بالتدخل في البابا بروما، ومطالبة الأسبان باحترام حرية الأديان تمثل ما يحظى به المرء في بلاد المسيحيين في البلاد الإسلامية، ومن جهة ثانية السماح لهم بالهجرة. وهذا ما نعالقه في الآيات التالية:

فسل باهم أعني المقيم برومه	بماذا أجازوا الغدر بعد أمانة
و ما لهم مالوا علينا بغدرهم	بغير أذى من غير جريمة.
و قد بلغ المكتوب منكم إليهم	فلم يعلموا منه جميعا بكلمة <sup>(2)</sup> .

والذي شجع الموريسكيين على الهجرة صدور فتاوى من طرف فقهاء المغرب والتي أكدت على وجوب الهجرة «أن الهجرة من أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة ولا تسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية (الملك) لعنة الله على معاقلهم وبلادهم إلا قصور العجز بكل وجه، وحال الوطن والمال، فإن ذلك كله ملغى في نظر الشرع»<sup>(3)</sup>. وتجدد الإشارة هنا إلى القصيدة تنصح وتحذر الأندلسيين وتشجعهم أيضا على الهجرة، وكأنها تحذر

(1) Garcia Arenal, Mercedes, Los Moriscos, Madrid, 1975., pp.251-254.

(2) أزهار، ج 1، ص 112.

(3) أحمد الونشريسي، المعيار والجامع العرب في فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، (إشراف: محمد حجي)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981، ج 2، ص 121-122.

والنفسية والمادية لاستقبال اللاجئين في الضفة الأخرى من العالم الإسلامي  
 ومعايير الصعيدين: الشعبي والرسمي.

وما من شيء من البحر مؤمنا	بما شاء من مال إلى أرض عدوة <sup>(1)</sup> .
---------------------------	--

والواقع أن إسبانيا قد استغلت رخاء الأندلس من خلال هجرة الموريسكيين  
 في بداية منتصف القرن السادس عشر، وهذا بفضل مصادرة أملاكهم وإرهابهم  
 المبررات. والتتبع للأحداث التاريخية يلاحظ بأن الأجواء والخلفيات التي حفت  
 بقرار الطرد، كانت نابعة من إرادة سياسة محضة. لكن القصيدة التي أوردتها  
 في (أزهار الرياض) تعكس وجهة القرار الذي كانت أبعاده أعمق بكثير  
 مما تتجلى في البعدين البسيكولوجي والاقتصادي معا. فعلى الصعيد  
 البسيكولوجي، كان قرار الطرد (1609-1614) يسبب الخوف والقلق المستمر من  
 الإسبان شعبا وحكومة والذين شاهدوا بأعينهم تصاعد الثورات والرفض  
 المبررات الذي أبداه الموريسكيين ضد سياسة التنصير والإدماج. أما على الصعيد  
 الاقتصادي فيتضح من خلال الحقد والانتقام النابع من نفسية المسيحي تجاه  
 الموريسكي الذي عرف بنشاطه التجاري والحرفي المميز بالرخاء في إسبانيا  
 المسيحية.

## 2. الحرف العربي: تعبير مقدس في نصوص المخطوطات

### الأخميادية الموريسكية.

إن فترة الحضارة الأندلسية قد ملأت نفوس الناس إعجاباً واعتزازاً، باعتبارها إحدى الحلقات الأساسية الفاعلة في فلسفة الحضارة العربية - الإسلامية وهداياتها المختلفة، وتطعيم مضمون المعرفة الإنسانية الشاملة حيث منحتنا الأندلس عن طريق أمرائها وعلمائها وفلاسفتها وكتابها وفقهائها وشعرائها وعمرائها أفضل الهدى وأخلدها. فلا غر وأن عزف الناس باحثين ومؤرخين عن دراسة مأساة شعبها الذي حارب في لغته ودينه وهويته وحضارته.

### سقوط غرناطة الإسلامية:

كان لسقوط غرناطة سنة 1492م صداه الكبير في الدول المسيحية التي استولت جواباً على سقوط القسطنطينية قبل حوالي أربعين سنة (1453م) وكانت الأندلس قد أوجدت دواوين التحقيق (محاكم التفتيش)<sup>(1)</sup> سنة 1476م لمطاردة الملاحين واعتبرت المناطق الإسلامية في مملكة غرناطة وشرق الأندلس، والشعر الأندلسي وقطلونية وإقليمي لامنشا واسترامادو المجال المناسب لقمع المسلمين.

وتولى شارل الأول شارلكان<sup>(2)</sup> (1516-1556م)، حكم إسبانيا، وشارك المشرف على سياسة جميع الأراضي الإسبانية ضد المورسكيين، وفي عهده تم إجراء عدة مراسيم كانت تهدف للقضاء على أي انتماء عربي إسلامي للموريسكيين، ومن أبرزها:

(1) اسم محاكم التفتيش هو المشهور لدى النصارى والمؤرخين وأصل الاسم دواوين التحقيق  
(2) شارل الأول بالفرنسية لإسبانيا، والعامية بالنسبة للإمبراطورية الأسبانية، وشارل الثاني، يعني الخامس

- رسوم خاص بالملابس الإسلامية ومنعها.
- رسوم خاص بالذبائح ومنع الطريقة الإسلامية بها.
- رسوم خاص ببيع العقارات غير المنقولة.
- رسوم خاص بمنع الكتب العربية ومنع اللغة والأسماء العربية.
- رسوم خاص بمنع الأسلحة وحملها واقتنائها على الموريسكيين.
- رسوم خاص بالإرث وتحريمه على المسلمين.
- رسوم خاص بمصادرة ممتلكات الهاربين من الموريسكيين.
- رسوم خاص بمعاقبة من يمارس الشعائر الإسلامية.
- رسوم خاص بالزواج<sup>(1)</sup>.

1. زار شارلكان غرناطة سنة 1526، وقدم له ثلاثة ممثلين عن الموريسكيين

المسلمين.

«دون فيرناندي بنيفش، ودون ميخيل دي أراغون، وديغو لوبث بنخارة»  
 الذين بدلتهم إخوانهم وخاصة تلك الأحكام القاسية التي أصدرها المجلس  
 في 1518م على الموريسكيين. وخوفا من غضب الإمبراطور،  
 قامت لجنة ملكية لتقصي الحقائق، وكانت نتيجة تقرير اللجنة أن أمرت  
 بالاعتذار عما يلي:

(1) انظر: شافر، موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، ط1، بيروت: دار العلم للملايين 1993، ج2،



- 1 - يغفر للموريسكيين ما ارتكبه حتى عام 1526م.
- 2 - منع الموريسكيين من استخدام اللغة العربية سواء في المحادثة أو الكتابة وعليهم تعلم اللغة الإسبانية.
- 3 - عدم ارتداء الملابس العربية وارتداء الملابس الإسبانية.
- 4 - حظر استخدام الحمامات.
- 5 - منعهم من ممارسة الاحتفالات والتقاليد الإسلامية.
- 6 - نقل محاكم التفتيش من جيان إلى غرناطة لمراقبة الغرناطين وهم أكبر تجمع موريسكي في إسبانيا زمنئذ ومركز انطلاق الثورات.
- 7 - فرض التنصير وإطلاق أسماء إسبانية على المواليد الجدد<sup>(1)</sup>.

قضى الملك الإسباني فليب الثاني (1556-1598م) على آخر ما تبقى من السياسة المعتدلة التي حاول أن ينتهجها أبوه شارل الخامس، فأصدر عدة مراسيم تبين من جهة مدى الفزع الذي أصابه من الغزو الإسلامي الجديد للمنطقة وتبين من جهة أخرى مدى التأثير الذي يمارسه رجال الكنيسة على الملك لجعل السياسة في خدمة الدين، ومن جملة المراسيم التي أصدرها الملك، الأوامر الصادرة عام 1566<sup>(2)</sup>.

وقد صدرت توصيات هامة منها:

- منع استعمال اللغة العربية، ويمنح الموريسكيون مهلة ثلاثة أعوام لتعلم اللغة القشتالية، وكل المعاملات والعقود بهذه اللغة تعتبر باطلة.

- منع استعمال الألبسة العربية.

(1) مصطفى، شاعر، المرجع السابق، ص 1336.

(2) تدخل البابا وأبلغ فليب الثاني بضرورة اتخاذ تدابير صارمة بحق الموريسكيين حيث يبقون على عاداتهم وتقاليدهم الإسلامية.

إجبار النساء الموريسكيات على كشف وجوههن.

- إجبار الموريسكيين على ترك أبواب بيوتهم مفتوحة في أيام الأعياد لمراقبة ما  
يحدث فيها.

- يمنع الموريسكيون منعا كليا من امتلاك العبيد<sup>(1)</sup>.

والجدير بالذكر أن المؤرخ الفرنسي بروديل (Braudel) قد أشار في دراسته  
إلى: «أن المشكل الموريسكي صراع ديني، وبمعنى آخر أعمق صراع حضاري،  
وهو بهذه الصفة يصعب حله وبالتالي فهو مدعو لأن يستمر»<sup>(2)</sup>. وبالفعل فقد كان  
من طرف متشبثا بهويته الحضارية، بل ويحاول أن يستوعب الآخر في إطار المواجهة  
ورفض الاندماج.

لقد كان الموريسكيون هدفا لكراهية شاملة من طرف المسؤولين ورجال الدين  
ومحاكم دواوين التفتيش حيث ضيقوا عليهم الخناق وقطعوا عليهم الطريق والأمل  
وافتكوا منهم كل عناصر مقومات حياتهم، فأصبحوا في أواخر القرن السادس عشر  
كلهم يجهلون اللغة العربية ويتكلمون اللغة القشتالية. وهذا ما يسفر وجود ما لا  
يقبل عن ثلاثمائة مخطوط في العالم حررت بالأحرف العربية ولكن باللغة القشتالية  
وهو ما أطلق عليه بالأخمياادو.

وقد ترجمت هذه المخطوطات عن معاناتهم اليومية للحفاظ على انتمائهم  
العربي الإسلامي وتشبثهم المستميت بثقافتهم وحضارتهم. مع العلم أن التعصب  
الديني الأعمى كان وراء حرق مئات الآلاف من المخطوطات العربية في الساحات

(1) محمد، رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و17م، ط3، الدار البيضاء: إفريقيا  
الشرق، 1991، ص90-91.

(2) Fernand, Braudel, la Méditerranée..., op.cit, T2, P.402.

العمومية بالأندلس، وهي المخطوطات التي ترجمت عن فلسفة الحضارة الموريسكية الأندلسية والتي تعتبر بحق إحدى الحلقات الذهبية في مسيرة الفكر البشري.

لقد قضت السياسة الإسبانية يومئذ بتهميش المجتمع الموريسكي وتجهيله تماماً، بعد أن قدم هذا المجتمع رصيذاً فنياً وحضارياً ومعرفياً لم تعرفه مجتمعات الأندلس الأبيض المتوسط الأوروبية إلا بعد عصر النهضة، لقد حرمت عليهم تعليم اللغات العربية وأمرت بالاستيلاء على كل المدارس وملاحقة الفقهاء والمعلمين الذين كانوا يؤمنون سراً بتعليم الأطفال المسلمين، ومنعت الالتحاق بالجامعة ولا الحصول على الثقافة العلمية وهذا بسبب قوانين صفاء الدم<sup>(1)</sup>.

في حين كانت جامعات الأندلس مفتوحة أبوابها لكل الطلاب مسلمين ومسيحيين ويهود، هو ما يترجم واقعاً وحقيقة عن عالمية المعرفة العربية الإسلامية، وفي هذا العدد تشير بعض الوثائق الإسبانية إلى محاكمة أحد الموريسكيين من طرف محاكم التفتيش ومعاقبته بـ 200 جلدة وقضائه خمس سنوات كجذاف على ظهر السفن الملكية الإسبانية ومصادرة أملاكه، والسبب هو العثور على عدد من الكتب العربية في بيته<sup>(2)</sup>.

(1) جاكين فورنال، قارين "الصيدلية الموريسكية وممارسة الطب لدى المجموعة الموريسكية بمنطقة أرغوان 1540-1620" (تعريب: د. عبد الجليل التميمي)، المجلة التاريخية المغربية، العدد 15، 16 - تونس، جانفي 1979، ص 50-52.

(2) لوي، كاردياك، الموريسكيون...، المرجع السابق، ص 69.

## الإقصاء الحضاري:

سلك دراسات متخصصة تسعى لشرح طبيعة السلوك الموريسكي خلال القرنين العاشر عشر، على ضوء تفكيرهم ومواقفهم وآثارهم الكتابية. وإننا نعلم الشيء الكثير عن الاحتضار السياسي للموريسكيين، لكننا لازلنا نحتاج إلى تأطير أفعالهم النفسي والثقافي. لقد استعمل الموريسكيون اللغة الإسبانية المعروفة باسم الأخميا دو -الموريسكي ونسخوها بالأحرف العربية. وقد سجلوا لنا في هذه المخطوطات جوانب بالغة الأهمية في صراعهم الحضاري وارتجاجاتهم النفسية، وبعثوا عن هويتهم الثقافية وتمسكهم بمبادئ دينهم<sup>(1)</sup>.

وبسبب السرية والمراقبة التي فرضتها عليهم محاكم التفتيش الإسبانية إلتجأوا إلى استعمال الأدب الأخميا دو. والفترة الأخميا دية كتبت بالخط المغربي الذي تعود عليه الموريسكيو القرن السادس عشر. وهذه النصوص لها مميزات السرية، فهي إلى جانب أنها عكست وجهة النظر الإسلامية من خلال محاولة المسلمين تحديد الموقف بالنسبة لإسبانيا التي مزقتها الحروب، إلا أنها من جهة أخرى بينت أن الموريسكيين على الرغم من عدم قدرتهم على استعمال اللغة العربية لغة أجدادهم العلماء الأندلسيين، فقد أظهروا التشبث بها، وهذا على الرغم من تحريم استعمالها رسمياً، عن طريق عدد من

(1) نصبت مجموعة من اهتمامات الباحثين المعاصرين على مثل هذه المخطوطات وبرزت على إثرها أسماء لكبار الباحثين في حقل الدراسات "الأخميا دية" كالبروثالميس (Alvaro Galmes) وأطمار هيثي (Ottmer Hegyi)، ومانويل آلبار (Manuel Alvar)، وكشفت نظرياتهم عن مدى أهمية الجانب اللساني في هذا التراث، وإجماعهم على بروز فعالية روح المقاومة عند الفرد الموريسكي الذي جابه عصره بتحدياته المجسدة في ابتكار مثل هذا النوع من الثقافة المزدوجة.

للمزيد من التفاصيل راجع:

عبد الله، حمادي، الموريسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس 1492-1616، الجزائر: الدار التونسية للنشر، والمؤسسة الوطنية للكتاب، 1989، ص 107-108.

المراسيم خلال القرن السادس عشر. كما يفسر أن عددا كبيرا من هذه المخطوطات لم يحكم سريتها لم تكشف وتدرس إلا منذ زمن قصير جدا. وقد اكتشف بعضها من طريق الصدفة مختبئة في أعمدة البيوت أو سقوف البيوت الإسبانية<sup>(1)</sup>.

يعتبر هذا الأدب التنبؤ وهو ما أطلق عليه بالأخميادو-الموريسكي، ذي الراس اليائسة والمعقدة، بمثابة انقلاب إجباري وقع للموريسكيين في نهاية القرن السادس عشر، واعتبره المؤرخون كمصدر تاريخي بالنسبة لأحداث القرن السادس عشر، حيث توجد به حقائق للصراع الدائر بين الموريسكيين والمسيحيين<sup>(2)</sup>.

ترك الموريسكيون تراثا ثقافيا، عمد مؤلفوه إلى تسجيله بلغة خاصة وجديدة. تعد من ابتكاراتهم، والتي اصطلح على تسميتها باللغة الأخميادو -أي الأعجمية- وقد جاءت هذه التسمية الغربية من كونها اعتمدت في التعبير عن معانيها المعقدة (الرومنشية) الإسبانية - وهي العامية اللاتينية، وقد سجل هذا التراث الثقافي الموريسكي، واعتمد الحرف العربي كإطار خارجي عوض الحرف اللاتيني.

وتؤكد المصادر التاريخية على امتداد هذه الثقافة المهجينة في إسبانيا طيلة القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين<sup>(3)</sup>. والمخطوطات الموريسكية هي نتاج مرهبة ارتبطت زمانيا ومكانيا بالصراع الحاد في إسبانيا بين ديانتين ونظامين حضاريين مختلفان سياسيا واجتماعيا وثقافيا.

(1) حول استعمال الأدب الأخميادو-الموريسكي في إسبانيا. راجع الدراسة القيمة

Nejib, Ben Jemia, la langue des derniers musulmans de l'Espagne, Publications de l'université de Tunis 1987, p.138.

(2) لوت لوباز، بارالت "النبوءة في الأدب الأخميادو-الموريسكي الأندلسي من خلال مخطوطة بالمكتبة الوطنية بباريس" (تعريب: عبد الجليل التميمي)، المجلة التاريخية المغربية، العدد 21-22، تونس جويلية 1981، ص 50-61.

(3) عبد الله، حمادي، المرجع السابق، ص 103-107.

ولعل الأديب الأعمى انتباه اللغويين نظرا للأهمية التي تنطوي عليها  
البيانية واللسانية وتفاعل الحرف العربي مع المعنى الأعجمي، وهو ما أفضى  
إلى تصنيف مجموعة هامة من الأنماط الصوتية ساهمت في كشف العديد من  
الأسرار الألسنية المعقدة. كما كان لها فضل في كشف التباين بين الأصوات في  
اللغات المتوسطة<sup>(1)</sup>.

ولعل الأقليات الموريسكية حين استعمالها للثقافة المزدوجة كانت تهدف إلى  
الاندماج على المقومات الشخصية وإنقاذها من خطر الذوبان والإندماج، ولعل  
الحرف العربي كمظهر خارجي للتبليغ من طرف الموريسكيين، يبقى بمثابة  
الرباط الإسلامي أو القناع الواقعي وهو ما ينفك يلوح كعلامة على مدى التلاقي  
الذي بين الحرف العربي والبعد الروحي عند الإنسان المسلم المضطهد. ولعل  
ظاهرة الاقتراض من اللغة العربية وخاصة حين يتعلق الأمر بالشعائر الدينية  
أما ظاهرة ملفتة للانتباه داخل هذا التراث المتبقي والمسجل بعزيمة المقاومة.

ونجد تأثير اللغة العربية في الآثار الأدبية الموريسكية من خلال حضورها البارز  
في إطار الأعمال والاقتراض والاشتقاق والاقتراس من كل ما يمت بصلة للغة  
العربية. وخاصة إذا تعلق الأمر بالمفاهيم الاصطلاحية الفقهية، وفي هذا السياق  
نشير وثيقة أخمياضية تحت رقم 5053 موجودة بالمكتبة الوطنية بمدير، حيث  
تضمن مسائل حول نزول القرآن، والوحي، وعلاقتها بالمسيح عيسى عليه السلام  
وحيث طرح أحد الباحثين إشكالية حول أهمية النصوص الأخمياضية وعلاقتها  
بالموروث اللاتيني والإغريقي المعروف بالرصيد الكلاسيكي، وعن إمكانية فهم  
النصوص الأخمياضية وحل رموزها من خلال الرجوع إلى استعمال اللغة العربية<sup>(2)</sup>.

(1) نفسه، ص 108.

(2) Reinhold, Kon Tzi, « La ascension del profeta Mahoma a los cielos en manuscritos  
Aljamiados y en el manuscrito arabe M 518 », in, A.S.I, du C.I.E.M, sur « Religion, identité

لقد خلد المورسكيون رغم القهر والحصار مجموعة من الآثار الفكرية والأدبية، يمكن حصر محاورها الرئيسية في المجالات التالية:

1 - كتابات ذات الموضوعات الدينية، وتشكل نصف التراث المتبقي من ذاكرة المورسكيين، حيث حرص هؤلاء منذ سقوط غرناطة عام 1492 على أن كل ما هو ديني إلى اللغة (الأخميادية) لتقريب المفاهيم للأقليات المورسكية، وتفقد رباطها الحضاري مع موروثها.

2 - كتابات ذات طابع قصصي، استمد مادته الأولى من تاريخ الفتوح الإسلامية والمغازي.

3 - كتابات ذات طابع جدلي، والتي خصّصها المورسكيون للدفاع عن العقيدة الإسلامية وإثبات صلاحية الرسالة الإسلامية<sup>(1)</sup>.

4 - كتابات فقهية، والهدف منها تنظيم حياة المورسكيين الدينية والاجتماعية<sup>(2)</sup>.

إن هذا الجانب من التراث الموريسكي، يعتبر مجالا واسعا للدراسات المعاصرة، التي أثمرت قدرة المورسكي في استعماله لغة ذات ثقافة مزدوجة خلدت الذاكرة الجماعية للموريسكيين في زمن الاضطهاد، وعبرت عن الشتات الذي كان يعاني

«et sources documentaires sur les morisques Andalous», (Etudes réunies et présentées par A. Temimi), P.I.S.D. N° 4, Tunis, 1984, T2, PP.45-54.

(1) قام المؤرخ الإسباني ألبارو بنشر دراسته حول الثقافة والفكر الموريسكي من خلال اللغة الأخميادية، وأشار إلى رفض هذه الجماعة لفكرة الاندماج مع المجتمع المسيحي. ووصل إلى أن الأدب الموريسكي يعد إطار مرجعيا للأدب الإسباني في بداية العصور الحديثة.

(2) عبد الله، حمادي، المرجع السابق، ص 116.

وارجعت المستوى الثقافي الذي بقي من الثقافة الأندلسية التي انطفأ نورها  
في غرناطة 1492م.

### التأثير اللغوي المزدوج:

إن موضوع التأثير اللغوي المزدوج ينحصر أساساً في مسألة الإسهام الأندلسي  
العربي في مجال اللغة. والواقع أن هذا النوع من الإبداعات الأدبية، ساهم بمستواه  
اللغوي والأدبي على عقد مقارنات، ومقاربات وموازنات. ومن هنا يمكننا رصد  
الرسمة العربية في الحضارة الإسبانية في العصر الوسيط وخلال القرن الذهبي وذلك  
في الأطروحة أمير كوكاسترو<sup>(1)</sup>.

وسنقدم بداية نبذة عن الصلات اللغوية بين الأندلس وإسبانيا المسيحية. ففي  
كتاب صدر سنة 1970<sup>(2)</sup>، بين وولف بأن مفردات عربية وفيرة دخلت إلى اللغات  
الإسبانية بلغت نحو 4000 كلمة<sup>(3)</sup>. وأن عدداً كبيراً من المفردات العربية ما زال  
يشكل حتى يومنا هذا مصطلحات الري، بدءاً بكلمة *norria* التي انتقلت إلى  
الفرنسية عبر الإسبانية وهي مأخوذة عن كلمة (ناعورة) العربية، وهذه بعض الأمثلة  
الأخرى *acquaia* (ساقية)، *Aberca* (بركة)، *Azuda* (سد)، *alqantiralla*  
(منطرة). كما توجد نسبة كبيرة من المفردات العربية في ميدان علم النبات، حيث  
يشهد غالبية أسماء الفواكه وأزهار الحدائق في الإسبانية على مدى ما استعارته من

(1) تم تسليط الضوء على غلبة التأثير العربي في الحضارة الإسبانية خلال العصر الوسيط والقرن الذهبي من قبل  
ناسترو حيث انجر من خلال البحث اللغوي إلى معاينة بعض التعبيرات والتنبيه إلى استيراد بعض المفردات  
المعلقة بقطاعات حياتية بالغة التنوع.

انظر: أميريكو، كاسترو، إسبانيا في تاريخها، مسيحيون ومسلمون ويهود، بيونس آيرس، 1948 (بالإسبانية).

(2) فليب، وولف، الأصول اللغوية لأوروبا الغربية، باريس 1970، (بالفرنسية).

(3) نفسه، ص 76.



العربية، ومن بين أشهر هذه الأسماء abaricoque (برقوق)، arriz (أرز)، naranje (نارنج - برتقال)، Limon (ليمون)، algodón (قطن)، aceituna (الزيتونه).

وطبوعي أن كيانا سياسيا وفضاء حضاريا من حجم الأندلسيين، جدير بإزاره اهتمام المفكرين والمؤرخين واللغويين. ومن هنا سنتوقف عند التأكيد على تعاملا اللغة العربية في المصطلحات القروسطية وحتى الحديثة للمؤسسات الإسبانية فمفردات التحصين، والحياة المدنية، وكذلك الأنشطة التجارية، كل ذلك ما زال يحمل حتى اليوم ميسم الحضور العربي في إسبانيا، وهو ما تمثل عبارات، Tabia (القلعة) و Tapiag (السور) و adobe (الذباغ) و Albanil (البناء) و al.ayag (البرج).

وقد بينت مؤخرا بعض الدراسات مدى التأثير العربي في التسمية الإسبانية للموازين والمكاييل والنقود (Fanega, quintal)، وبعض وظائف السلطة المدنية، مثل (صاحب المدينة)، و(صاحب الشرطة)، ثم تبنيها من قبل المسيحيين الإسبان، تحت اسم Zalmedina و Zavazirda. أما أمين التجار فقد احتفظ طويلا باسم almotacen، وهي صيغة محرفة مأخوذة من كلمة العربية (المحتسب).

وتكثر في أسماء الماكن الإسبانية الحالية، الاستعارات العربية، سواء تعلق الأمر بالأهوار مثل Cuadalquivir (الوادي الكبير)، أو بالقلاع مثل Almodavar (المدور) أو بالمدن مثل calatayud (قلعة أيوب)<sup>(1)</sup>.

(1) بخصوص التأثيرات العربية، يمكن الرجوع إلى الكتب التالية:

- دوزي وإنغلمان، معجم الكلمات الإسبانية والبرتغالية المتأتية من العربية، ليدن، 1869.

- فيليببي مايو، سالفادو، الآثار العربية في اللغة القشتالية في العصر الوسيط (اعتبارات تاريخية وفيلولوجية شلمنقة، 1983). (الإسبانية)

وكان سبق لإيفير يستوليفي - بروفنسال، أن لاحظ أهمية الظاهرة اللغوية وأن قال إن الاستعدادات في هذا العدد: «تبين، أفضل من كل الوثائق التاريخية التي حوزتنا، الإجماع الحضاري الحقيقي الذي مارسه الأندلس على إسبانيا المسيحية»<sup>(1)</sup>.

وقد سلط أمير يكو كاسترو الضوء على عادة إسلامية بقيت سارية في إسبانيا حتى القرن الثامن عشر، تلك المتمثلة في جلوس النساء على مصطبة، تسمى *la muelle*، مغطاة بالسجاد وبين الكاتب أن العديد من صيغ المجاملة المستعملة في اللغة الإسبانية متأية من العربية. وهناك روايب إسلامية في قول أحدهم ( *ésta esu casa*) لمن يزور بيته للمرة الأولى. وهي تشير إلى اعتبارات عربية مثل (البيت بيتك).

لقد استطاع المورسكيون الوافدين إلى مدينة الجزائر من العمل على شيوع لغة المورسكا (*lingua Franca*)<sup>(2)</sup>، التي تغلب عليها الكلمات الإسبانية وذلك لكون العائيد من العائلات المورسكية في القرن السادس عشر كانت تميل إلى استعمال الإسبانية (اللغة الإسبانية)، وهذا ما أكده بعض الرحالة والقناصل ورجال الدين الأوروبيين الذين زاروا الجزائر أثناء القرن الثامن عشر، أمثال لوجي دي تاسي (*Laugien de Tassy*) (1725)، والطبيب شاو (*D. Shaw*) (1732)، وكوندامين (*Condamine*) (1731) وغيرهم عن مظاهر التأثير اللغوي الذي يبدو في استعمال كلمة من الألفاظ الإسبانية في لغة التخاطب، وهي لا تزال مستعملة في مناطق

(1) إيفي بروفنسال، الحضارة العربية في إسبانيا، نظرة عامة، طبعة جديدة، باريس 1948، ص 128، (بالفرنسية).

(2) هذه اللغة كانت عبارة عن صبير (لغة التعارف بالإسبانية)، وهي خليط من المفردات الغربية والإسبانية والتركية والإيطالية، كانت مستعملة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني حتى سنة 1830.

ويعتقد الفرنسيون أنها كانت لغة الموريسكيين. راجع:

M. Emerit, « Le voyage de la condamine à Alger, 1731 », in, R.A (N° 98), 1954, P.375.

عديدة من مدن الجزائر، وقد أثرت في لساننا بواسطة المورسكيين أو بواسطة الإسبان، أنقسهم. والجدول التالي يبين تأثير العربية ببعض الكلمات الإسبانية دون شك:

اللفظ بالهجة الجزائرية	مدلوله	اللفظ باللسان الإسباني
بابور	باخرة	Babor
براقة	كوخ	Barraca
بلاصة	ساحة	Plaza
بلوزة	لباس	Blusa
بندير	دف	Pandera
برافو	ممتاز	Bravo
بلاكة	لافتة	Placa
بلكون	شرفة	Balcon
دورو	نقد إسباني	Duro
كانتينا	حانة	Cantina
كبوط	معطف	Capote
كارو	عربة	Carro
الكوشة	الفرن	Cocha
الكيف	النشوة	Kif
لامبة	مصباح	Lambara
لاطة	قطعة من الحديد الأبيض	Lata
الماريو	خزانة الملابس	Armoire
الماركة	النوع - الصنف	Marca
صالة	قاعة فسيحة	Sala

Sandalia	نعل	مسألة
Zapato	حذاء	صباط
Falta	خطأ	غالطة
Fabrica	معمل	فبريكة
Fantazia	المختال	فنتزية
Cardas	آلة تستعمل في كربة الصوت	قرداش
Semana	أسبوع	سمانة
Nana	كلمة تعظيم للمرأة وفي الإسبانية تستعمل للجدّة والحاضنة.	نانة

وأدر كنا أن استعمال الموريسكيين للغة الإسبانية في شمال إفريقيا حسبما تقدم ذكره من باب السعة الثقافية، ومن آداب الخطاب عند العربي الكامل مخاطبة الناس بما يشهرون. ولا غرابة في ذلك ما دامت اللغة كائنا حيا وكل كائن حي قابل للتأثر والتأثير عند احتكاكه بغيره. فكما تأثرت الإسبانية بعدد من الألفاظ العربية يطول ذكرها منها على سبيل المثال لا الحصر<sup>(1)</sup>:

اللفظ الإسباني	اللفظ العربي
Aduar	الدوار
Aduana	الديوانة
Alcazar	القصر

(1) الكلمات ومرادفاتها بالإسبانية الواردة في الجدول هي من الدكتور هلايلي حنيفي. وقد أنهى جوزيف شتيق نابليون دور دواوين التحقيق في إسبانيا سنة 1808م.

Alcazaba	القصبة
Alcoba	القبة
Alferez	الفارس
Atabal	الطبل
Aljofar	الجوهر
Almalafa	الملحفة
Almazara	المعصرة
Almenara	المنارة
Almocadem	المقدم
Almocri	المقري
Almohada	المخدة
almondiga	البندقية

ظل الأندلسيون بعد عملية الترحيل الجماعي (1609-1614م)، يحافظون على معتقداتهم سرّاً ويكتبون تراثهم بالإخميادية طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر. كما يتضح من كتابات سفراء المغرب إلى إسبانيا في تلك الفترة كالشريف الغساني سفير السلطان العلوي إسماعيل (1672-1727م) سنة 1699م. وقد ظلت الكتابات الأخميادية موجودة في إسبانيا حتى حروب نابوليون بونابرت.

وهي تكشف عن وجود الموريسكيين حتى تلك الفترة. ولهم في مخطوطاتهم شعر، ونثر جيد ونصوص قرآنية وفقهية عديدة قد يؤدي الكشف عن مخطوطاتهم إلى ظهور حقائق جديدة عن هذه الجماعات المضطهدة.

### 3- التراث الديني عند الموريسكيين من خلال المخطوطات الأخميدية.

رغم مرور عدة قرون على ضياع الأندلس، إلا أن الباحث العربي بصفة عامة لم يواجه كاملاً من حيث استخلاص الدروس والعبر من تلك التجربة الفريدة، وإلا أردنا أن نتعرف على مدى علاقة الشعائر الدينية التي مارسها الموريسكيون بالإسلام الصحيح فإن أماننا نوعين من المصادر:

1. ملفات محاكم التفتيش التي نظرت قضايا اتهام أشخاص بممارسة الشعائر الإسلامية المحظورة قانونياً.

2. المخطوطات التي خلفها الموريسكيون أنفسهم.

على أنه يجب أن نضع في الاعتبار أن ملفات محاكم التفتيش لا تتعرض لوصف الشعائر الدينية بطريقة دقيقة، ومعظم المسيحيين يصفون في بعض الأحيان شعائر لا تنتمي للإسلام بصلة ويتهمون من يمارسها بأنه مسلم. ومن العجب أن محاكم التفتيش الأسبانية كانت تأخذ برأيهم. قد تفيد ملفات محاكم التفتيش في التدليل على أن الأندلسيين ظلوا متمسكين بدينهم حتى اللحظات الأخيرة<sup>(1)</sup>.

تعتبر المخطوطات الموريسكية، وهي مخطوطات إما باللغة العربية أو الأخميدية<sup>(2)</sup>. والجزء الأعظم من هذه المخطوطات لم يدرس بعد رغم أهمية هذا

(1) للمزيد حول الموضوع يرجى العودة إلى:

Denise CARDAILLAC, « Alqayci et le moine de Lerida », ou comment affirmer une identité islamique en milieu chrétien », in Actes du II symposium international du C.I.E.M sur « religion, identité et sources documentaires sur les morisques Andalous », Publications ISD, Tunis, 1984, T1, PP.129-137.

(2) إن الأخميدية هي لغة مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة وهي ابتكار موريسكي في إسبانيا القرن 16م. وقد اتخذ الموريسكيون من الأدب الأخميدو وسيلة للدفاع عن كياناتهم أمام خطر الذوبان والانتشار، وكلمة أأخميدو

التراث في التعرف على إسلام أهل الأندلس بعد سقوط آخر حكومة تمثلهم في شبه جزيرة إيبيريا.

وقد رسم الراهب المسيحي بدرولونغاس (Pedro Longas) صورة إسلام الموريسكيين على أساس تلك المخطوطات<sup>(1)</sup>.

بدأت الترجمة إلى اللغة الأخمياوية كبداية لنشر ثقافة الإسلام عن طريق ترجمة القرآن الكريم والأحاديث النبوية والأدعية المأثورة. و اعتماد الخط العربي ذو الصبغة المغربية للدلالة على البعدين الديني والحضاري، إن التأليف باللغة الأخمياوية لدليل عن حجم المعاناة الموريسكية، والكشف عن الاغتراب الثقافي.

توصل الباحث الجزائري عبد الله حمادي ، إلى تقسيم الموروث الثقافي الموريسكي إلى أربعة مواضيع في مجال الكتابات الأخمياوية ، و تتمثل فيما يلي:

(Aljamiado) مشتقة من العربية وهي نعت بني علي كلمة Aljamia وأصلها "أعجمية" أي كل ما هو غير عربي ، فالأدب الأخمياوي هو إذا أدب آخر مسلمي الأندلس، أنظر:

محمد نجيب بن جميع: "الأدب الأخمياوي والموريسكي: تأصيل لكيان" في الكتاب التكريمي لمدرسة أوفيدو، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات: تونس 2003، ص19. وأيضا: جمال ، يحيوي، سقوط غرناطة مأساة الأندلسيين 1492-1610، الجزائر: دار هومة، 2004، ص283.

(1) حدد الراهب الإسباني لونقا الأطر العامة للإسلام الخفي المتبع من طرف الموريسكيين في إسبانيا خلال القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر من خلال أربع نقاط وهي:

الخط السياسي المتبع مع الموريسكيين في المجال الديني 1492-1605.

تمسك الموريسكيين بممارسة شعائر الإسلام.

اختلاف وضعية الموريسكيين زمانا ومكانا.

عدم فعالية وسائل محاكم التفتيش لتحويل الموريسكيين إلى الدين المسيحي.

لمزيد من التفاصيل راجع:

بدر لونقا، الحياة الدينية للموريسكيين الأندلسيين، (تعريب: جمال عبد الرحمان)، زغوان: سير مدي 1993، ص40-41.

صنف يتضمن الكتب ذات الطابع الديني: وسبب هذا التأليف الصراع الدائر بين المجموعتين المسيحية والموريسكية.

صنف يتضمن الكتب ذات الطابع الجدلي: ويدور فلكها في تمجيد الحضارة العربية الإسلامية والدفاع عن الشريعة والعقيدة من أباطيل المسيحية وشبهات الرهبان ورجال الكنيسة الكاثوليكية.

صنف يعالج الجانب القصصي: يتناول تاريخ الأمة الإسلامية، من غزوات وفتوحات.

صنف يعالج الجانب التشريعي: يتضمن الحياة العامة وأمور تتعلق بالفقه وشؤون الناس في حياتهم ومعاشهم<sup>(1)</sup>.

تشير المخطوطات الموجودة في المكتبة الوطنية بمدريد سواء المحررة باللغة العربية أو تلك التي كتبت بالأخميادية، إلى أن التراث الإسلامي الذي خلفه الموريسكيون يمكن تقسيمه على النحو التالي:

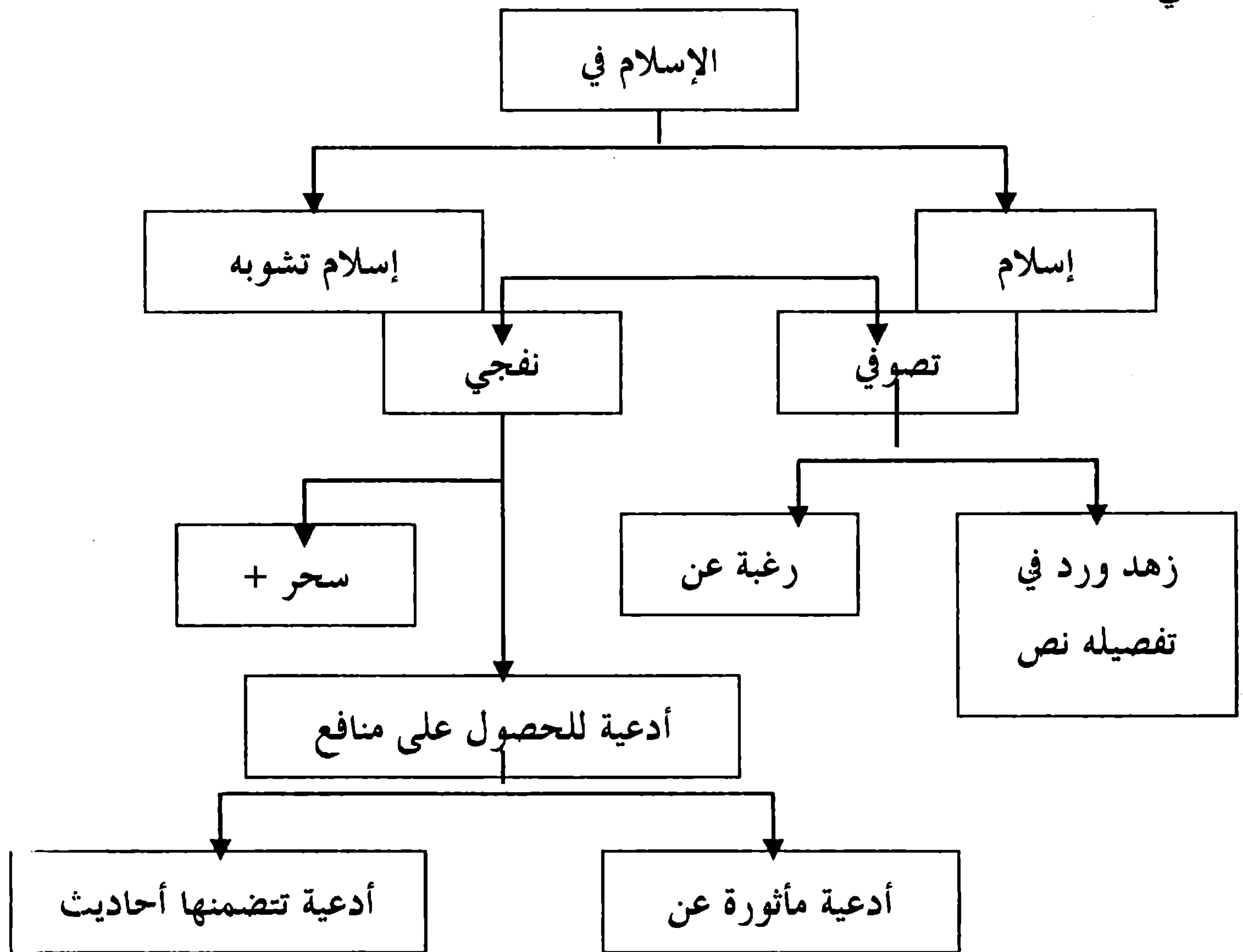
### الإسلام الصحيح:

الإسلام الصحيح موجود في مخطوطات تتعلق بشتى أنواع الكتابة الدينية كتفسير القرآن الكريم أو فقه العبادات والمعاملات. ورغم أن المذهب الغالب على هذه الكتابات هو المذهب المالكي، إلا أننا عندما نتحدث عن الإسلام الصحيح، نعني موافقة هذا التراث لأي من المذاهب الأربعة. والملاحظ في هذا النوع من المخطوطات أنها شروح لكتب قديمة، والمخطوطات مفيدة لمن يرغب في دراسة كيفية تدهور مستوى اللغة العربية في الأندلس بعد سقوط غرناطة.

(1) عبد الله، حمادي، الموريسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس 1492-1616، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989، ص 116



تعرض إحدى المخطوطات إلى فصول عن الوضوء الواجب ووضوء النساء والتيمم، ثم تدخل إلى شرح الصلاة فتحدث عن تكبيرة الإحرام والتشهد وسبب الوتر ثم تفرد فصلاً للزكاة وتفرق بين زكاة الحلي وزكاة الفطر وتنتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الصوم، ثم تعرض أركان الحج رغم استحالة تأدية هذه الفريضة عملياً بالنسبة للموريسكيين، ومجموع الأحاديث منسوبة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه (1).



(1) Abdekjelil, Temimi, « Attachement des Morisques a leur religion et a leur identité à travers les Hadiths dans deux manuscrits morisques », in, Actes du II symposium..., op.cit, II, PP.155-160.

## الإسلام الذي تشوبه شوائب:

في هذا القسم من المخطوطات اختلط الحق بالباطل، فالإسلام التصوفي على سبيل المثال يجنح إلى الزهد في متاع الدنيا والاستعداد للآخرة. وتعتبر المخطوطة رقم 5099<sup>(1)</sup> مثلاً للكتابات الزهدية فهي تتعرض لقصة الإسراء والمعراج وتصور المزاء الذي ينتظر المقتصرين في أداء الطاعات، ويذكر مؤلف المخطوطة، أن النبي ﷺ أتاه في مكة فوجد ربحاً طيبة تنبعث منها، أنها رائحة امرأة كانت تبيع الله مع امرأة فرعون، وتتضمن المخطوطة رقم 5390<sup>(2)</sup> - معظمها من وحي نبيال المؤلف - عن الصحابة والتابعين، تهدف جميعها إلى تقديم الموعدة والعبرة، وهي تحكي قصة وفاة بلال بن حمامة (بلال بن رباح) رضي الله عنه وتعرض وصية النبي ﷺ لأبي ذر الغفاري. من المهم أن نذكر أن هذه المخطوطة قد كتبت عام 1603م ولعل في هذا أبلغ دليل على تمسك الموريسكيين بالإسلام كما تنص إحدى المخطوطات الموريسكية على إمكانية أن يحصل الشخص العادي على أجر أولي العزم من الأنبياء بمجرد قراءة دعاء معين وعلى أن إنكار الدعاء يخرج الإنسان من دائرة الإيمان. إن هذه المخطوطات تمضي في هذا النوع من السرد الذي يميز بعض الأحاديث الموضوعية:

«أما عبد دعاء بهذا الدعاء بنية خالصة يخالطها شيء من الشك أو رمضان وآخره في كل يوم جمعة وليلتها يريه الله تعالى ليلة القدر ويخلق الله له سبعون ألف ملك في مدينة النبي عليه السلام وسبعون ألف ملك في المشرق وسبعون ألف ملك في المغرب لكل ملك عشرين ألف رأس عين وعشرين ألف فم وعشرين ألف لسان

(1) مخطوطة رقم 4987، المكتبة الوطنية، مدريد (إسبانيا).

(2) نفسه.

يسبحون الله تعالى بلغات مختلفة ويجعلون ثواب تسبيحهم لمن دعا هذا الدعاء،  
والدعاء نفسه عبارة عن تسبيح في بضع وستين صفحة<sup>(1)</sup>.

وإنه لمن الأهمية بمكان معرفة الأسباب التي أدت إلى انحراف بعض مسلمي  
الأندلس عن طريق الصحيح. يتبين من خلال المخطوطات الموظفة في هذه الدراسة  
أن البدع كانت وراء وضع أحاديث تدعوا إلى الزهد ونسبت هذه الأحاديث إلى  
النبي ﷺ. ولا نستبعد مشاركة غير المسلمين في وضع أورايد تهدف أساسا إلى  
تعويض أركان الإسلام في الأندلس<sup>(2)</sup>.

ظل الأندلسيون إلى غاية 1525م يتمتعون بمساجدهم وفقهائهم، لكن بعد فرض  
التعميد الإجماعي أعطيت الأوامر بإغلاق جميع المساجد، وأصبحت بذلك العبادات  
تمارس داخل المنازل وفي مساجد سرية. رغم المتابعات المتواصلة التي كان يقوم بها  
المحققون فإن الفقهاء ظلوا يؤطرون الموريسكيين يعلمونهم مبادئ دينهم، ويحثونهم  
على التمسك بها، وعدم الانحراف وراء حملاتهم التبشيرية التي كان يقوم بها الرهبان،  
وكان دورهم بارزا أثناء المناسبات الدينية، فقد كانوا مكلفين بجمع الصدقات  
وتوزيعها على المعوزين، كما كانوا يشرفون على عمليات ختان الأطفال<sup>(3)</sup>.

وإليك نص أحميادي يتحدث عن سوق غرناطة: يخاطب يوسف بناغس  
(Yuse Banegas) فتى أريفلو (El Mancebo de Arévalo)، قائلا:

«يا بني، أنا أعلم أنك لا تعرض شيئا عن أحداث غرناطة، فلا ترجع إن  
ذكرتك بما جرى، فلطالما طاردتني هذه الذكرى ومزقت أحشائي في كل لحظة. يا

(1) مخطوطة رقم 5384، المكتبة الوطنية - مدريد.

(2) ربما يكون رجال الكنيسة وراء وضع أحاديث مدلسة لتقويض الإسلام عند الموريسكيين.

(3) محمد، رزوق، المرجع السابق، ص 104-105.

يا بني، أنا لا أبكي الماضي لأن ما حدث لا رجعة فيه، ولكنني أبكي ما سيحدث وما  
 سيحدث لو بقيت على قيد الحياة في شبه جزيرة الأندلس، وأسأل الله عزّ وجلّ أن  
 يثابرتنوّاتي، إذ سيأتي يوم يقول فيه الناس أين ذهب الأذان؟ ماذا صنعوا بدين  
 الأندلس؟ وستكون الحسرة والمرارة في نفس كل من يفقه. ومما يزيد ألماً أن  
 المسلمين سيلبسون لباس النصارى وسيأكلون من طعامهم. والله أسأل أن لا  
 يوافقوا إلى دينهم بقلوبهم وأن يكون صنيعهم مجرد تقية. قد أبدو لك متحمساً  
 ولكن ما سيكون مصيرنا إذن نحن وصلنا إلى الفاقة في وقت وجيز؟ وإن كان  
 الأولياء يحرفون دينهم، فكيف سيرفع أبناؤهم وأحفادهم من شأنه؟ وإن لم يف  
 الملك إسبانيا (Fernando el catolico) بوعوده، ماذا نترقب من خلفائه؟ يا بني  
 سيزيد حالتنا تدهوراً والله أسأل أن يحيطنا برحمته وعفوه»<sup>(1)</sup>

يتضح مما سبق أن الملك الإسباني فيليب الثاني (1556-1598م) صار في نفس  
 الاستراتيجية العامة التي حددها أبوه شارل الخامس (1519-1556م)، وتتمثل في  
 ضرورة اتخاذ تدابير صارمة بحق الموريسكيين، وقد تألفت لجنة لوضع أنظمة جديدة  
 تطبق على الموريسكيين منها:<sup>(2)</sup>

- منع استعمال اللغة العربية، ويجب تسليم الكتب العربية في ظروف ثلاثين  
 يوماً.

- إجبار النساء الموريسكيات على كشف وجوههن.

- إجبارهن على ترك أبواب بيوتهن مفتوحة في أيام الأعياد.

(1) Harvey, « Yuse Banegas, un moro noble en Granada bajo Los Reyes catolicos », in, Al Andalus, XXI, 1956, P.297.

(2) الأوامر صدرت بتاريخ 1566.

- يمنع الموريسكيون منعا كليا من امتلاك العبيد<sup>(1)</sup>

لقد كان للموريسكيين أسلوب خاص لمواجهة المد المسيحي يرتكز أساسا على مبدأ التقية، إذ يقول الشهاب الحجري في هذا الصدد: «وكانو يعاينون دينين: دين النصرى جهرا ودين المسلمين في خفاء من الناس»<sup>(2)</sup>

وقد أكد المؤرخ الفرنسي لوي كاردياك: «أن قضايا محاكم التفتيش مازالت لحد الآن ترتجف بالحياة، إذ من خلال شهادات الشهود ومرافعة المتهمين، أو اتهام الوكيل العام تبتق أمام أعيننا الطائفة المسيحية وعلاقتها مع الأقلية الموريسكية»<sup>(3)</sup>.

لقد حافظ الموريسكيون وإلى اللحظة الأخيرة، على فقهاءهم وتنظيماتهم ومساجدهم، وكيف كانوا يرشدون مواطنيهم. ولا غرابة في الدور الخطير الذي كانوا يقومون به، فقد اتصفوا بالصبر والثبات حتى في أحلك الظروف: ظروف السجن، ففي سنة 1601، وبسجن طليطلة كان الفقيه (Geronimo de Rujas) يجادل المسيحيين المسجونين معه ويقول لهم: «أنه يرغب في إنقاذ أرواحهم، وأن الله سوف ينصرهم وينقذهم من العمى والجهل الذي يحيط بهم»<sup>(4)</sup>.

وقد صرّح (Aznar Cardona) - وكان قد مارس مهنته التنصيرية طويلا لدى الموريسكيين - بأنهم ظلوا يمارسون عباداتهم إلى آخر يوم من طردهم<sup>(5)</sup>. وهذا

(1) Jacqueline Fournel, Guérin, les Morisques aragonais et l'inquisition de saragosse (1540-1620), thèse inédite, Montpellier III, 1980, PP.155-160.

(2) الشهاب، الحجري، المصدر السابق، ص21.

(3) Louis Cardillac, Morisques et chrétiens, un affrontement polémique (1492-1640), Paris, 1977, P.13

(4) ibid., P.65.

(5) Aznar Cardona (P), Expulsion justificada de los Moriscos espagnoles y suma de la excelencias christianas de nuestro rey don Huesca, 1612, F.49.

«أودعنا الشهاب الحجري: «..ولتعلموا ما بين عبادة الكافرين وعبادة المسلمين، والثناء لله على ما أنعم به علينا باعتقاد الحق، وطهارة الجسد والملبس، والجامع الداهر النقي من الأوثان والأدران، لأنها من أعظم النقم»<sup>(1)</sup>.

و كثيرا ما واجه الموريسكيون مخاطبهم بما يكونه في صدورهم، فايزابيل دونيا (Dona juana Izabel) من طليطلة صرحت من «أن عقيدة العرب أفضل من «عبادة المسيحيين»<sup>(2)</sup>. وقد توبع الموريسكيين من طرف محاكم التفتيش على الصوم، والوضوء والصلاة، والصدقة، بل الحج. وإذا كان الوضوء صعبا، فإن الصلاة على العكس من ذلك مارسها الموريسكيون بصيغ مختلفة، وكانوا يقومون بها في إطار عائلي أو في إطار جماعي تحت إمرة إمام يختارونه لهذا الغرض<sup>(3)</sup>.

وكانوا متمسكين بالصلاة إلى أقصى حد ممكن، مارسوها وهم في السجون وهم تحت التعذيب، وهم ذاهبون إلى الحرق، وكثيرا ما اكتشفوا من طرف حواسيس محاكم التفتيش وهم يمارسونها<sup>(4)</sup>. كما حافظوا على قدسية يوم الجمعة، إذ تتوقف في هذا اليوم جميع الأنشطة التجارية، ويرتدون الألبسة النظيفة، كذلك حافظ الموريسكيون على صوم رمضان رغم شبكة الجواسيس الخطيرة التي كانت تحيط بهم، إذ يتغير في هذا الشهر سلوك الموريسكيين تماما.

امتنع الموريسكيون بصفة عامة عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر رغم الضغوط الكبيرة التي كانت تمارس ضدهم<sup>(5)</sup>.

(1) الشهاب، الحجري، المصدر السابق، ص 44.

(2) Louis, Cardailac, op.cit, P.16.

(3) Jacqueline Fournel-Guérin, op.cit, P.132.

(4) ibid., p.133.

(5) Idem.

تعتبر الفترة الأندلسية تجربة فريدة بكل المقاييس، فقد وصل المسلمون إلى شبه جزيرة إيبريا وهم في أوج قوتهم، وطردوا منها عندما بدت في دولتهم عواصف الضعف والانكسار. لقد عاجلت الدراسات الأندلسية جوانب كثيرة لكن الجانب الديني لم ينل نفس القدر من الاهتمام، وقد حاولنا من خلال هذه الدراسة المتواضعة تقديم صورة عامة لما صار عليه الإسلام بعد سقوط غرناطة، وصياغة قرارات السلطات الإسبانية الخاصة بحظر ممارسة الشعائر الإسلامية واستعمال اللغة القشتالية (الإسبانية) قراءة وكتابة وتحديثاً.

## ملحقات

### - وثيقة رقم 1

علبة رقم 16 مكرر. وثيقة 1- 218 في شهر جمادى الثانية عام 1073هـ/1662م

موضوع الوثيقة: تناول عقد شراء وتأسيس حانوتين قرب باب عزون، من طرف الحاج علي بن حسن الأندلسي صانع الشواشي بثمان قدره 2800 دينار، وحبسهما لفائدة فقراء الأندلس وفقراء الحرمين الشريفين.

«الحمد لله بحق أن خلص للحررة خديجة بنت الحاج محمد الحجام، تملك جميع الحانوتين الاثنتين الكائن أحدهما بالخضارين فوق شارع باب عزون أحد أبواب محروسة الجزائر الملاصق للحانوتين الاثنتين، أحدهما لصيق باب الواد المعروف لابن فارة أحمد الكائن هنالك داخل البلد المذكور، والحانوت الآخر بالفكاهين قرب الشارع المذكور بداخل البلد المذكور الشهيرة، أولهما، الصائرتين لأمها المذكورة إرثا من ابنتها فاطمة بنت علي الصبان المتوفى عنها، وعن ولديها الفاضلين السيد أحمد والسيد محمد ابني المرحوم الحاج أحمد المنجيط بمصالحه خديجة المذكورة جانب بيت المال من البلد المذكور، عن مال من متخلف أمها المذكورة أصلا وسواء بواسطة بعلمها الحاج محمد الخياط بن علي الحجام مع أولادهما الموصى لهم بالثلث وهو الحاج علي وعمر وعزيزة في متخلف أمها المذكورة حسبما ذلك كله



مسعى في رسم عن وال بين المال المذكور في التاريخ مؤرخ في أواخر جمادى الأولى من عام تاريخه.

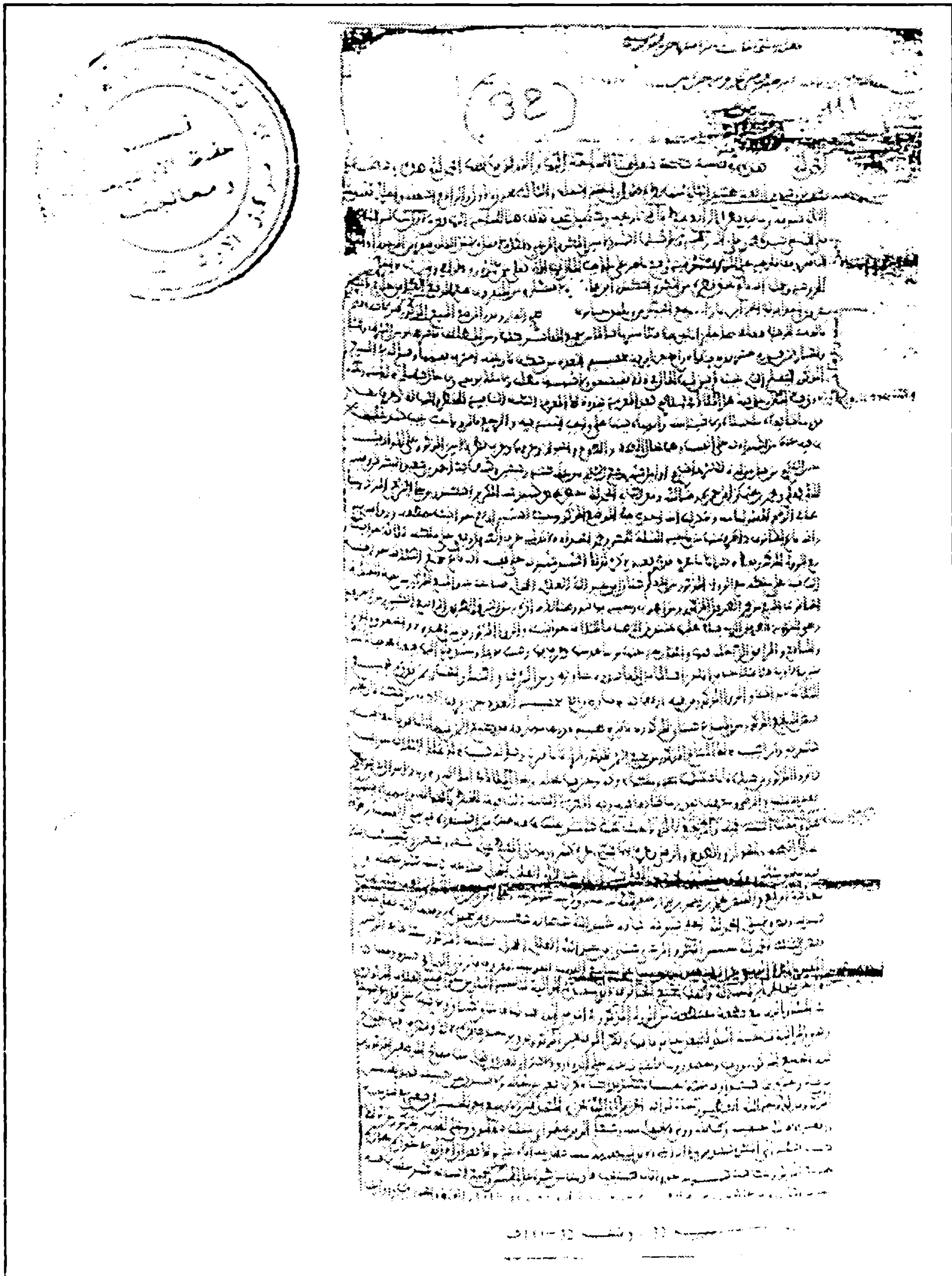
وقبض عليها شهيدا الخلوص التام، اشترى منها الناسك الحاج علي صانع الشواشي ابن حسن الأندلسي جميع الحانوتين الاثنتين المعروفة أحدهما لابن الشريف والأخرى لعلي العباد بحدودهما وحقوقهما وعامة منابعهما الداخلية فيها والخارجية عنها، وما عرف منها وعرف بها ونسب قديما وحديثا إليهما، اشترى صح عقده دون شيء يفسده من الشرط والخيار بثمن قدره في الحانوتين المذكورين وفي كافة حقوقهما ألفا دينار اثنان وثمانمائة دينار (2800) كلها جزائية خمسينية العدد من سكة تاريخه.

ثم أشهد المشتري الحاج علي المذكور شهراً به علي نفسه أنه حبس علي فقراء الأندلس القاطنين بمحروسة الجزائر وعلي الفقراء القانطين بالحرمين الشريفين مكة والمدينة زادهما الله تشريفا، جميع الحانوتين الاثنتين المذكورتين بما لهما من حدود وحق داخلها خارجا عنها، وما عرف منها وعرف لها ونسب قديما وحديثا إليهما، شطرهما لفقراء الأندلس المذكورين وشطرهما الآخر الباقي منها الفقراء الحرميين الشريفين، يقتاتون سبيله ومنواله حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، وأذن المحبس المذكور للناسكين الحاج يحيى الخياط وكيل فقراء الأندلس في التاريخ وابن محمد الأندلسي والسيد الحاج محمد بن سالم وكيل فقراء الحرميين الشريفين في التاريخ في حوز الحانوتين المذكورين عنهما عند لمن ذكر، شهد علي المشتري والبائعة والحائزين المذكورين بما فيه عنهم بتعريف بعلها المذكور بتاريخ غرة جمادى الثانية من عام ثلاثة وسبعين وألف».



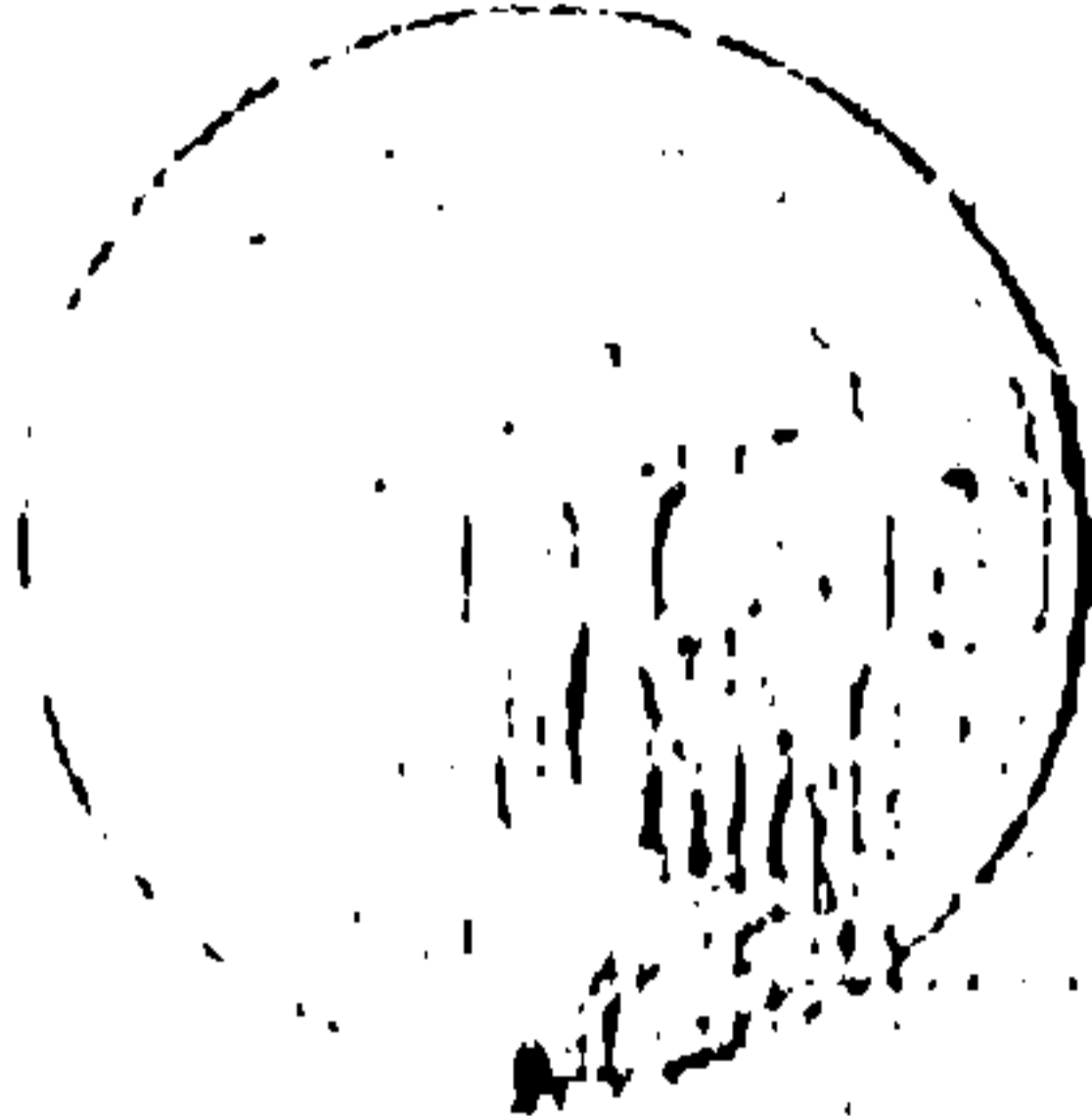
ويملكوه دونه وحل فيه محله محل ذي المال وماله وذي المال الصحيح في ملكه بعين الرؤية والتفليس والرضى، باعتراف المشترين المذكورين وفيهم الجميع، وأمضوا ذلك بينهم على رحب سنة ثم أشهر المتاعون المذكورون أشهروا به على أنفسهم أنهم حبسوا جميعا الدار المذكورة على المكرم الأجل فضل الخير أرض المرتضى السيد أحمد العطار بن أحمد الأندلسي عرف الغماري، وعلى عقبه وعقب عقبه المذكور وما تناسلوا، فإن انقرضت عن أحدهم وتولى على جميعهم، رجعت الدار المذكورة نصفين، النصف منها حبس على فقراء الأندلس بالجزائر المحمية، والنصف على فقراء المدينة المشرفة والأندلسي منهم على ساكنها برضى من فضلاء الأندلس بالجزائر المحمية بالله، حبسوا بتاريخ أوائل شوال المبارك من عام ثلاثة وسبعين وألف في دار السيد أحمد العطار المرابط في فحس سوق الكتان بجوار زنقة الموجاجو.

# 1. وثائق خاصة بالجمالية الأندلسية ونشاطاتها مختارة من سجلات المحاكم الشرعية المحفوظة بالأرشيف الوطني الجزائري.





هذا كتاب من كتب بيت المقدس  
تتمتع بها بيت المقدس  
الكتاب رقم 1000



الحمد لله... نسخة رسمت في بيت المقدس...  
الحمد لله على ما فعله المصنف...  
هذا الكتاب من كتب بيت المقدس...  
تتمتع بها بيت المقدس...  
الكتاب رقم 1000

## 2- وثائق باللغة العثمانية.

الوثيقة الأولى: مهمة دفترى رقم 23/حكم284-تاريخ 19 رجب 981هـ-  
السبت 14 نوفمبر 1573م.

السلطان العثماني: سليم الثاني حاكم الجزائر: أحمد باشا العربي (1572-1574م)  
حكم وأمر إلى أيالة الجزائر.

حكم إلى بيلرباي أيالة الجزائر ، فإن أهل الأندلس والمدجنين الفقراء قاموا برفع شكوى وعرض حالتهم، بأن معظم هؤلاء الفقراء هم أهل علم وثقافة، ومادام أنهم لا يملكون قدرات للاشتغال في مجالات وأنشطة أخرى، فقد اشتكوا من ضيق وعسر المعيشة وزيادة على ذلك ففي المناطق التي استقروا وسكنوا فيها. وفي الكثير من الأحيان ورغم ظهور مناصب شغل شاغرة ، فإن قضاة وحكام تلك المناطق، كانوا يعطون هذه المناصب إلى أهل البلاد الأصليين الذين يفضلون عنهم، حتى أصبح من العسير ومن الصعب إعطاء هذه الوظائف إلى الأندلسيين والمدجنين. وبناء على ذلك، فإن أهل الإسلام فقراء أهل العلم والقرآن سواء كانوا من الأندلسيين أو من العرب المدجنين أو من غيرهم، تعطى الوظائف ومناصب الشغل لمستحقها لا غير.

وعليه فإن عند وصول حكمي هذا ، لابد من تنبيه سائر القضاة وحكام تلك المناطق، وكذلك المشرفين على الأوقاف، بأنه في حالة ظهور مناصب شغل شاغرة

لا بد من تعيين وتوظيف المستحق واللائق بها لا غير، وذلك حسب الوجه المشروع لا يعذر ولا يعلل هذا الموقف عند توجيه وإعطاء الوظيف بأن هذا أندلسي وذلك عربي مدجن وغيره من الأقوال.

الوثيقة الثانية: مهمة دفترى رقم 23/حكم 284-تاريخ 27 رجب 981هـ-  
الاثين 24 نوفمبر 1573م.

### حكم وأمر إلى أياالة الجزائر.

قام حاليا الفقراء الأندلسيون والثغريون والمدجنون بإرسال مبعوث إلى الباب العالي ذكر بأنهم بعد ترك أموالهم ووسائل رزقهم (بإسبانيا)، فقد نزلوا بأياالة الحرب (الجهاد) الجزائر والمناطق التابعة لها، وأصبحوا فقراء لا يملكون أي شيء. ورغم ذلك فإن قياد وحكام تلك المناطق قاموا بفرض وأخذ الضرائب منهم، كغيرهم من رعايا البلاد وتكليفهم بتكاليف أخرى، جعلتهم يشتكون من ضيق وعسر المعيشة، بل وحتى الأجور التي كانوا يتحصلون عليها من عملهم اليومي. فقد كانت تؤخذ من أيديهم وحتى البحارة فقد أخذوا أموالهم وأمتعتهم والتعدي عليهم وهذا حسب الدعوى التي رفعوها.

وعليه ما هو سبب أخذ أمتعة وأموال والأجور التي تحصل عليها هؤلاء الفقراء أهل الإسلام الذين خرجوا من دار الحرب (إسبانيا) إلى ممالكي المحروسة؟.

وعليه فإنه بموجب الأمر السلطاني عليك بالانقياد والحيطة بأن تؤخذ أموال

و أمتعة هؤلاء الفقراء ولا الأجور التي تحصلوا عليها من عملهم، وأن لا يعامل هؤلاء كعمال مؤقتين، والعمل على كشف الأشخاص والتحقيق مع الذين أخذوا أجورهم اليوم. وإبادة وبيع الأموال لأصحابها وكذلك أمتعتهم وكل وسائل

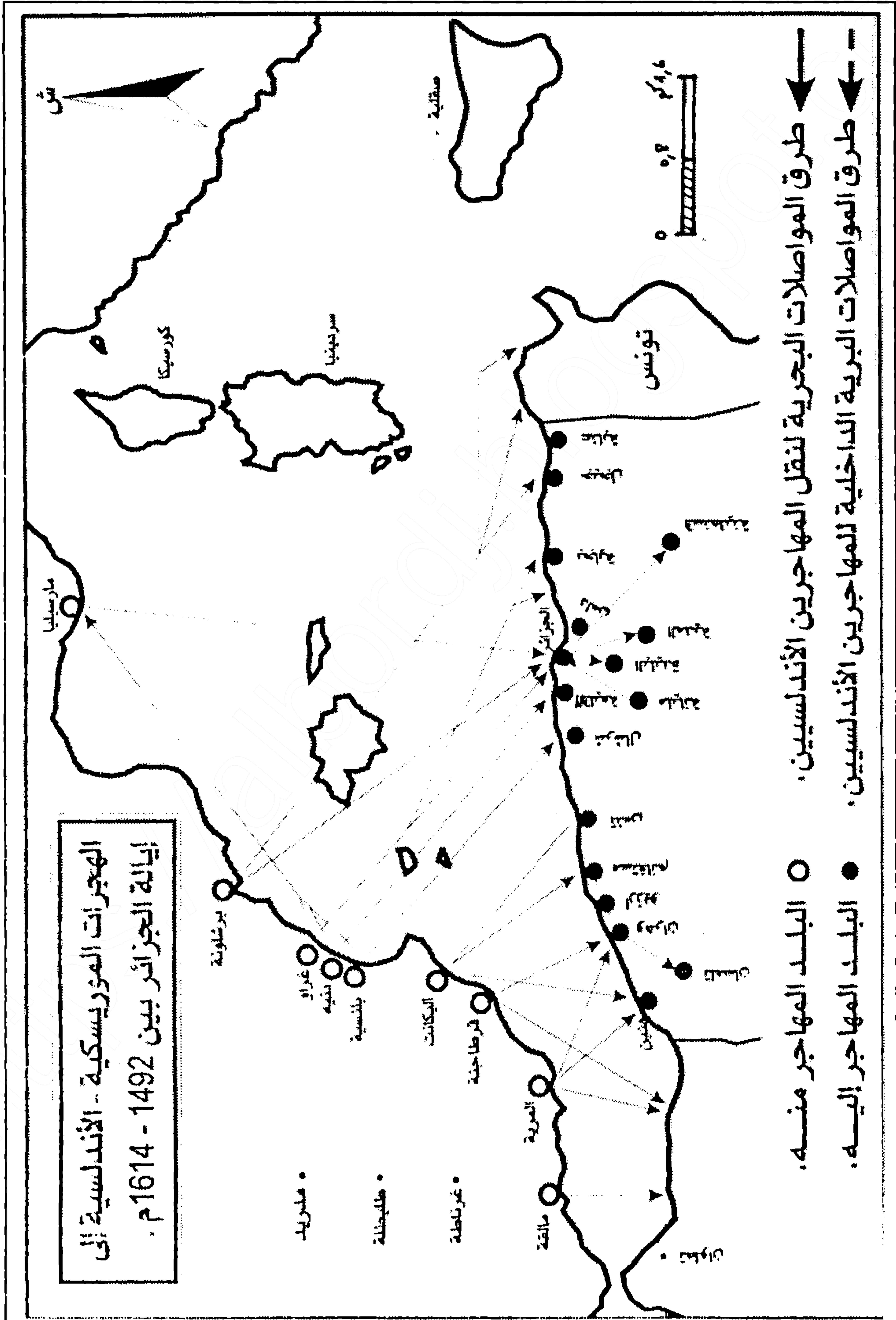


رزقهم، وأن لا يتدخل أحد في شؤون هؤلاء الفقراء الذين يعفون من دفع الضرائب وكل التكاليف لمدة ثلاث سنوات كاملة، وهذا حتى يتم استقرارهم كغيرهم من رعايا الأيالة وذلك حسب القانون الجاري بتلك المنطقة، ولذا يؤكد أن الأمور المخالفة للشرع الشريف، فهي غير جائزة وكذا كل أنواع التعدي، غير مقبولة. وليبقى الأمر السلطاني هذا، هو النافذ والسائل المفعول.

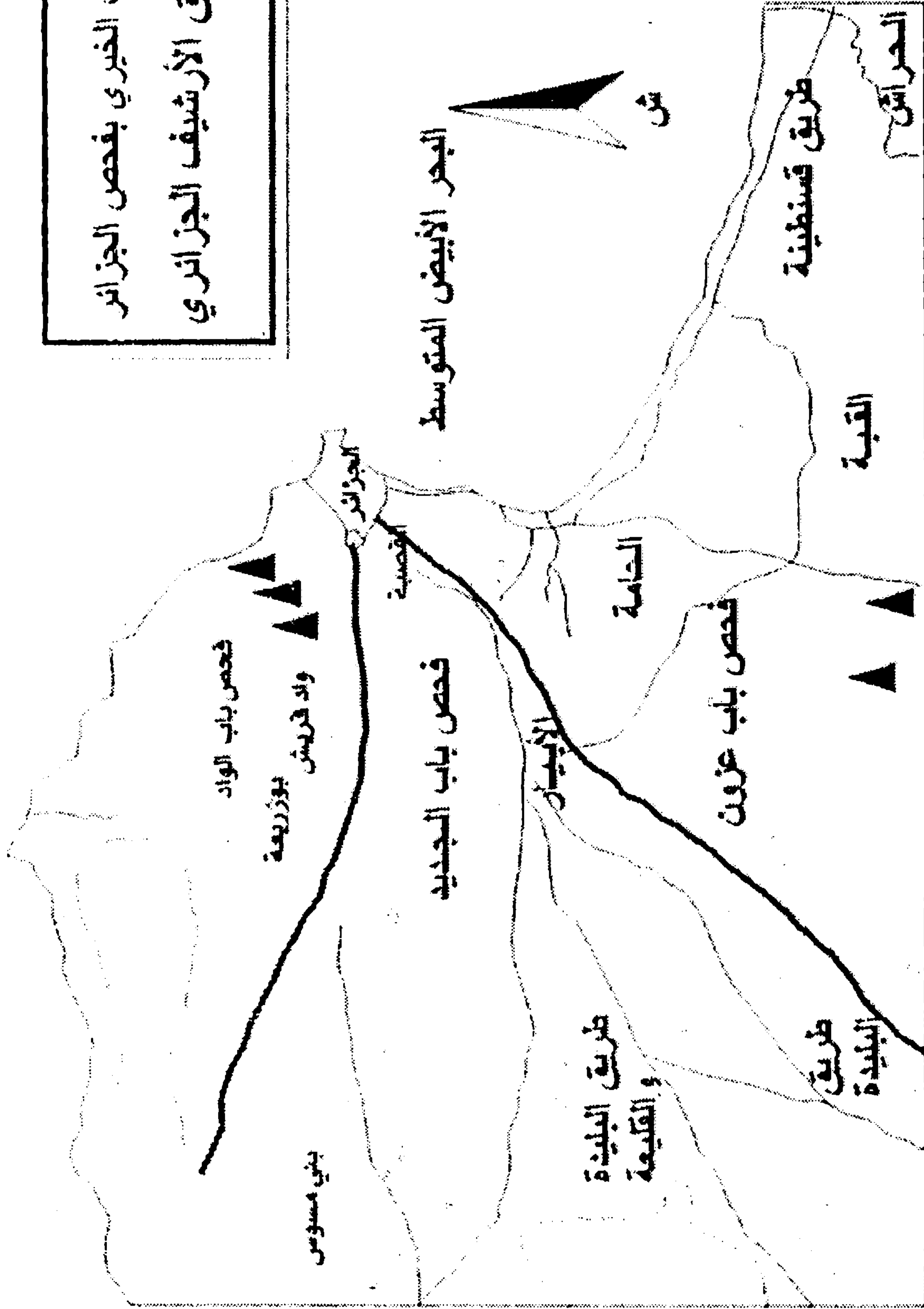




## الخرائط



خريطة توزيع الوقف الخيري بفحص الجزائر  
اعتمادا على وثائق الأرشيف الجزائري



المفتاح

- ▲ أوقاف أهل الأندلس
- طوبى جهات الفحص وأحراج و غابات
- طريق

المصدر : ناصر الدين سعيدوني ، دراسات في الملكية العقارية ، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1986 ، ص 81

## الفهرس

04.....مقدمة

### القسم الأول: الهجرات الأندلسية إلى الجزائر

1 - الهجرة إلى المغرب الأوسط قبل سقوط غرناطة 1492م.....07

2 - الهجرة الأندلسية إلى الجزائر ما بين (1492-1609م).....18

3 - الهجرة الأخيرة (1609-1614م).....34

4 - يهود شبه الجزيرة الإيبيرية في الجزائر.....44

5- الإسهام الحضاري الأندلسي في الجزائر خلال العهد العثماني.....49

أ - الأندلسيون والنشاط الإداري والعسكري.....51

ب - الأندلسيون والحياة الاجتماعية.....57

ج - الأندلسيون والحياة الثقافية.....81

د - الأندلسيون والنشاط العمراني.....86

### القسم الثاني: حرية الاعتقاد عند الموريسكيين الأندلسيين بين ازدواجية مراقبة

#### محاكم التفتيش والهجرة.

1- محاكم التفتيش: المراقبة والتعذيب.....92

- 2 - التقية أسلوب المواجهة الجديدة ..... 97
- 3 - موقف فقهاء الإسلام من الهجرة الأندلسية ..... 105
- أ - فتوى الونشريسي الأولى ..... 106
- ب - الفتوى الثانية ..... 108
- ج - فتوى المغراوي ..... 110
- 4 - الجزائر الملف الموريسكي الأندلسي ..... 115
- أ - ظهور الوحدة الإسبانية وبداية المأساة الموريسكية ..... 115
- ب - أوضاع شمال إفريقيا قبيل مجيء الأتراك العثمانيين ..... 121
- ج - الجزائر والملف الموريسكي الأندلسي ..... 124

### القسم الثالث : الحضور الأندلسي في الجزائر خلال العهد العثماني

#### على ضوء وثائق المحاكم الشرعية.

- 1 - الأندلسيون والنشاط الاقتصادي ..... 130
- 2 - الأندلسيون والنشاط التجاري ..... 132
- 3 - الأندلسيون والحياة الاجتماعية ..... 135

### القسم الرابع : الذاكرة الموريسكية في الكتابات العربية والتراث الأحميادي.

- 1 - الأندلسيون في كتابات أحمد المقرئ التلمساني (أزهار الرياض نموذجاً) ..... 139
- 2 - الحرف العربي: تعبير مقدس في نصوص المخطوطات الأحميادية الموريسكية ..... 150
- 3 - التراث الديني عند الموريسكيين من خلال المخطوطات الأحميادية ..... 165

## الملاحص

- 1 - وثائق خاصة بالجلالية الأندلسية ونشاطاتها مختارة من سجلات المحاكم الشرعية  
المفوضة بالأرشفيف الوطني الجزائري.....179
- 2 - وثائق باللغة العثمانية.....182
- الوثيقة الأولى: الأندلسيون يشتكون إلى السلطان العثماني من الضيق وعسر  
المعيشة.....182
- الوثيقة الثانية: شكوى الفقراء اللاجئين من أهل الأندلس من التعدي عليهم  
وحرمانهم من وسائل العيش.....183

## الخرائط

- خريطة الهجرات الأندلسية إلى الجزائر 1492-1614.....187
- خريطة توزيع الوقف الخيري بفحص الجزائر.....188



## المؤلف في سطور



الأستاذ حنفي هلايلي من مواليد 27 - 12 - 1967 بسيدي بلعباس متزوج وأب لثلاثة أطفال ، يشغل وظيفة أستاذ التعليم العالي .  
تحصل على شهادة البكالوريا آداب بسيدي بلعباس سنة 1987 .  
ثم تحصل على شهادة ليسانس في التاريخ من جامعة وهران سنة 1991 ،  
ثم شهادة الكفاءة الأستاذية للتعليم الثانوي في ديسمبر 1992 بسيدي بلعباس ، نال شهادة الماجستير بجامعة وهران سنة 1999 وشهادة الدكتوراه بجامعة سيدي بلعباس في ماي 2004 واختص في دراسة التاريخ الحديث والمعاصر ، المؤلف له دراسات منشورة داخل وخارج الجزائر ، وله مشاركات عضوية في الملتقيات الوطنية والدولية .  
صدر له 3 مؤلفات في التاريخ ، فتح 3 مشاريع ماجستير في التاريخ كما أنه أشرف على تأطير ومناقشة العشرات من الرسائل الجامعية " ماجستير ودكتوراه " ، يشغل مدير مخبر الدراسات الإستشراقية منذ 2007 ، ومدير مجلة الحوار المتوسطي ، رئيس مشروع ل ، م ، د في العلوم السياسية - تخصص : النظم السياسية والعلاقة الدولية .

## هذا الكتاب :

دراسات وبحوث تاريخية تدور حول مسلمي الأندلس أو العرب المنتصرين بعد سقوط غرناطة ، الذين فرض عليهم التنصير القسري ما بين " 1502 - 1526 " وبقي أحفادهم حتى عمليات الطرد النهائي سنة 1609 م وهم الذين يطلق عليهم اسم " الموريسكيين moriscos " .  
أهم ما يستعرض الكتاب عبر فصوله :  
القسم الأول : الهجرات الأندلسية إلى الجزائر .  
القسم الثاني : حرية الاعتقاد عند المورسكيين الأندلسيين بين ازدواجية مراقبة محاكم التفتيش والهجرة  
القسم الثالث : الحضور الأندلسي بالجزائر في العهد العثماني على ضوء وثائق المحاكم الشرعية .

ISBN 9974262511

أبحاث ودراسات في التاريخ  
الأندلسي الموريسكي



5DHD0227A

PRIX: 300.08

hanifi\_andalous@yahoo.fr